بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الملك عبدالعزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا
فرع الدراسات التاريخية

الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس

(١٢٨٦ - ١٣٢٦هـ/ ١٨٦٩-١٩٠٨م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب
نبيل عبدالحي رضوان

إشراف
الدكتور/ محمد عبداللطيف البحراوي

١٤٠٠ — ١٤٠١هـ
١٩٨٠ — ١٩٨١م

الرمـــوز المستعملة فى الرسالـــة

الرمــــز	مايعـــــبر عنــــــــه
ت	توفى
جـ	جـزء
ق	قسـم
ط	طبعـة
ص	صفحـة
C.R.T.P.	Correspondence Respocting Turkish Proceedings in Neigbourhood of A den.
P	Page.

المقدّمة

أهميّة الجزيرة العربيّة
وعلى الأخص الحجاز
للدّولة العثمانية

بسم الله الرحمن الرحيم

" مقدمـــــــــــة "

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فان أهمية الجزيرة العربية ترجع الى العصور القديمة ، اذ قامت بهـــا حضارات عديدة منذ فجر التاريخ ، وكانت مركز الاتصال بين الشرق والغـــرب حيث تقوم العلاقات الاقتصادية على أساس متين من تبادل حاصلات الاقليـــم الموسمي في الشرق وحاصلات اقليم البحر المتوسط في الغرب . (١) وموقع الجزيرة العربية عظيم الأهمية بالنسبة للمواصلات العالمية ، فهي تقوم على الطريق الى الهند والشرق الأقصى واستراليا . كما تعتبر الجزيرة العربية بموقعها الممتـاز والفريد مفتاح الخليج العربي والبحر الاحمر ، فهي تشرف على أهم وأقصـــر طريق بحري عالمي ، تربط القارة الاسترالية وآسيا بالغرب ، فجميع البواخر التي تغادر أوربا محملة بمختلف المصنوعات والمنسوجات متجهة لأسواق استراليـــا والشرق الأقصى والهند والخليج العربي وشرق أفريقيا تمر في البحر الاحمـــر ، وتعود في نفس الطريق مشحونة بمختلف حاصلات الشرق . لذلك قامت علــــى أطرافها مراكز تجارية ذات استراتيجية عظيمة مثل باب المندب وعدن ومضيق هرمز والكويت وغيرها . (٢)

---

(١) صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ص ١٩ .

(٢) مصطفى مراد الدباغ ، جزيرة العرب ، ص ١١ .

ولدراسة جزيرة العرب أهمية خاصة فى تاريخ العرب والاسلام ، اذ كانت مهدا للاسلام الحنيف ، ومن أبنائها كان الجند الذين وسعوا حدود دولة الاسلام ، وثبتوا دعائم الأمن والنظام ، ومنهم كان الخلفاء والقواد ، ورجال الادارة الذين سيروا دفة الدولة . لذلك لم تكن الجزيرة فى تاريخها منعزلة عن أحداث الأقاليم المجاورة سواء فى الحياة السياسية أو الحضارية . واذا تركنا الحديث عن صلاتها بالعالم قبل الاسلام ، فانها احتفظت منذ ظهور الاسلام بصلات وثيقة بأقاليم العالم الاسلامى ، بفضل الأعداد الكبيرة التى كانت تسلك طرقها لأداء فريضة الحج فى كل سنة ، ومنهم من كان يستقر مقيما فى مدنها المقدسة ، أو فى المراكز التجارية . وأخيرا فان صلة جزيرة العرب بما جاورها ظلت وثيقة بفضل القوافل التجارية التى كانت تمر بها ، ونتيجة لذلك فقد تعرضت الجزيرة العربية لتطورات كبيرة أوجدت فيها أحوالا متبدلة . (١)

وقد درج الكتّاب على تقسيم الجزيرة العربية الى خمسة أقسام جغرافية : تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن ، (٢) على أن منطقة الحجاز لها أهمية خاصة بين تلك الأقسام ، وهو موضوع دراستنا ، وسمى الحجاز بهذا الاسم لأن جبال السراة حجزت بين نجد وتهامة ولا متداده بينهما ، (٣) ومنطقة

---

(١) د . صالح العلى ، جزيرة العرب للأصمعى : بحث ألقى فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة فى دورة ٣٣ ، فى ٢٤ شوال ١٣٨٦ الموافق ١٩٦٧/٢/٤م ونشر فى كتاب بلاد العرب تأليف الحسن بن عبد الله الاصفهانى تحقيق حمد الجاسر وصالح العلى ص ٥١٠ . (٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٤ ص ٢٤٦ .

(٣) الهمدانى ، صفة جزيرة العرب ، ص ٤٨ .

الحجاز عبارة عن مكة والمدينة المنورة واليمامة ومخاليفها ، وتلك المناطق جميعها قطعة من جزيرة العرب . (١)

وقد كان لهذه المنطقة أهمية بالغة اذ كان يوجد فيها شريان رئيسي من شرايين التجارة العالمية التى أشرنا اليها ، وهو الطريق البرى الذى يصل ما بين جنوب الجزيرة وشمالها ، ومنه تتفرع الطرق التى تتجه صوب الشرق والشمال الشرقى كما يوجد فى موازاته البحر الاحمر كشريان رئيسى له مكانته العالمية فى ميدان التجارة الدولية ، واذا كان الشريان الاول وأقصد به الطريق البرى قد تقلص ، فان الثانى لا زال يمثل فرعا حساسا من فروع السياسة العالمية ، ذلك هو البحر الاحمر ، فالمنطقة ذات أهمية كبيرة من الناحية العسكرية والاقتصادية وذلك على اعتبارها جسرا يصل بين بلاد الشام ومناطق حوض البحر المتوسط من جهة واليمن والمحيط الهندى من جهة أخرى . لذلك صارت أرضها منذ القدم طريقا للتجار ، وأصبحت موانئها منازل للبحارة وملاجئ لسفنهم . (٢)

ولأهمية هذه المنطقة فقد حاول اليونان بعد استيلائهم على الشام ومصر ، فتح الحجاز ، ليتمكنوا من الوصول الى اليمن ، وذلك مثل ما حدث فى عهد الاسكندر الأكبر ، كما حاول الرومان فى عهد أوغسطس تكرار ما حاوله اليونانيون

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٤٤ .

(٢) احمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ، ص ٣ .

الا أنهم فشلوا جميعا فى محاولاتهم (١) ، وعندما يئسوا وضعوا مشروعا آخر الغرض منه احتلال الحجاز وذلك عن طريق الحبشة حليفة البيزنطيين ، اذ بنى أبرهة الحبشى كنيسة فى صنعاء وأراد بعد ذلك أن يصرف اليها حجاج العرب فسار شمالا بجيش كبير لاحتلال مكة ، الا أن الحملة أخفقت . (٢)

وقلت أهمية البحر الاحمر قبيل ظهور الاسلام وذلك لانشغال الروم بالصراع مع الفرس ، وتبعا لذلك برزت فى نهاية القرن السادس أهمية الطريق البرى الذى يسيطر عليه العرب . وقام القرشيون بدور بارز فى نقل التجارة مما أبرز أهمية الحجاز ، وعلى الأخص مكة المكرمة ، وبعد ظهور الاسلام ارتفع شأن الحجاز ، اذ قامت فيه الدولة الاسلامية الأولى فى المدينة المنورة فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام ، فتوحدت الجزيرة العربية ثم اندفع العرب منها الى الأقاليم الأخرى خارج الجزيرة ، وتكونت دولة عظيمة (٣) استطاعت أن تضع حدا للصراع القديم الذى كان قائما فى المنطقة ، وانتشر الاسلام بعد ذلك فى أنحاء المعمورة ، وأصبحت بعد ذلك لشبه الجزيرة العربية أهمية خاصة فى نظر العالم الاسلامى لأنها مهد الدعوة الاسلامية وموطن مقدساته ، وحرصت كل الدول الاسلامية على بسط نفوذها على الحجاز ، واعتزوا بحمل لقب خادم الحرمين

---

(١) جرجى زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ١١٥ .

(٢) أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسول والملوك ، جـ ٢ ، ص ١٣١ .

(٣) أحمد ابراهيم شريف ، دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ، ص ١٥ .

الشريفين ، ونظرا لقلة الموارد في الحجاز فقد ارتبط أمراؤه بالحكام في مصر الذين يقومون بارسال المصروفات والموءن اليهم ، ونتيجة للارتباط الوطيد فقد تأثر الحجازفي بعض الاحايين بالحالات السياسية القائمة في مصر ، وتلك الدول هي الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية والدولة المملوكية .

وكانت دولة المماليك قد وقعت في أواخر أيامها في صراع عنيف مع البرتغاليين الذين وقفوا يحاولون الدخول الى البحرالاحمر تمهيدا للنزول في الحجاز لتحطيم الاماكن المقدسة الاسلامية . وأرسلت دولة المماليك الأساطيل الحربية الى البحر الأحمر والمحيط الهندي فبدأت بسيطرتها على اليمن الذي يتحكم في مدخل البحر الاحمر الجنوبي عن طريق باب المندب لتكون قاعدة لهم في جنوب شبه الجزيرة العربية ، وأخذ البرتغاليون في المقابل توطيد قواعدهم الحصينة في الهند ، واشتد ضغطهم على المسلمين هناك ، ولم تكن نتيجة الصراع لصالح المماليك . (١)

ولما كانت الدولةالعثمانية هي الدولة الاسلامية الكبرى القائمة بالفتح في أوربا باسم الاسلام ، فقد رأى سلاطينها الالتفات الى الشرق والجنوب والاسراع بحماية البحر الاحمر من الاستعمار البرتغالي ، ولتتوفر لهم الزعامة الروحيةوالسياسية اللازمتين لمواجهة الغرب المسيحي خصوصا بعد فشل الدولة المملوكية في أول ..

---

(١) محمد عبدالمنعم السيد الراقد ، الغزو العثماني لمصر ، ص ٢٢٩ .

محاولة ايجابية فى المحيط الهندى فى موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ م ، ومن ثم رأى العثمانيون وجوب فتح مصر ، الذى كان فى اعتبارهم الخطوة الأساسية لتكوين الجبهة الاسلامية (١) .

وبعد انتهاء حكم الدولة المملوكية سنة ١٥١٧ م انتقلت مسؤولية الدفاع عن الأراضى المقدسة الاسلامية الى سلاطين الدولة العثمانية ، ولحماية الأماكن المقدسة فى الحجاز . واستعادة طرق التجارة يتحتم على الدولة العثمانية أن تقضى على الخطر البرتغالى ، وعلى هذا الأساس شرع العثمانيون فى بسط سلطانهم على البحر الاحمر وذلك بضم الحجاز واليمن ، وجانبه الافريقى بضم سواكن ومصوع وهرر . ومن البحر الاحمر بدأت الأساطيل العثمانية بالخروج لمقاتلة البرتغاليين فى المحيط الهندى والخليج العربى وذلك لفك الحصار البرتغالى الذى فرض حول الشواطئ العربية (٢) .

وبعد انتهاء الدولة العثمانية من تلك المهمة كان عليها أن تستحوذ على الزعامة فى العالم الاسلامى ، وقد آلت اليهم تلك الزعامة فى مصر والحجاز ولكنهم فشلوا فى تحقيقها فى فارس . وكان فتح اليمن شيئا ضروريا لتحقيق الزعامة الاسلامية وخاصة لقيام علاقات قوية بين الأشراف فى الحجاز ، وبين أئمة اليمن وسلاطينها (٣) ، بالاضافة الى تأمين الحدود الجنوبية للحجاز . وكان

---

(١) د . محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٧ .

(٢) محمد عبد المنعم السيد الراقد ، الغزو العثمانى لمصر ، ص ٢٣٠ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوى ، فتح العثمانيين عدن ، ص ١٣٨ .

سلاطين الدولةالعثمانية على العموم يبذلون ما فى وسعهم لتحقيق سلطانهم على الحجاز، ومن ذلك أن جعلوا البحر الاحمر بحيرة اسلامية لا تستطيع السفن المسيحية المرور فيه ،كما ساير العثمانيون الظروف فى الحجاز ،وأقروا الأنظمةالسائدة فيها ،وكانت علاقاتهم بأشراف الحجاز علاقة حسنة ذات نتائج ايجابية بناءة ،كما غمر السلاطين العثمانيون الحجاز عموما ومكة المكرمة خصوصا بكثيرمن عطفهم وحسن سياستهم ،وكان كل سلطان لا يتردد فى اقرار الشريف على امارته وارسال الخلع والهدايا اليه وتخصيص رواتب كثيرة لكثير منهم اضافة لارسال آلاف الأرادب من الحب ،وذلك عن طريق تخصيص أرضى موقوفة على أهل الحرمين الشريفين ،ونتيجة لتلك الامتيازات نعم الحجاز بسلام وطمأنينة لم يعهده من قبل ،ولم تكن سلطة العثمانيين قائمة على الجاه وقوة النفوذ ،وانما لاتباع المسوءولين فى الدولةالعثمانية وسائل ادارية حسنة جعلت الحجازيين يألفون هذه السلطة (١).

وظلت هذه السياسة قائمة حتى خروج الدولةالعثمانية من اقليم الحجاز وبداية عهد جديد والمتمثل فى دخول الحكم السعودى الاول للحجاز والذى كان سنة ١٢١٨ هـ الموافق ١٨١٣ م ،وذلك بعد انسحاب الشريف غالب وجنوده من الطائف ،وفراره الى مكة المكرمة بعد ذلك تعقبه سعود وانهزم الشريف غالب الى جده (٢) .وبعد أن استولى سعود على مكة أرسل بخطاب الى السلطان

---

(١) محمد عبداللطيف البحراوى ،فتح العثمانيين عدن ،ص ٢٠٥ .
(٢) ابن بشر ،عنوان المجد فى تاريخ نجد ،ج ١ ،ص ١٤٩ .

سليم الثالث هذا معناه " من سعود الى سليم : أما بعد فقد دخلت مكة فى الرابع من محرم سنة ١٢١٨ هـ وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعد أن هدمت ما هناك من أشباه الوثنية ، وألغيت الضرائب الا ما كان منها حقا ، وثبت القاضى الذى وليته أنت طبقا للشرع ، وعليك أن تمنع والى دمشق ووالى القاهرة من المجىء بالمحمل والطبول والزمور الى هذا البلد المقدس فان ذلك ليس من الدين فى شىء ، وعليك رحمة الله وبركاته" .

وبعد فتح مكة بسنتين استولى السعوديون على المدينة المنورة ، ثم اتجهوا نحو الشمال حيث دانت لهم الجوف والبتراء ، واجتازوها الى حوران والكرك فوقفوا منتصرين عند أبواب الشام وفلسطين . (١) وكانت الدولة العثمانية فى هذه الفترة تمر فى حالة ضعف وانهيار ، ففى نهاية القرن السابع عشر تقهقرت الجيوش العثمانية فى الارض المجرية وكانت الحدود الروسية العثمانية مع أواخر القرن الثامن عشر فى حالة غير مستقرة ، كما سيطرت روسيا على أزوف والقرم وأخذتها بموجب معاهدة (Jassy) سنة ١٧٩٢م وهذا يعنى سيطرة روسيا على البحر الأسود ، كما أخذت فرنسا الجزر الايونية وممتلكات البندقية بألبانيا جنوبى خليج درين (Drin) (٢) . هذا الى جانب ضعف النظام الحربى بعد القضاء على نظام الانكشارية . وصار الواجب على كل جيش نظامى جديد أن يتوجه

---

(١) أمين الريحانى ، تاريخ نجد وملحقاته ، ص ٧٠ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى ، حركة الاصلاح العثمانى ، ص ١٨ - ١٩ .

الى أوربا ، حيث كانت الدولة تواجه أخطار الغرب المسيحي ، وعلى الرغم من هذا الضعف والتفكك الذى ساد الدولة فى هذه الفترة من الزمن ، اتجهت الدولة العثمانية الى واليها فى مصر محمد على باشا ليتولى بنفسه انقاذ الحرمين الشريفين واخراج أهل نجد (١) ، فقد عزّ على الدولة أن تفقد تلك الاماكن المقدسة ، والتى بموجبها حصل السلطان العثمانى على المكانة الروحية بين الشعوب الاسلامية ، وبعد أن وافق محمد على باشا على انفاذ تلك الحملة أرسلت الدولة العثمانية اليه الذخائر و العتاد الحربى ، كما بعثت بالأموال التى يحتاجها الوالى المصرى وبعدد من الجنود (٢) .

وفى خريف سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١م) أرسل محمد على أول حملة بحرية بقيادة ابنه أحمد طوسون الذى يبلغ السابعة عشر من عمره ، ووصل الى ميناء ينبع ومنها اتجه نحو المدينة ، بعد أن استعد له السعوديون ، ولاقى الجيش العثمانى هناك هزيمة ، ارتد بعدها طوسون الى ينبع ، وطلب النجدات من والده فى مصر وفى السنة التالية ١٢٢٧ هـ (١٨١٢م) وصلت تلك النجدات . واستطاعت أن تقضى على سيطرة السعوديين وتستعيد الاماكن المقدسة (٣) ، لتعود الى حظيرة الدولة العثمانية ، والجدير بالملاحظة أن عملية ارسال جنود من

---

(١) أمين الريحانى ، تاريخ نجد وملحقاته ، ص ٧١ .

(٢) ابن بشر ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، جـ ١ ، ص ١٩١ .

(٣) أمين الريحانى ، تاريخ نجد وملحقاته ، ص ٧٢ - ٧٣ .

عاصمة الدولة العثمانية الآستانة ، واشراكهم فى حملة محمد على لانقاذ الحرمين كان مغزاه أن الجيش المحارب ما هو الا جيش عثمانى ، وما محمد على الا وال عثمانى ، وذلك حتى لا تجتمع عواطف المسلمين فى العالم على حب محمد على وولائه بصفته منقذ الحرمين ومعيد مناسك الحج ، وبذلك تحتفظ الدولة العثمانية بمركزها الممتاز فى العالم الاسلامى .

من خلال ذلك يتبين أن العثمانيين كانوا يقدرون أهمية المحافظة على نفوذهم فى الجزيرة العربية التى تحتضن بين جنباتها مقدسات المسلمين ، فكانت حماية العثمانيين لتلك المقدسات ضمانا لزعامتهم للدول الاسلامية واحتفاظا بلقب السلطان العثمانى خليفة للمسلمين وحاميا للحرمين الشريفين وانبثاقا من ذلك الهدف كان عنوان رسالتى للماجستير " الدولة العثمانية وغربى الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس " .

وقد قسمت الرسالة خمسة فصول ، تناولت فى الفصل الاول : الوضع فى غربى الجزيرة العربية قبيل افتتاح قناة السويس ، وكيف كان للأشراف فى الحجاز نفوذ قوى فى حين كانت الدولة لا تستطيع أن تقضى على ذلك النفوذ ، على الرغم من وجود وال عثمانى بجانب الشريف ، بالاضافة الى قوة عثمانية ، فوجود الدولة فى اقليم الحجاز أشبه بوجود اسمى ، ثم انتقلت بالحديث عن عسير والمخلاف السليمانى هناك ، أما المخلاف فكانت الثورات التى قامت بها القبائل ضد الشريف حسين حاكم المخلاف ، بالاضافة الى ضياع الأمن فى تلك النواحى ،

ثم تعرضت لمنطقة اليمن لأمور الاضطراب السياسى الذى أوجد حالة من الفوضى بلغ أقصاه فى صنعاء ، وأشرت الى تنافس الأئمة فيما بينهم حول الاستئثار بالامامة ، وتحريض القبائل اليمنية على بعضها البعض لنصرة امام على آخر ، مما نتج عنه غرق البلاد فى حروب أهلية ، بعد ذلك تعرضت الى عدن لأمور الحالة التى كانت عليها ، والذى يتمثل فى الوجود البريطانى ، وكيفية احتلال المنطقة ، دون عمل حاسم مقابل من جانب الدولة العثمانية ، كل ذلك لأصل للنتيجة أن الدولة العثمانية كان وجودها فى غرب الجزيرة العربية وجود لينا هشا بسبب صعوبة ارسال الحملات والمواصلات من العاصمة الى غربى الجزيرة العربيـــة قبيل افتتاح قناة السويس .

وخصصت الفصل الثانى : لقناة السويس ، وفى البداية تحدثت عن عودة طريق التجارة العالمية الى البحر الاحمر ، نتيجة لافتتاح قناة السويس ، فأشرت باهتمام الى التنافس الذى قام بين انجلترا وفرنسا للاستحواذ على مركز ممتاز فى المنطقة ، فبريطانيا أدركت أهمية قناة السويس ، لذلك فهى تسعى دائما لتأمين الطريق الى الهند ، وتخشى من نفوذ أية دولة أخرى تنافسها فى هذا الميدان ، ثم يأتى دور فرنسا التى سعت بأن يكون لها مركز ممتاز فى القناة ورأت أن تحافظ على ذلك المركز باعتبارها صاحبة الامتياز ، أما الدولة العثمانية فكانت ترى فى نفسها صاحبة الحق على القناة باعتبارها جزءا من أراضيـــيها الشاسعة ، كما تعرضت أيضا لأثر عودة التجارة العالمية على سواحل البحر الاحمر

وازدهار موانيها نتيجة لمرور السفن فى ذلك الطريق ، بعد ذلك انتقلت لنقطة أخرى وهى أهمية القناة للدولة العثمانية من حيث سياستها العربية ، وأبرزت فيها أثر القناة على الدولة وأنها كانت عاملا يسر عبور السفن العثمانية ، ووصل ميناء العاصمة الآستانة بموانىء غرب الجزيرة العربية ، مما سهل عملية توصيل الامدادات العسكرية فى وقت قصير ، وشجع الدولة أن تقف عن كثب على أمور هذا الجزء وأقصد به غرب الجزيرة ، وأن تقيم حكما فعالا فيه .

أما الفصل الثالث فقد تضمن : جهود الدولة العثمانية لتأمين الحجاز بعد افتتاح قناة السويس ، وأوضحت بأن افتتاح قناة السويس ساعد الدولة فى ارسال حملة لاخماد القلاقل فى عسير بعد أن عظم شأن محمد بن عائض حاكم عسير وذلك فى سنة ١٨٧٢م ، وأقامت بعد ذلك حكمها الفعلى فى منطقة عسير والمخلاف السليمانى مما أدى الى القضاء على الحركات الاستقلالية ، وتمكن الدولة من اقامة حاميات عسكرية فيها بالاضافة الى بناء المنشآت العسكرية ، بعد ذلك تطرقت الى اليمن التى نهشتها الفتن والصراع والتنافس بين الائمة الزيدية ، فوجهت اليها الدولة حملة عثمانية قضت على تلك الفتن وحققت نوعا من الاستقرار ، بعد أن قامت الدولة بتطبيق نوع من نظام الولايات ، وعينت جيشا خاصا لليمن وهو الجيش السابع الذى ثبت سلطة الدولة على مناطق عسير والمخلاف السليمانى واليمن . وشعرت الدولة بضرورة من سيطرتها على عدن ليكون لها مركز ممتاز فيها وسعت لذلك بالطرق السلمية مبتعدة عن مواجهة بريطانيا فى

تحقيق ذلك المركز والغرض من ذلك الشرح هو أن أصل بأن قناة السويس ساعدت على القيام بتلك المحاولة وفتحت آفاقا جديدة أمام الدولة العثمانية جعلتها تعيد النظر فى سياستها تجاه تلك المناطق وذلك باعادة السيطرة عليها .

أما الفصل الرابع فقد تضمن عوائق استكمال نفوذ الدولة العثمانية على غربى الجزيرة العربية . وتناولت فى هذا الفصل الاستراتيجية الانجليزية ... لاحتلال قناة السويس ، ومدى عجز الدولة عن فرض سيطرتها على القناة مع التعرض للجانب السياسى بين طرفى النزاع - انجلترا والدولة العثمانية دون التعرض كثيرا الى الجانب الحربى ، وكيف استطاعت انجلترا أن تستغل كل الظروف لخدمة نواياها ، وانتقلت بعد ذلك للنفوذ الانجليزى فى عدن الذى ازداد كثافة بعد أن أحست انجلترا برغبة الدولة العثمانية فى اعادة سيطرتها عليها ، وكان ذلك معناه تهديد لمركز بريطانيا فيه ، فطورت بريطانيا بعد ذلك معاهدات الصداقة واستبدلتها بمعاهدات حماية مع رؤساء المناطق المجاورة لعدن ، وذلك حتى لا تحاول الدولة العثمانية أن تفكر فى مد سيطرتها على تلك المناطق ، ولتنفرد بريطانيا بالنفوذ المطلق فى عدن ، واستطاعت بريطانيا أن تنجح فى ذلك فعقدت سبع عشرة معاهدة مع رؤساء المناطق المجاورة لعدن ، بعد ذلك تعرضت لثورة اليمن ضد الدولة العثمانية والتى استمرت سنين طويلة ، وتعرضت بالحديث عن سيرة بعض الولاة الذين كان لهم أهمية خاصة فى هذه الفترة ، ثم تعرضت لموقف الدولة تجاه الثورات القائمة ، وارسال بعض الولاة الذين نجحوا فى التقليل

من حدة تلك الثورات والغرض من ذلك هو ايضاح أن هذه المشكلات والتى قامت فى وجه الدولة كانت عائقا لاستكمال نفوذ الدولة العثمانية على غربى الجزيرة العربية، وعلى الأخص المناطق الجنوبية . ونتيجة لذلك اتجهت الدولة الى انشاء سكة حديد الحجاز، وهذا هو موضوع الفصل الخامس .

وفى بداية هذا الفصل تحدثت عن اهتمام الدولة العثمانية بانشاء شبكة سكك حديدية فى معظم أقاليم الدولة ، وذلك بغرض ربط أجزاء الدولة المترامية الأطراف ، وكيف كان رأس المال الالمانى عاملا مساعدا لقيام تلك الشبكة ، ثم انتقلت لسكة حديد الحجاز ، وعوامل انشائه لنرى اهتمام الدولة بذلك المشروع للوصول الى هدفها وهو تأمين الحجاز تأمينا مباشرا حتى افتتاح الخط فى سنة ١٩٠٨م .

وانتقلت بعد ذلك الى الفوائد التى عادت للدولة من انشاء الخط سواء بالنسبة لنقل الحجاج الى الاماكن المقدسة ، أو أنه كان عاملا مساعدا لحركة الجامعة الاسلامية والتى كان يرعاها السلطان عبد الحميد ، والأهم من ذلك هو ايضاح أن الخط كان خير بديل لقناة السويس ، ثم تحدثت بعد ذلك عن أثر الخط على غربى الجزيرة العربية من حيث ازدهار الحركة التجارية ، وانشاء القرى والمزارع حول الخط ، بالاضافة الى ذلك تعرضت للمشاكل التى واجهت الدولة فى سبيل استكمال بناء الخط .

وانتقلت بعد ذلك للحديث عن الخاتمة أو النتائج ، وقد شرحت في البداية كيف ان القناة كانت أداة لتدعيم سياسة الدولة في الجزيرة العربية وعلى الأخص الجزء الغربي منها ، بل أن الدولة حاولت الاستفادة من هذا الوضع في غربي الجزيرة بتعزيز وجودها في الخليج العربي ، وفي شرق الجزيرة كذلك ، ومن ذلك تعيين مدحت باشا على ولاية بغداد في نفس السنة التي افتتحت فيها قناة السويس ، ثم محاولة مدحت باشا اعادة سيطرة الدولة على الخليج العربي ، وفي الاحساء والكويت ، وفي مقابل ذلك كانت هناك عوائق واجهت الدولة في اكمال سيطرتها على الجزيرة ، ومن ذلك النمو المستمر في النفوذ البريطاني على جنوب غربي الجزيرة ، وعلى الساحل الشرقي للقارة الأفريقية ، وفي البحر الاحمر بوجه عام ، والأهم من ذلك احتلال انجلترا مصر وبالتالي على القناة ، وذهبت بريطانيا ، كما ذهبت الدولة العثمانية الى بسط سيطرتها على البحر الاحمر بتدعيم سيطرتها في الخليج العربي عن طريق فرض حمايتها عليه .

وأشرت بعد ذلك الى الظروف التاريخية التي اضطرت الدولة العثمانية الى ارخاء قبضتها على مصر بعد افتتاح القناة ، وذلك بمنح نظام الخديوية امتيازات عديدة بموجب فرمانات بالاضافة الى تعقد الصراع الدولي الاستعماري في هذه الفترة ، كل ذلك ترتب عليه الاحتلال البريطاني لمصر ، ثم القناة .

وانتقلت بعد ذلك للتحدث عن الوضع في قلب الجزيرة " نجد " وشرقي

الجزيرة ، فتحدثت عن حائل وآل الرشيد ، وصلاتهم الودية بالعثمانيين وولائهم للدولة . بيد أن القوة النامية فى الرياض على يد المغفور له الامام عبد العزيز هى التى حسمت الموقف فى قلب الجزيرة وفى شرقها ، وهذا هو ما اختتمت به حديثى فى هذا الجزء منها ، وانتهى بنا تحليل الموقف فى غربى الجزيرة ووسطها وشرقها ، الى أن مد خط سكة حديد الحجاز ثم افتتاحه كان هو الحل البديل والحتمى لنتائج التطورات فى هذه الحقبة .

كانت تلك الخاتمة .

أما ملاحق الرسالة ، فهى عبارة عن ثلاث خرائط توضح قناة السويس ، وأهم المدن القائمة عليها ، وخريطة أخرى لسكة حديد الحجاز ، وأخرى للمناطق المجاورة لميناء عدن ، كما توجد ثلاث وثائق تعكس العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية ، بعد المحاولة الأخيرة لاعادة سيطرتها على المناطق المجاورة لعدن ، والحاح بريطانيا على انسحاب العثمانيين من تلك المناطق .

وكان هدفى من وراء ذلك ابراز اهتمام الدولة العثمانية بمنطقة الجزيرة العربية ، وعلى الأخص غرب الجزيرة من أجل تأمين الحجاز ، حتى تحظى الدولة العثمانية بشرف استمرار حمايتها للأماكن المقدسة ، واستمرار احتفاظ السلطان العثمانى بلقب خادم الحرمين الشريفين .

ولعل أهم المشكلات التى واجهت البحث ، قلة المصادر والمراجع التى تعالج فكرة الرسالة ، وتغطى كافة خطتها مما تطلب منى القيام بعدة سفريات

الى الخارج بحثا عن تلك المصادر والمراجع ، فقمت بزيارة مكتبات القاهرة ثم خصصت لى جامعة الملك عبد العزيز رحلة أخرى لزيارة مكتبات استانبول ثم قمت بزيارة عدة أماكن فى لندن ، ومن ضمنها دار الوثائق الحكومية .

وانى أنتهز هذه المناسبة لأشكر جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة والمسؤلين فيها ، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية الذين سهلوا لى تلك الرحلات ،

ولا يسعنى الا أن أتقدم بجزيل الشكر الى استاذى المشرف الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوى ، لما غمرنى به من أفضال كثيرة ، كما أشكر سيادته على ارشاداته وتوجيهاته العلمية السديدة ، واصراره على أن أصل فى بحثى وتفكيرى وكتابتى الى الحد الذى ارتضاه .

وأخيرا فان رسالتى المتواضعة ما هى الا جزء من خطة لتغطية بحوث متعددة فى التاريخ الاسلامى الحديث لشبه الجزيرة العربية ، تلك الخطة التى يضطلع بها حاليا قسم التاريخ الاسلامى بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة ، وقد بدا لى من اطلاعى على كثير من المصادر والمراجع التى تناولت تاريخ شبه الجزيرة أن الذين كتبوا وأرخوا لشبه الجزيرة العربية فى عصورها التاريخية المختلفة ، كتبوا عنها كجزء من دولة اسلامية كبرى ، سواء فى العصور الوسطى الاسلامية ، أو فى العصر العثمانى ، ولذلك جاء معظم

هذه الكتابات بشكل سطحي بعيدة عن العمق وقد آن الاوان أن يأخذ أبناء شبه الجزيرة العربية المتخرجين من أقسام التاريخ بجامعات المملكة العربية السعودية على عاتقهم دراسة تاريخ شبه الجزيرة العربية بتعمق وعلى الاخص في عصورها الحديثة الاسلامية .

والله ولي التوفيق .

نبيل عبد الحي رضوان

الفصل الأول

الوضع في غربي الجزيرة العربية قبيل افتتاح قناة السويس

أ - الأشراف في الحجاز

ب - الحالة في عسير واليمن

حـ - البريطانيون في عدن

أقر العثمانيون فى ولاية الحجاز النظام المعروف باسم نظام الشرافة ، وبمقتضى هذا النظام يتولى الحكم أحد الأشراف الى جانب وجود وال عثمانى . وكان من عادة العثمانيين تجنب ادخال تغييرات جذرية فى البلاد التى يتم فتحها ، واستبقاء الأنظمة السائدة طالما لا تتعارض مع نظم الدولة وأهدافها ، واستحدث العثمانيون بجانب نظام الشرافة نظاما مدنيا آخر ، اذ انشأوا فى ثغر جدة صنجقية يقيم فيها وال كانت رتبته فى أغلب الأحيان صنجق ، وفى أحيان أخرى باشا . (١)

وبفضل نظام الشرافة تمتع الحجاز خلال العصر العثمانى الاول بقدر كبير من الاستقلال الذاتى ، وأصبح الاشراف يعتمدون فى مصروفاتهم على القاهرة أكثر من العاصمة القسطنطينية ، على الرغم مما ترسله الدولة كل سنة من مال كانت الدولة قد قررته على مصر واعتبرته من ملتزمات مصر السنوية (٢) ، وهو غلال الجراية والصدقة الى مكة المكرمة والمدينة المنورة . (٣)

كان نفوذ العثمانيين قد ضعف منذ بداية القرن الثانى عشر فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية تقريبا بسبب اختلال نظام الانكشارية ، الذى فقد تدريجيا كل مزاياه ، وتحول فى النهاية الى معول هدام لشوؤن الحرب والادارة ،

---

(١) د . فائق الصواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٤٨ .
(٢) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ١٠١ .
(٣) سجل ٢٤ عابدين ترجمة " الوثيقة " رقم ٧٢ . شوقى عطاالله الجمل - الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى الحجاز - ص ٤٢٣ .

وقد أدى ذلك الى اختلال نظام الحكم من جميع الوجوه ، وبخاصة في الولايات العثمانية البعيدة عن العاصمة (١) ، الا أن الأشراف ظلوا محتفظين بولائهم للباب العالى اذ كان يتسلم براءة منصبه ويعترف من جانبه ، أى الشريف ، بالقاضى الذى يعينه السلطان ، ويفخر بأنه خادم الدولة والسلطان العثمانى . (٢) ومع ذلك لم تكن الصلات بين الأشراف والدولة العثمانية ودية تماما ، فعندما كان يبدو على أحدهم بأنه غير صالح يطلب منه لزوم داره ويستبدل به آخر ، لذلك كانت المكائد منتشرة بينهم ، وأصبحت رغبة السلاطين هى أن يجعلوا الحجاز ولاية عثمانية تدار ادارة مباشرة أوشبه مباشرة . (٣)

وكان الشريف يعتبر صاحب الكلمة العليا فى تصريف شئون البادية ، وهو المرجع الأكبر فى الحجاز ، وكان يتصل مباشرة بالصدر الأعظم ، ويأتى بعده فى لائحة التشريفات العثمانية .

ومن أهم اختصاصات الشريف تأمين قوافل الحج الذاهبة الى الحجاز وخصوصا قافلتى الحج الشامى والتى تضم حجاج الشام وتركيا ، وقافلة الحج المصرى وتضم حجاج مصر وشمال افريقيا ، بالاضافة الى قافلة الحج العراقى

---

(١) فاروق أباظه ، الحكم العثمانى فى اليمن ، ص ٣٠ .

(٢) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ١٠٢ .

(٣) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ١٥١ .

وتضم حجاج العراق وفارس ، وقافلة الحج اليمنى وتضم بلاد اليمن والهند واندونيسيا ، وتأمين القوافل عبارة عن تأمينها من أعمال السلب والنهب التى تتعرض لها من جهة الأعراب وقطاع الطرق ، ويعتمد الشريف فى ذلك على نفوذه لدى القبائل العربية النازلة على طرق القوافل ، اذ لم تكن هناك قوات عسكرية نظامية ، ويوجد هناك أيضا محطات حراسة أنشأتها الدولة العثمانية بجوار الآبار على طول طريق قافلتى الحج الشامى والحج المصرى .(١)

وفى العهد العثمانى الاول كانت القضايا الادارية للبلاد من اختصاص الاشراف ، ثم استحدث العثمانيون فى كل مدينة مجلسا خاصا للفصل فيها وكان أعضاؤه من الحجازيين والعثمانيين غير الحجازيين ، وسوف نعرض لهذا المجلس بالتفصيل فيما بعد ، اذ كان هذا المجلس قد تكون بمقتضى قانون الولايات الذى صدر فى سنة ١٨٦٤ بهدف دعم سياسة الدولة المركزية ، حيث قسمت السلطنة الى ولايات تتألف من متصرفيات ، وهذه تتألف من قائمقاميات يتبع كلا منهم عدد من النواحى ، وكانت الهيئات المنتخبة التى أوجدها قانون الولايات الجديد ، لتعاون الولاة والمتصرفين والقائمقاميين غير خاضعة للقانون العام ولم يكن جميع أعضائها منتخبين ، بل ان الاعضاء المنتخبين لم يكونوا يشكلون سوى أربعة من تسعة أعضاء بما فيهم الوالى ، أما الأربعة الباقون فيكونون من كبار موظفى الدولة الذين يعملون الى جانب الوالى

---

(١) د . فائق صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٤٨ .

أوالمتصرف أو القائمقام فى كل وحدة من الوحدات الادارية .

وقد قسمت الدولة العثمانية البلاد العربية اثر تنفيذ قانون الولايات الجديد الى الولايات التالية : حلب وبيروت ودمشق وبغداد والموصل والبصرة وطرابلس الغرب ، بالاضافة الى متصرفيات مستقلة تابعة رأسا للباب العالى وهى : جبل لبنان ، والقدس ودير الزور وبنغازى ، وكانت هناك ولايتا الحجاز واليمن اللتان لم يطبق فيهما قانون الولايات تطبيقا تاما ، بسبب التعارض منظام الشرافة والامامة (١) .

وفى سنة ١٢٨٦هـ الموافق ١٨٦٩م كان افتتاح قناة السويس دعما لهذا النظام الجديد ، حيث تقلصت سلطة الأشراف ، بعد أن كانوا يوقعون عقوباتهم بالسجن أو النفى أوالقتل دون أن يستأذنوا السلطان ، أما فى ظل هذا النظام فقد اقتصر نفوذهم على حكم البلاد باسم العثمانيين اذ أصبحوا يرجعون اليهم فى كل شأن من شئون الحكم .

تمتع الأشراف بواردات بلادهم فى العهد العثمانى الاول بالاضافة الى مايصلهم من منح السلاطين ، الا أن الدولة حددت بعد ذلك دخل الشريف ، وأضيفت الأموال المتحصلة الى قيود الخزينة العامة ، ومع هذا كان لبعض الاشراف مصادر تدر عليهم بعض الأموال كفرج الجمال واتاوات أخرى

---

(١) فاروق اباظه ، الحكم العثمانى لليمن ، ص ١٠٣-١٠٤ .

يأخذونها من بعض الطوائف العاملة فى خدمة الحجاج أو رؤساء حلقات بيع المنتجات الزراعية ، ولم يعارض الولاة العثمانيون فى ذلك الا فى حالات قليلة عندما كانوا يشعرون بضعف الشريف (١) ، ومن خلال هذا يبدو ضعف نفوذ الدولة أو اتساعه على حسب قوة الحاكم من الاشراف ، ومما هو جدير بالملاحظة أن واردات الحجاز تلك التى تضاف الى الخزينة العامة لا تغطى نفقات الحجاز ولا تعود بربح لخزانة الدولة ، بل كانت الدولة تنفق على مرتبات الاشراف ورؤساء القبائل وكبار العلماء وأعيان البلاد والموظفين مايزيد مجموعه من الواردات والتى تنحصر فى رسوم التقاضى .

وقد أشرنا من قبل أنه كان بجانب الأشراف قائد عسكرى يسمى الصنجق ومكانه جدة ، ثم تحول هذا اللقب الى والى جدة الذى نقل مقره الى مكة وكان ذلك سنة ١٢٨٧ هـ (٢) ، وأقامت الدولة فى الحجاز الى جوار الوالى العثمانى وشريف مكة قوة عثمانية كبيرة لتوطيد النفوذ العثمانى ، ونجح العثمانيون الى حد كبير فى دعم سلطانهم فى الحجاز ، وكان اختصاص الوالى العثمانى الاشراف على القوة العسكرية المرابطة بين مكة والطائف وجدة ، وقد حاولت الدولة العثمانية منذ مطلع القرن التاسع عشر أن تحتفظ بممتلكاتها فى شبه الجزيرة العربية وخاصة فى الحجاز ، حيث يفد الحجاج سنويا من أرجاء

---

(١) احمد السباعى ، تاريخ مكة ، ص ١٨٧ .

(٢) البجتونى ، الرحلة الحجازية ، ص ٣٨ .

العالم ويسمعون اسم السلطان يدعى له يوميا فى مكة ويرون العثمانيين أمامهم قوة حاكمة فكان ذلك يرفع من مكانة السلطان العثمانى فى العالم الاسلامى كله، ويضخم من نفوذ الدولة أمام الدول الأوربية ،الا أن نفوذ الدولة فى الحجاز لم يكن مستقرا تمام الاستقرار ،فعلى الرغم من المعونات التى كانت تقدمها الحكومة العثمانية للحجاز ،فانها كانت تخشى من أشراف مكة الذين ينحدرون من نسل النبى صلى الله عليه وسلم أن يحاولوا تنصيب أحدهم خليفة للمسلمين (١) .لذلك نجد العثمانيين يكتفون بما حصلوا عليه من الطاعة من قبل الاشراف، الذين تنفق عليهم الدولة ،فكانت غلال القمح تصل الى كل بيت فى الحرمين ،والمعاشات تصل الى الموظفين الكبار ،

وعلى مر السنين شعر الناس أنهم يعيشون فى كنف آل عثمان ، واستكانوا لهذا الظل ،وتوطنت نفوسهم على احترام العلاقة التى تربطهم بآل عثمان والرضا بتبعيتهم للدولة ،واهتم الناس بتلقين أولادهم حب السلاطين من آل عثمان والدعاء لهم بالعز والتمكين ،كما استطاعت الدولة بفضل تلك الأحوال التى تدونها للحجازيين أن يدعموا نفوذهم فى البلاد على الرغم من تذمر بعض القبائل ،واستطاع صنجق جدة أو الوالى فيما بعد أن يستقل بمقدرات الامارة ،وأن يتصرف فى تنصيب الأمير بعد الأمير ويكتب رأيه فيه الى عاصمة الدولة ليتلقى تعليماتها وأوامرها . (٢) ويرى ذلك واضحا فى كيفية

---

(١) فاروق اباظه ،الحكم العثمانى لليمن ،ص ٨٢ ،١٢٧ .

(٢) احمد السباعى ،تاريخ مكة ،ص ١٨٨ .

تعيين الاشراف فى منصب شراقة الحجاز والذى كان يصدر به فرمان التولية من العاصمة استانبول ، فبعد انسحاب القوات المصرية من شبه جزيرة العرب سنة ١٨٤٠ م كانت السلطة بيد الشريف محمد بن عون الذى أخذ يتطلع الى توسيع نفوذه خارج الحجاز (١) .

وفى سنة ١٨٤١ م عين السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) عثمان باشا واليا على الحجاز ، وكان الغرض من ذلك أن تكون الاماكن المقدسة الاسلامية تحت ادارة مباشرة ثنائية تكون فيها سلطات الوالى مقيدة فلا تطغى على الامتيازات الممنوحة لكبار الاشراف (٢) . ولقد ثابر هذا الوالى على اتخاذ جدة مقرا له ، فحصن ينبع وأنشا حامية صغيرة ، وأقام مخافر عسكرية بينها وبين مكة ، وأخذ يدس الدسائس بين العشائر ولكن هذا أدى الى قيام اعمال العنف ضد الدولة ، الا أن الوالى العثمانى قمعها بحملات ارتكبت الفظائع ضد الأهالى وتمكنت حملة مكونة من ألف رجل من دخول مكة ، مما جعله ينقل مقر الاقامة اليها ، وبذلك تيسر له التدخل المباشر فى عزل الشريف وتولية آخر مكانه . (٣)

ومع أن الشريف محمد بن عون كان قد رافق الحملة العسكرية التى

---

(١) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ١١١ .

(٢) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٣٣ .

(٣) توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٨ .

وجهت لليمن عن طريق جدة فى مايو سنة ١٨٤٩ م واستخدم نفوذه لدى قبائل عسير ليقفوا على الحياد أثناء مرور الحملة عبر أراضيهم الى اليمن فقد تلقى باشا جدة فى أغسطس سنة ١٨٥٢ م تعليمات من الباب العالى بارسال شريف مكة وابنيه الكبيرين الى تركيا ، وتعيين عبد المطلب مكانه ، فترك الشريف محمد ابن عون (١٨٢٨ - ١٨٥٢) أمور شرافة مكة بيد منصور بن يحيى وذلك حتى عودة عبد المطلب من العاصمة (١) ، ومكث الشريف عبد المطلب فى شرافة مكة أربع سنوات (١٨٥٢ - ١٨٥٦م) ثم أعادت الدولة محمد بن عون الى شرافة مكة حتى توفى فى مارس سنة ١٨٥٨م ، فوجهت الدولة الامارة لابنه الشريف عبد الله (٢) ، ويعتبر الشريف عبد الله أول شريف منح رتبة الوزارة ولقب باشا وتربى فى الاستانة ، وتعلم فيها العلوم الشرعية والتفسير والحديث وفنون الأدب (٣) ، وكان من أعضاء المجلس الخاص ، واشتهر عند رجال الدولة بكمال العقل وحسن التدبير ومعرفة الاحكام ، وكان يكثر فى مجلسه من مذاكرة العلم والأدب ، ويحضر مجلسه كثير من العلماء والأدباء (٤) .

وفى ٦ ذوالقعدة سنة ١٢٧٤ (-١٨٥٨) م وقعت حادثة فحواها أن صالح جوهر أحد تجار جدة كان له مركب عليه العلم الانجليزى ، فخلعه ووضع مكانه العلم العثمانى ، وعندما طلع القنصل الانجليزى البحر دخل المركب وأزال العلم

---

(١) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ١١٢ .

(٢) احمد زيني دحلان ، خلاصة الكلام فى امراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢٠ .

(٣) محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، ص ٧٩ .

(٤) احمد زينى دحلان ، خلاصة الكلام فى أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢١ .

العثمانى ورفع العلم الانجليزى وتمادى ووطىء العلم العثمانى بقدمه ممـا أدى الى ثورة المسلمين فى جدة وذهبوا الى دار القنصلية وقتلوا القنصـل وبعض القناصل الموجودين فى جدة ،واستولوا على أموال النصارى وذهبوا الى فرج أحد التجار الذى دافع عن القنصل الانجليزى وأرادوا أن يدمروا داره ،فمنعهم عبد الله نصيف والذى كان لايزال يشغل منصب وكالة محمد بن عون آنذاك ،وكان نامق باشا والى الحجاز قد ولى الشريف على ريثما يحضر الشريف عبد الله من العاصمة ،وكان الاثنان فى المدينة المنورة لمقابلة الحجاج وعندما سمعا بذلك توجها الى جدة وسكنا الفتنة ،ونتيجة لذلك أرسل الانجليز مركبا حربيا أخذ يرمى جدة بالمدافع ،فهرب الناس وانزعجوا ،فعقد نامق باشا فى مكة مجلسا فى ديوان الحكومة وأخذ يتشاور لتسكين الأمر مع العلماء والتجار وأعيان الناس ،ووصل الشريف عبد الله فى ربيع الاول سنة ١٢٧٥هـ،ودخل مكة فى موكب عظيم وفرح الناس بولايته ،وكانت له عند الناس هيبة ،لعلمهـم بحسن سياسته ودرايته (١) ،وقابل الشريف عبد الله المند وبين الانجليـز، فطلبوا منه المساعدة فى دخول مكة فاعتذر عن احتمال هذه المسئولية ثم قـال لهم : ماذا تريدون من بلد لا زرع فيه ولا نبات ولا ماء وربما نالكم منه مـرض يذهب بحياتكم لعدم اعتيادكم على مثل هوائه فى حين أنكم فى غنى عنه ؟ فاقتنعوا بجوابه وعادوا الى بلادهم" (٢) .

---

(١) احمد زينى دحلان ،خلاصة الكلام فى أمراء بيت الله الحرام ،ص ٣٢١ .
(٢) محمد لبيب البتنونى ،الرحلة الحجازية ،ص ٧٩ .

وكان مقدم الشريف عبد الله برفقة معاون برتبة فريق ، وفى سنة ١٢٧٦ توجه الى الشرق لقمع بعض المخالفين ، وكان ذلك فى مدة ولاية نامق باشا قبل عزله واستبداله بعلى باشا الكاهيلى " (١) . وفى سنة ١٢٧٧ قام سعيد باشا والى مصر بزيارة المدينة ، فتوجه الشريف عبد الله لمقابلته ورافقه الى مصر ورجع الى مكة فى نفس السنة بعد أن قوبل بالاجلال والاكرام ، وسار الشريف عبد الله الى عسير فى سنة ١٢٨١ هـ لقتال أميرها محمد بن عائض لأنه تجاوز الحدود ، وسنعرض لذلك بالتفصيل فى الفقرة التالية ، وفى سنة ١٢٨٥ هـ توجه ناحية الشرق ووصل الى رنية لتأديب بعض القبائل ورجع منصورا ، وفى سنة ١٢٩٤ هـ أمر بتعليم أهل مكة الحركات النظامية ، وتوفى الشريف فى نفس السنة فى شهر جمادى الآخرة (٢) وعين مكانه أخوه الشريف حسن باشا بعد مقدمه من الاستانة وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح والزهد والورع واستمر حكمه الى سنة ١٢٩٧ هـ اذ قتل بيد رجل أفغانى وذلك أثناء دخوله جدة ، وجاء الشريف عبد المطلب للامارة للمرة الثالثة ولكنه عزل عنها سنة ١٢٩٩ هـ بسبب الشقاق بينه وبين الاشراف ، وعين بدله الشريف عون الرفيق بن محمد ابن عون والذى مكن نفسه فى مركز الشرافة ، ودعم نفوذه على العرب والولاة العثمانيين وأصبحوا كأنهم مأمورين من قبله الا فى زمن عثمان ونورى باشا ، فانه

---

(١) احمد زينى دحلان ، خلاصة الكلام فى أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢٣ .

(٢) خليل مردم بك ، أعيان القرن الثالث عشر ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

حد من نفوذه حتى نقل من ولاية الحجاز بسعى من عون الرفيق وأنصاره في الاستانة ومن ذلك الوقت أخذ حريته في الولاية . (١)

قسمت الدولة العثمانية ولاية الحجاز الى متصرفتين ، متصرفية جدة الواقعة على البحر الاحمر وهي ميناء عظيم ، ويوجد بها جمرك وثكنات للعساكر ومحجر صحي ، وكانت تعتبر من أعظم مدن الحجاز ، ويتكون سكانها من خمسين ألفا ، وميناء جدة من أعظم الموانئ على البحر الاحمر ، والمتصرفية الثانية في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم (٢) ، وكان قائمقام ينبع تابعا لها على اعتبار أن ينبع ميناءها (٣) ، وبالاضافة الى قائمقامية ينبع هناك قائمقامية الليث ، وهي مرفأ على البحر الاحمر جنوب جدة وعدد سكانها ستة آلاف ، وقائمقامية الوجه وهي مرفأ على البحر الاحمر وبلغ سكانها خمسة آلاف (٤) .

واختصت الحجاز بمجلس ينظر في الامور الهامة ، ويتكون من قاضي والدفتردار ، ومدير الحرم ، وكاتب أسرار الولاية ، ونقيب الاشراف ونائب الحرم ، وسادن البيت الحرام ، ومفتي الحنفية ، وقائمقام الشريف في مكة ،

---

(١) محمد لبيب البتنوني ، الرحلة الحجازية ، ص ٧٩ .

(٢) شرف بن عبد المحسن البركاتي ، الرحلة اليمانية ، ص ١٤٥ .

(٣) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ٧٣ .

(٤) شرف بن عبد المحسن البركاتي ، الرحلة اليمانية ، ص ١٤٧ .

ومدير الصحة ونقيب السادة الحسينية ، وهناك ديوان تمييز بالنظر فى الدعاوى المدنية والجنائية ، تستأنف أحكامها فى محاكم الاستانة ، وتتكون هذه المحكمة من نائب الشرع الشريف ، وثلاثة أعضاء منتخبين من أهالى مكة ، وقائمقام مكة يعين من قبل الشريف ، وقاضى مكة يعين من قبل الدولة العثمانية لسنة واحدة ، أما نائب المشرع فكان يعين لمدة سنتين .

وولاية الحجاز نواح وأخطاط يسمى متوليها مدير ناحية ، وحاكمها بلقب قائمقام ، منها الطائف ورابغ بالاضافة الى القائمقاميات السابقة ، ولكل قائمقامية مجلس يتكون من القائمقام ، ومن نائب الشرع الشريف ومأمور المالية ومن بعض الأهالى الذين يختارهم شريف مكة ، وكان للقبائل مجالس عرفية تنظر فى أمورهم وتتألف من القاضى وبعض الشيوخ ورؤساء القبائل مع من يختاره الطرفان للاشتراك معهم واستئناف أحكام هذه المجالس عند الشريف الذى بدوره يزيد الحكم أو يعدله ويكون حكمه هو الأخير . (١)

أعفت الدولة أهل المدينتين المقدستين من الضرائب والجندية الاجبارية ، ودفعوا لهم اعانات سنوية (٢) ، ولم يطبق نظام الالتزام الذى أخذت به مصر وجهات أخرى من بلاد الشام . (٣)

---

(١) محمد لبيب البتنونى ، المرحلة الحجازية ، ص ٣٨ .

(٢) جيمس موريس ، الملوك الهاشميون ، ص ١٤ - ١٥

(٣) د . فائق صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٦٤ .

وعند ما استولت الدولة العثمانية على مصر والحجاز ، اختصت الدولة بكسوة البيت الداخلية وكسوة الحجرة النبوية الشريفة بالاضافة الى الشمع الذى يسرج به داخل الكعبة وخارجها ، ومقامات المسجد الحرام ، كما ترسل الدولة طيب الكعبة وبخورها مثل عطرالورد والعنبر ، علاوة على الحبال الذى تربط به استار الكعبة وترسل هذه مع المحمل الشامى ، واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية ، وقد كانت مصر تصنع الكسوتين الداخلية والخارجية حتى سنة ١١١٨ هـ ، وعندها أمر السلطان أحمد بن السلطان محمد الرابع بحياكة كسوة الكعبة فى استانبول ، وكان ذلك سنة توليه السلطنة ، واستمر سلاطين آل عثمان فى ارسالها على النحوالمذكور حتى عهد السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان محمود الثانى ، ثم توقفت الدولة عن هذا العمل (١) .

وكانت المحامل قد منعت فى فترة وجود قوات محمد على فى شبه الجزيرة العربية ، ثم استأنف المحمل الشامى والمصرى مسيرهما الى مكة ، وكان المحمل الشامى هو الذى يحمل الصرة والصدقات ، وكان المحملان المصرى والشامى يستقبلان فى جدة ومكة استقبالا رسميا ، وعند وصول الركب يناخ جمل المحمل بجانب باب النبى فى حفل عام وتعزف موسيقى مكة ، ثم ينقل المحمل على أكتاف الرجال من باب النبى حتى داخل الحرم . (٢)

---

(١) يوسف احمد ، المحمل والحج ، ص ٢٥٠ .

(٢) احمد السباعى ، تاريخ مكة ، ص ١٩٩ .

وهكذا يتضح من هذا العرض ما كان للحجاز من وضع خاص يتميز به عن سائر أجزاء الدولة بسبب وجود الاماكن المقدسة الاسلامية به ، فكانت الامتيازات التى تمتع بها سكان الحجاز وحكامه ، اذ أقامت الدولة فيه نظاما هو عبارة عن سلطنة ثنائية طرفاها : الشريف والوالى ، ونحن اذا كنا قد أشرنا الى حدوث بعض التغييرات ابان صدور قانون الولايات أى منذ سنة ١٨٦٤م ، فان هذا القانون لم يصحبه تطبيق فعلى فى الحجاز كما طبق فى الأجزاء الاخرى من الدولة .

أما عن الحالة فى عسير واليمن قبيل افتتاح القناة ،فقد استطاع الامير عائض بن مرعى حاكم عسير أن يوطد الامور ويوفر الاستقرار فى القطر العسيرى ، اذ لم يذكر المؤرخون حوادث بين السنوات ١٢٧٠ - ١٢٧٣ هـ سوى ما ذكره الشيخ حسن بن عبد الرحمن الحفظى مؤلف تاريخ عسير ،بأنه اجتاح المنطقة مرض الطاعون وكان ذلك أول سنة ١٢٦٦ واستمر الى سنة ١٢٧٣ هـ وهلك نتيجة لذلك ناس كثيرون ،وخلت بعض القرى من السكان ،وكان ضمن ضحايا المرض أمير عسير نفسه الذى توفى بهذا المرض وكان ذلك سنة ١٢٧٣ هـ بعد حكم دام أربعة وعشرين عاما ،وفى امارته لعسير كان قد أرسل وفدا برئاسة محمد بن مفرج ،الى أمير مكة عبد المطلب بن غالب ومعه هدايا ثمينة بالاضافة الى رؤوس من الخيل ،وذلك لكى يوافق الشريف على حدود بلاد غامد وزهران . (١)

تولى محمد بن عائض امارة عسير بعد وفاة أبيه وذلك فى الفترة (١٢٧٣ - ١٢٨٩ هـ) فساءت حالة البلاد ،اذ اختلف مع العلماء ،غير أنه لم يتعرض عند وصوله الحكم لخطر خارجى الا أن المناطق التابعة لامارته كانت مضطربة ، ويعتريها تفكك مما أفسح له المجال الى الاصلاح الداخلى ،فحفر الآبار وأقام عليها المزارع ،وذلك فى أودية أبها والفيحاء والبصرة والسقا وغيرها ،

---

(١) هاشم سعيد النعيمى ،تاريخ عسير فى الماضى والحاضر ،ص ٢٠١ .

كما شيد الحصون المنيعة فى كل من أبها والسقا وريدة والحرملة وغيرها من المناطق التابعة لامارته ٠ (١)

ويبدو لى أن الفرصة كانت مواتية لمحمد بن عائض فى اتجاهه نحو الاصلاح الداخلى وذلك لأمرين أحدهما طول مدة حكم أبيه ، مما ساعد على ولاء القبائل لأبناء ورجالات بيته ، والثانى : شيوع العداوة بين بعض القبائل التابعة لامارته مما حال دون الاصطدام به فشغل الناس عنه وتفرغ هو للجانب الاصلاحى ، وكانت الفتن قائمة على أشدها فى مناطق السحر وتقع فى الشمال الغربى من تهامة عسير ، والأحابيش وتقع فى أسفل وادى حلى من رجال ألمع ، وأودان مخيط وهى تقع فى أعمال رقماء من رجال ألمع ، وعرموم بين المخلوط والطامية ، والنقلى من أعمال المحارث على طريق قرعاء وسلية من أعمال بيشه ، والقاع من أعمال واحة بيشة ، فوضع الامير محمد بن عائض حدا لتلك الفتنة ، ومن تلك الفتن ما حدث بين قبيلتى البناء وآل عاصم ، اذ نشب القتال بين القبيلتين ، وقامت بينهم غارات مستمرة قتل فيها أناس كثيرون وانتهكت الأموال رغم تدخل أصحاب الشأن فى عسير وبذل المحاولات لايجاد حل سلمى بين القبيلتين (٢) ٠

---

(١) محمد بن احمد عيسى العقيلى ، تاريخ المخلاف السليمانى ، ق ١ ج ٢ ص ٨٤٥

(٢) هاشم بن سعيد النعيمى ، تاريخ عسير ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ ٠

وفى جمادى الاولى سنة ١٢٨٠ هـ توجه الامير محمد بن عائض على رأس جيش كبير الى المخلاف السليمانى (١) بعد أن ساد المخلاف الفوضى وغرقت الأسرة الحاكمة فى الفتن الداخلية والتقاتل فيما بينها فضاق السكان ذرعا من جراء تلك الفتن الدموية بينما كان دور الوالى العثمانى دور المتفرج، فاستنجد أعيان المخلاف بأمير عسير محمد بن عائض الذى وصل مدينة أبى عريش فاستقبل من قبل أهلها ودخل المدينة سلما، بينما هرب الأمير الحسن بن محمد، فتقدم العسيريون، وهدموا الحصون وقصر الامير، وظلت الحاميات العسيرية مرابطة بالمخلاف السليمانى حتى سنة ١٢٨١ هـ (٢)، وازاء هذا الموقف اضطر الباب العالى الى أن يلجأ الى والى مصر (اسماعيل) للاستعانة به فى اخماد ثورة العسيريين ضد العثمانيين فى اليمن، حتى لا تخرج تلك الجهات نهائيا عن حظيرة الدولة (٣).

وقد زاد من اشتعال الثورة ضد العثمانيين فى تهامة والمخلاف السليمانى انضمام ثلاثة قبائل كانت تسكن بالقرب من الطائف الى جانب الثوار العسيريين (٤)، وحاول اسماعيل، والى مصر أن يحل المشكلة وديا، وذلك بأن وجه النصح الى أمير عسير محمد بن عائض باحترام سيادة الدولة

---

(١) العقيلى، تاريخ المخلاف السليمانى، ق ٢، ج ١، ص ٥٨٤.

(٢) النعيمى، تاريخ عسير، ص ٢٠٢.

(٣) فاروق أباظه، الحكم العثمانى فى اليمن، ص ٧٠.

(٤) اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج ٢، ص ٢٩٤.

العثمانية ، وذلك فى خطاب أرسله الوالى اسماعيل فى شهر سبتمبر سنة ١٨٦٥ (١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٨٢ هـ) يوضح له ما تأمر به الشريعة الاسلامية من طاعة ولى الأمر ، ووعده فى حالة الاستجابة بأن يسعى لدى الباب العالى فى الحصول على عفوه وموافقته على اقراره أميرا على عسير ، وذلك بعد أن يتخلى عن الاراضى التى ضمها اليه ، وفى ختام الخطاب حذره من عاقبة تماديه فى العصيان بقوله : ان لم تقبلوا النصيحة الخيرية فى الدين ، فتكونون السبب فى سوق الجيوش المتكاثرة من أرض مصر القاهرة الى تلك البقاع ، وضرب تلك الديار وسفك الدماء .. فالأولى الانقياد والطاعة قبل وقوع تلك الساعة" . (١)

وكان محمد بن عائض قد استولى على بعض المدن فى تهامة اليمن ، كما حاصر الحديدة الا أن متصرفها قد صده عنها ، لذلك نفذ الخديوى اسماعيل الحملة المكونة من ثلاث فرق زودها بالمدافع وكتائب الفرسان وعقد قيادتها للأميرلاى اسماعيل صادق الذى وصل الى جدة ، واتفق مع الوالى العثمانى على توجيه الحملة من ناحية القنفذة (٢) ، كما توجه الشريف عبد الله بن محمد بن عون بمن معه من الجنود على طريق الليث ثم وصل القنفذة ، وتقابل الجيشان فى منطقة المخوة من تهامة غامد ، وأخذ كل فى الاستعداد للدخول فى المعركة ولكنهم جنحوا للسلم أخيرا ، بعد أن تراجع أمير عسير ، وكان الخديوى

---

(١) فاروق اباظه ، الحكم العثمانى فى اليمن ، ص ٧٢ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ص ٢٠٣ .

اسماعيل قد طلب بعودة الجيوش المصرية وتكرر ذلك الطلب ،كما عاد الشريف عبدالله الى مكة بعد أن مكث مدة فى بلاد غامد وزهران التابعة لولايته (١) .

وفى شعبان سنة ١٢٨٥هـ قام رجال ألمع بثورة كبيرة وخرجوا عن طاعة محمد ابن عائض ،وكانت الثورة بقيادة السيد على بن حسن ،وابراهيم بن عبدالوهاب شيخ قيس وانضم اليهم معظم قبائل تهامة عسير ،واتخذوا من الحصن المسمى (مشارى) والقائم على ضفاف وادى كسان نقطة لانطلاق الثوار . وكان الأمير محمد بن عائض قد انحرف عن سيرة والده عائض بن مرعى ،وعندما سمع بالثورة خاف على كيانه وأرسل وفدا من أعيان امارته برئاسة أخيه سعد بن عائض لمناظرة الثوار ،ولكن من غير جدوى ،وفشل الوفد فى أداء مهمته ،وتأزم الموقف بعد ذلك ،وانقطعت المواصلات بين سراة عسير ورجال ألمع ،وأحاط الثوار بالمضائق وقمم الجبال ،فجمع الامير محمد بن عائض جيشه فى شهر رمضان وتقدم على رأس الجيش الى رجال ألمع ،وعندما تجمعت القوات على سطح باحه أرسل وفدا برئاسة لاحق بن أحمد الزيدانى للمصالحة والوصول الى حل سلمى ، ففشلوا أيضا بعد أن دفعوا خمسة آلاف ريال لزعماء الثوار ،فغضب لذلك الأمير ،وزحف الى مواقع الثوار من جهتين عن طريق عقبة الصماء ،وعقبة (فسو) وعند (الظهرة) اشتبكت طليعة رجاله ببعض الثوار فوقع قتال بينهم وانتهى بانهزام الثوار واحتل الظهرة وما حولها ،واتخذها مركزا لقواته ،أما القسم

---

(١) أحمد زينى دحلان ،خلاصة الكلام فى أمراء بيت الله الحرام ،ص ٣٢٤ .

الذى كان عن طريق عقبة فوفا حتل قرى حلى وأحرقها ،ونكل بأهلها ، وتقدم رجال قحطان على حصن شيخ بنى ظالم الملقب أبو علائم فأحرقوه وبذلك تم القضاء على الثوار (١) .

ويبدو من خلال ما ذكرناه عن عسير أن موقف الدولة قبل فتح القناة فى هذا الجزء من غربى الجزيرة كان وجودا اسميا أكثر منه وجودا فعليا بدليل استعانة الدولة العثمانية بالحكومة المصرية فى اخماد تلك الفتنة ، ووجود الاضطرابات بين القبائل التى لم تستطع الدولة اخمادها ، وكانت الحكومة المصرية تقوم من نفسها بالوساطة للصلح مع أمير عسير ، وتقدم له الوعود السخية ، فتعده بالعفو عنه ، وبتعديل حدود امارته وتغيير اسمها تبعا لذلك ، وبالانعام عليه بالباشوية ، على أن مصر طالبت الباب العالى أيضا بتنفيذ ما وعدت به أمير عسير حتى لا تحرج منه ، والا تتجدد ثورة العسيريين ، كما أشارت مصر الى ما كان للمسألة العسيرية من الأهمية القصوى فى البلدان العربية ، ولذا فان حسمها بالطريقة المقترحة يوفر على الدولة الشىء الكثير من الجهود والنفقات (٢) . وقبول الدولة العثمانية لهذه الطلبات من الحكومة المصرية لدليل على ضعف الدولة فى فرض نفوذها وسيطرتها على عسير ، وعدم رغبة الدولة بالدخول فى

---

(١) النعيمى ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٨ .

(٢) فاروق أباظه ، الحكم العثمانى فى اليمن ، ص ٧٣ .

حرب مع أمير عسير قبل افتتاح القناة ، وسوف نرى فى الفصل الثالث نتائج فتح قناة السويس فى أثناء محاولات الدولة العثمانية لاخماد ثورة العسيريين اذ أمكن للدولة أن تسهم بدور فعال فى اخماد تلك الثورة .

أما منطقة اليمن فكان محمد على والى مصر يبسط نفوذه عليها وذلك منذ سنة ١٨٢٠م ، وكان لاحتلال الانجليز لعدن ضربة موجهة اليه ، لارغامه على الانسحاب من اليمن ، فكانت بريطانيا ترى فى وجوده فى غربى الجزيرة خطرا يهدد مصالحها فى الهند ، لذلك انتهزت انشغاله بالحرب ضد السلطان فى حرب الشام الثانية وطلبت من والى مصر اجلاء الجيوش المصرية عن اليمن بأجمعه ، ونجحت بريطانيا فى تحويل مشكلة علاقة السلطان بمحمد على الى مشكلة دولية ، واضطر محمد على فى ١٣ مارس سنة ١٨٤٠م الى اصدار أوامره الى حاكم اليمن بالجلاء عنها ، وتسليم البلاد الى الامير حسين بن على حيدر شريف أبوعريش (١) وذلك كنتيجة لتنفيذ قرارات مؤتمر لندن القاضية بانسحاب قوات محمد على من البلاد التابعة للدولة العثمانية واقتصاره على حكم مصر ، وفى ١٩ مايو سنة ١٨٤٠ غادرت القوات المصرية أرض اليمن ، وحاول الشريف حسين بن على شريف (أبوعريش) ادخال بلاد اليمن كلها تحت حكمه ، لكنه لم يستطع القيام بهذه الخطوة ، ورأت الدولة العثمانية أن تبادر بتأييد الحسين بن على حيدر فى حكمه على المناطق التى يتسلمها من المصريين ويحفظ للدولة السيادة الاسمية ، وكانت تلك فرصة

---

(١) سيد رجب حراز ، ص ٢٠٨ .

مهيأة للدولة ، خصوصا بعد أن وضعت بريطانيا قدمها في عدن سنة ١٨٣٩م ونجاح الحكم المصرى فى كسر شوكة القبائل اليمنية فأرسل السلطان تأييده للحسين عن طريق حاكم جدة وأمير مكة ، واشترط بأن تكون الخطبة " للخليفة العثمانى " على منابر المساجد اليمنية، وفى سنة ١٨٤٣م خلع السلطان عبدالمجيد على الحسين لقب (حاكم اليمن حسين باشا) رمزا لتبعيته للدولة وكان الحسين يرضى بذلك لأنه سيدعم مركزه أمام منافسيه ، ويمكن له فى حكم المنطقة ، فاتخذ من الحديدة مقرا له ، ونظم شئونها ، كما أخذ يوسع من اطار حكمه فاستولى على ميناء مخا ، ومدينة زبيد ، وأصبحت دائرة نفوذه من المخلاف السليمانى شمالا الى ميناء مخا جنوبا .

وقام الحسين بمهمته التى ألقيت على عاتقه ، الا أنه تعرض لمخاطرات بسبب المنافسة الدائمة بين الائمة الزيدية فى صنعاء واستعانتهم بالقبائل الطامعة فى السلب والنهب للانتقام من أعدائه ، ثم بعد ذلك رغبة من يستأثر بالامامة فى حد سيطرته على أملاك الحسين فى تهامة والمخلاف السليمانى على اعتبار أنها تابعة لأسلافهم ، اضافة الى أن أشراف عسير يطمعون أيضا فى ملك الحسين فى تهامة (١) .

وقد لجأ الامام الزيدى محمد بن يحيى بن المنصور الى الحسين يرجو مساعدته ضد منافسه الامام المهدى عبدالله بن المتوكل أحمد فى صنعاء ، فتقدم

---

(١) فاروق أباظه ، الحكم العثمانى فى اليمن ، ص ٤٣ .

الحسين للمساعدة وتمكن ابن يحيى من الانتصار على منافسه ودخل صنعاء وتولى الامامة ، وبعد ذلك وصلته الهدايا من حليفه ومن ضمنها خزانة كتب تشتمل على مخطوطات (١) ، الا أنه لم يلبث أن قرر ابن يحيى انتزاع تهامة من يد الشريف حسين ، فجهز قوة من العناصر المناوئة للحسين في تهامة ، وتعاون معهم في هجومهم على جيوش الحسين التي أخذت خيانة الهمدانيين تضعف من قوته ، نظرا لولائهم للامام الزيدي (٢) .

وأدى كل هذا الى أسر الشريف وحبسه سنة ١٨٤٨م ، وقيل " أن الامام لم يلبث أن أطلق سراح الشريف حسين بعد أن حصل منه على فدية " . (٣) وذكر الواسعي أن الشريف حسين ذهب للأستانة مستنصرا الدولة العثمانية فأمدته بقوة قادها توفيق باشا ، وكان ذلك بداية لاسترجاع الدولة لعسير واليمن (٤) ، وقيل أيضا ان الحسين تنازل عن أملاكه لقاء تأمينه واطلاق سراحه ، وكان محمد بن الحسين قد حاول الاستعانة بحاكم عسير ليخلص والده من الأسر الا انه رفض مناصرة الحسين بل أخذ يعد العدة لضم تهامة الى منطقة نفوذه في عسير ، واستطاع اخوة الحسين أن يخلصوه من الاسر بعد استعانتهم بقبائل يام اليمنية ، وكما ذكرت سابقا فقد ذهب الحسين يطلب

(١) العقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .

(٢) فاروق اباظه ، الحكم العثماني لليمن ، ص ٤٤ .

(٣) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ٨٣ .

(٤) الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ٧٢ .

من الباب العالى أن يتسلم المنطقة اليمنية التى يحكمها على اعتبار أنها أمانة فى عنقه ، وذلك لعجزه عن المحافظة عليها ، بالاضافة الى أن تجار تهامة وأعيانها طالبوا السلطان العثمانى بالتدخل لاقرار الأمور فى اليمن بعد أن كسدت متاجرهم ونهبت أموالهم أثناء المعارك ، خاصة أن قوات الامام كانت مجموعة من القبائل اليمنية الطامعة فى السلب والنهب (١) ، وتلقى السلطان العثمانى مطلب (حاكم اليمن حسين باشا) وتجار تهامة وأعيانها بالقبول والرضاء ، فكانت فرصة القوات العثمانية لتعيد سيطرتها فى سنة ١٨٤٩م بعد أن خرجت من اليمن سنة ١٦٣٥م فأرسلت من جدة ميناء الحجاز قوة عثمانية قوامها ثلاثة آلاف من الجنود المشاة الفرسان ، فوصلت الحملة الى ميناء اللحية اليمنى ، ثم اتجهت الى الحديدة ، واستقبلها الحسين هناك (٢) ، وهكذا ، لولا ولاء شخصى من الحسين للدولة العثمانية ، ولولا حرصه على عدم اضافة بلاده الى أى من القوى الاخرى المحيطة لكانت الدولة عرضة لأن تفقد وجودها فى المنطقة التى كان يحكمها حسين باشا ، ولأدى ذلك الى تضاعف القوة المقاومة للدولة فى غربى الجزيرة قبل افتتاح القناة .

وهنا علم الامام محمد بن يحيى بقدوم القوات العثمانية ، ورأى أن يفوت الفرصة على منافسه فى الامامة على بن المهدى ، وذلك باستعانته بالدولة ،

---

(١) فاروق اباظه ، الحكم العثمانى فى اليمن ، ص ٤٤ .

(٢) فاروق اباظه ، الحكم العثمانى لليمن ، ص ٤٥ .

ولا ينفرد خصمه الحسين بالتقرب منها ،وذلك لتدعيم مركزه فى تهامة والمخلاف السليمانى ،فسارع الامام بالكتابة للوالى توفيق باشا بالتقدم الى صنعاء ، ثم استقبلهم عند الأطراف الجبلية المواجهة لتهامة ،واتفق مع توفيق باشا باصطحابه الى صنعاء حتى يؤدب رجال القبائل الذين شقوا عصا الطاعة وتمردوا عليه وأظهروا الفساد ، وبذلك وصل العثمانيون صنعاء نهار الجمعة السادس من شهر رمضان سنة ١٢٦٥هـ (١٨٤٩م) ،وسكنوا قصر غمدان دون مقاومة تذكر ،وكان توفيق باشا ،والشريف محمد بن عون قد تمكنوا من السيطرة على الحديدة وتهامة ودخلوا أبوعريش . (١)

وفى أثناء استقبال ابن يحيى الجيوش العثمانية ،استطاع منافسه على بن المهدى أن يجمع عددا من القبائل وحرضهم على مهاجمة صنعاء ، وأشعل نار الثورة باعلانه أن ابن يحيى باع اليمن وأهلها للعثمانيين ،وساعد ابن المهدى فى ذلك انكار أهالى صنعاء ماقام به ابن يحيى ،فشاركوا القبائل اليمنية ،وأقبلت جحافل القبائل على مدينة صنعاء من كل جانب ،واكتسحوا تحصينات الدفاع وأبادوا معظم رجال الحملة ،واضطر توفيق باشا الى الانسحاب بما تبقى من قواته الى الحديدة ،والقوا القبض على ابن يحيى ،واقتادوه أسيرا الى الامام الجديد على بن المهدى الذى أمر بحبسه واعدامه من بعد . (٢)

---

(١) الواسعى ،تاريخ اليمن ،ص ٧٣ .

(٢) العقيلى ،تاريخ المخلاف السليمانى ،ص ٥٦١ .

وبقى الحكم فى اليمن قاصرا على الجهات الساحلية قرابة ربع قرن ، أى حتى الفتح العثمانى الثانى بعد افتتاح قناة السويس وبعد خروج العثمانيين وتنصيب على بن المهدى اماما سنة ١٨٤٩م كانت الخلافات فيها على أشدها ، وأهمها الصراع الذى نجم بين الامام على بن المهدى فى صنعاء وبين المنصور أحمد بن هاشم فى صعدة ، وبين العباس بن عبد الرحمن القائم بعد المهدى وبين المنصور ، ثم بين الامام أحمد بن هاشم وبين المتوكل الحسن بن أحمد صاحب الأهنوم ، وتفرعت من هذا الصراع خلافات قبلية ، كاد اليمن أن يتمزق أوصاله (١) .

ومن تتمة القول العود الى الحديث عن المخلاف السليمانى الذى انسحبت اليه القوات العثمانية بعد خروجها من اليمن ، اذ اتخذت مدينة الحديدة مركزا لها لسهولة الاتصال بينها وبين موانئ الحجاز حيث كان يعتبر مركزا للدولة العثمانية آنذاك ، وذلك حتى يتمكنوا من تلقى الامدادات والمؤن اللازمة من هناك ، أما بالنسبة للشريف حسين فقد أراد أن يبتعد عن الاشتغال بالحكم ، فتوجه الى مسقط رأسه مدينة أبى عريش ، وأقام فى قصره ، وأخيرا توجه الى الأستانة بموجب أمر من الباب العالى ، فقرر له راتبا شهريا ، ثم خيّر فى الاقامة فى أى ناحية من نواحى الدولة ، ففضل الاقامة فى مكة ، ومكث بها

---

(١) أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٤ .

حتى توفى سنة ١٨٧٦م ، الموافق سنة ١٢٩٣هـ. (١)

وهكذا لم تتمكن حملة الدولة التى وصلت سنة ١٨٤٩م (١٢٦٥هـ) من السيطرة على العاصمة ، بالرغم من المساعدات التى قدمها الشريف حسين حاكم المخلاف السليمانى ، والتسهيلات التى هيأها لهم الامام محمد بن يحيى حتى أدخلهم صنعاء دون مقاومة ، واستطاعت القبائل اليمنية التى شجعها على بن المهدى ضد منافسه محمد بن يحيى ، وتمكن من خلعه من الامامة ، واختص بها نفسه ، الى جانب ثورة أهالى صنعاء العنيفة ضد العثمانيين ، فاستطاعوا جميعا صد العثمانيين عن صنعاء ، فرجعوا عنها ، ثم اتجهوا الى تهامة ، وقنعوا بالاقامة فى الحديدة ومنطقة الساحل اليمنى القريبة من مراكزهم فى الحجاز بعيدين عن جبال اليمن الوعرة ، وكانت تلك الحملة تجربة للدولة ، وتقييما لما يلزمهم من رجال وعتاد وظروف مناسبة لفرض سيطرتهم الفعلية على اليمن ، ولهذا أعادوا الكرة سنة ١٨٧٢م والتى سنتحدث عنها فى الفصل الثالث .

---

(١) العقيلى ، تاريخ المخلاف السليمانى ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٢ .

دخلت عدن في نطاق الاستراتيجية البريطانية، عندما تطلع نابليون الى الهند وقام بحملة على مصر، وذلك لقطع الطريق البرى اليها، الا أن الانجليز لم يهتموا بذلك من البداية، واهتموا بمدخل البحر الاحمر، واحتلوا جزيرة بريم سنة ١٧٩٩م، وعندما خرجوا نزلت قواتهم عدن في ضيافة صاحبها سلطان الحج، وقامت على اثر ذلك علاقات مودة، فعقدت معاهدة تجارية بين الطرفين في ٦ سبتمبر سنة ١٨٠٢م (١). وخلال احتلالهم لجزيرة بريم حصلوا من اليمن على اذن بانشاء مستشفى في مخا لاسعاف بحارتهم واقتنعت حكومة الهند بطلب الامام بتعيين مقيم بريطاني سنة ١٨٠١م وتبع ذلك محاولات لعقد معاهدة تجارية مع السلطة الحاكمة في اليمن.

وفي مطلع القرن التاسع عشر، غزا رجال الدولة السعودية الاولى اليمن، ولم يرحلوا عنها الا في سنة ١٨١٨م، فأعيدت الامامة الزيدية، وكانت قطاعات من الجيش المصري متمركزة في الموانئ اليمنية الرئيسية، خاصة في الحديدة ومخا (٢)، وتوجس الانجليز خوفا من امتداد النفوذ المصري، وخشوا من قيام دولة تصبح خطرا على مواصلاتهم في البحار الجنوبية فتهدد مصالحهم، وتعوق نفوذهم على امتدادها (٣)، وقد عبر عن ذلك بالمريستون بقوله: "ان

---

(١) حسين فوزى النجار، بريطانيا والجنوب العربي، ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) محمد عمر الحبشي، اليمن الجنوبي، ص ١٠ - ١١.

(٣) حسين فوزى النجار، المرجع السابق، ص ٤٠.

سيطرة تركيا على طريق الهند لا تفضله سيطرة حاكم عربي نشط مهما يكن" (١) فكانت التجارة والخطط الحربية تستدعيان أن تكون الطرق الرئيسية محروسة حراسة تكفل حمايتها ، وأصبحت حرية البحار المحيطة بشبه الجزيرة من الأسس التى تقوم عليها السياسة البريطانية (٢) .

واغتنم الانجليز فرصة ضعف الدولة العثمانية وانشغالها فى حروبها مع الجيش المصرى ، أى فى نزاعها مع محمد على وحاجتها الى مساعدتهم ، وكان الانجليز يريدون اتخاذ عدن مركزا للفحم والتجارة ، وجدير بالذكر أن الدولة العثمانية كانت ذات سيادة على اليمن كله ، وكانت تعتبره جزءا من أراضيها ، ولا تعترف بما هنالك من امارات وامامات (٣) وكانت حكومة الهند قد حاولت شراء عدن من السلطان محسن سلطان لحج ، الذى رفض ذلك ، فوجهت بريطانيا اليه انذارا بأن المرفأ سيهاجم اذا لم يقبل ببيع عدن ، الا أنه رفض واتخذ ذلك ذريعة لاستغلال حادثة غرق السفينة الهندية (دريا دولار) لاتهام السلطان بأنه المحرض على اغراق السفينة (٤) ، ومنذ الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٣٨م كانت الحركات التمهيدية لاحتلال عدن قد بدأت ، فاتصل سكرتير حكومة الهند بالكابتن هينس ، وأبلغه بأن قائد الاسطول سيرسل

---

(١) حسين فوزى النجار ، المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٢) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٣٤ .

(٣) أمين سعيد ، تاريخ اليمن ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٤) محمد عمر حبشى ، اليمن الجنوبى ، ص ١٢ ، فاروق عثمان أباظه ، عدن والسياسة البريطانية ، ص ١٦٢ .

السفينة آن كريشتون (Anne Crichton) الى عدن ، وعليها كمية من الفحم لتموين السفن فى البحر الاحمر لحمل المؤن والمياه للسفينة الحربيـــة المسماة " الكوت" ، واسترسل سكرتير حكومة الهند موجها الى هينس (وأبلغــك بأنه سوف يكون على ظهر السفينة آن كريشتون مدفعان هاوترز ٥ر٨ بوصـــة وأطقم رجال المدفعية ليكونوا تحت تصرفك بعد وصولهم الى عدن لاستخدامهم فى الدفاع عن هذه السفينة اذا ما توقفت فى عدن ، أو حسبما تفكر فى أحســن استخدام لهم ويمكن اعتبارهم - أى رجال المدفعية - جزءًا من الحملة التـــى طلبت ارسالها ، أما الاجراءات الاخرى التى اقترحتها فهى الآن محل اهتمام ودراسة من الحكومة") كما أصدرت حكومة بومباى تعليمات بارسال قوة لاحتلال عدن بأقصى سرعة ، وكذلك مجموعة من المهندسين ، وتنضم هذه القوة الـــى السفينة (الكوت) أما المدفعية فعلى ظهر السفينة (آن كريشتون) وأصدرت التعليمات بارسال المؤن والذخائر محملة ، وأشار حاكم الهند بأن الأهم هو النزول الى عدن بسلام ، واسترسل أنه اذا سمحت الظروف فانه يمكن لهينــس أن يتصل بقائد الحملة قبل وصولها ، ويستخدم السفينة ماهى (Mahe) فى ذلك والتى تحمل هذا الخطاب ."

أما من ناحية واجبات القوات البرية المكلفة بغزو عدن فقد أبلغ حاكـــم بومباى الماجوربيلى " Bailie " قائد الحملة عند وصوله الى عدن أن يعتبر نفسه تحت تصرف السلطة السياسية للكابتن هينس ، وأنه فى حالة امتلاك الحكومة

البريطانية عدن سواء بالمفاوضات أو بأى سبيل آخر ، فان على الماجور بيلى أن يوجه اهتمامه السريع الى وضع أفضل الترتيبات طبقا للامكانات المتوفرة لديه لتعزيز المكان ، وتهيئته للدفاع ضد أى قوة خارجية أو لمواجهة أية مفاجآت .)

وتبينت انجلترا مع نهاية سنة ١٨٣٨م أنه لا جدوى من محاولة استمالة سلطان عدن الا باستخدام القوة ، لأن الحكومة كانت تأمل فى تلافى استخدام القوة وكان هو أيضا يرغب فى انهاء الامر سلميا فوصلت القوات الانجليزية فى ١٦ يناير للقيام بتنفيذ عملية الاستيلاء على عدن ، ثم أرسل هينس انذارا نهائيا الى السلطان محسن فضل وجميع روءساء قبيلة العبدلى .

وتم اعداد كل شيء ، فالقوات فى القوارب تحت حماية السفن الحربية كما أخذت السفن الحربية أماكنها ، فكانت نيران هذه السفن شديدة الوطأة حتى دمرت القلعة الرئيسية ، وقضت على وحدة مدفعية العرب ، الا أن المدفعية فى منطقة " صيرة " ظلوا مسيطرين على المنطقة ، ومستعدين لاطلاق النار على القوات الانجليزية فى حالة تقدمها ، الا أن السفينة " ماهى " غيرت مكانها ، وأخذت مكانا على مسافة ٥٠ ياردة من العرب ، فوجهت نيرانها بمساعدة السفن الأخرى مما اضطر العرب الى التقهقر ، ثم تقدمت القوات فى قسمين ، ولم تواجه سوى مقاومة ضعيفة من العرب ، وانسحب السلطان وبعض أتباعه من المدينة وقبل الظهيرة بخمس دقائق ارتفع العلم البريطانى فوق قصر السلطان واستولى قارب

من السفينة (ماهى) وآخر من (فولاج) على صيره (١) .

وكان احتلال انجلترا لعدن ضمن خطتها العامةفى المنطقة فيما سمى بخطة الهند ، وذلك باحتلالها للنقط الاستراتيجية والتحكم فى مداخل البحار، وسوف نتعرض لذلك فى الفصول التالية .

ويهدف الانجليز من احتلال عدن أن يصبحوا سادة غير منازعين على باب المندب (٢) ،وأرادوا منها أن تكون قاعدة لتموين السفن بالفحم، خاصة عندما تحولت السفن الانجليزية الى استخدام البخار .

استرضت السلطات الانجليزية سلطان لحج بعد ذلك بمنحة مالية تدفع اليه كل عام وعقدت معه صلحا ،اعترف لها فيه بامتلاكها عدن ، ولكنها تعرضت لكثير من هجمات العرب ، وتوترت العلاقات بينها وبين السلطان ، ولم تستقر الأمور تماما الا فى سنة ١٨٥٧م . (٣)

وعندما احتلت انجلترا عدن ،لم تستطع الدولةالعثمانية اتخاذ اجراء مقابل ضد هذا التدخل فى جزء هو فى الاساس من ممتلكات الدولة العثمانية وكان ذلك بسبب خروج محمدعلى على الدولة ، وكانت الدولةتستعين بالوالى

---

(١) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى الجنوب العربى ، ص ١١٣ - ١٢٧ .

(٢) محمد عمر الحبشى ، اليمن الجنوبى ، ص ١٢ .

(٣) حسين فوزى النجار ، بريطانيا والجنوب العربى ، ص ٤٠ .

المصرى فى مثل هذا التدخل ، بالاضافة الى عدم وجود طريق رئيسى يربط العاصمة بهذه المناطق ، وسوف نرى أثر افتتاح قناة السويس للدولة ، وكيف ستكون قدرة الدولة على الوقوف عن كثب من هذه المناطق .

لم يكن الاستيلاء على عدن هو غاية ماتبغيه انجلترا من المنطقة ، وانما كان هذا الاستيلاء بمثابة قطة للتوسع وبداية للانطلاق لتأكيد النفوذ الانجليزى فى جنوب اليمن ، وفى البحر الاحمر ، وعلى الساحل الشرقى لافريقيا ، ومن عدن تسلل النفوذ الانجليزى أولا الى السلطنة العبدلية ، والتى كانت محتفظة باستقلالها الذاتى متخذا شكل الصداقة وحسن الجوار ، وكان لزاما على الحكومة الانجليزية أن تعامل السلطنة العبدلية معاملة خاصة لسببين ، أولهما : عدن كانت الجزء الذى اقتطعته بريطانيا من السلطنة العبدلية ، ومن ثم وجب تهدئتها ، وثانيتهما : لأن السلطنة العبدلية تفصل بين عدن واليمن والتى كانت واقعة تحت السيطرة التركية ومن ثم وجب المحافظة على وضعها الخاص لتكون حاجزا بين اليمن وعدن . (١)

وكانت انجلترا قد عقدت مع السلطان العبدلى معاهدة حماية فى ٢ فبراير سنة ١٨٣٩م لحماية المناطق المجاورة لعدن مباشرة ، وفى شهر يونيو من نفس السنة تعهد الانجليز بدفع المعاشات التى كان يدفعها السلطان العبدلى

---

(١) محمد حسن عوبلى ، اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربى ، ص ١٥ .

لقبائل يافع والفضلى والحوشى والاميرى . وفى نفس الوقت حدد مبلغ الاعانة المالية السنوية للسلطان وجعل التعهد بينهما هجوميا ودفاعيا ، كذلك حددت الأراضى الانجليزية وعينت صلاحية حكم كل منهما باتفاقية . (١)

ومن خلال اقامة هينس فى المنطقة لم يذكر للقبائل عبارة الاتحاد ولم يذكر الوحدة فيما بينهم بل ذكر ممارسة التعارف ضمن التنوع والتعدد وقد وصف الجنرال يعقوب (John Jacob) قائد العمليات العسكرية " أن القوة الأدبية تكون الحاجة اليها أكثر بكثير من القوة المادية لاخضاع القبائل التى تعيش على السلب والنهب !! وكلتاهما ضروريتان حيث تكون القوة المادية أساسية ، وذلك ليمكننا من فرض القوة الأخرى الأدبية" (٢).

وقد استعان هينس باليهود واستخدمهم كجواسيس ، وكانت تبليغاتهم تكتب الى أبناء ملتهم فى عدن باللغة العبرية ، حتى لا يتمكن السكان العرب من تفسيرها لو عثروا عليها . (٣)

ولما أراد الامام الزيدى مقابلة الكابتن هينس ، أمرت الحكومة الهندية هينس أن يستقبل مبعوث الامام سنة ١٨٤٠م بمجاملة لائقة ، غير أنه يجب أن يكون

---

(١) محمد كمال عبد الحميد ، الاستعمار البريطانى فى جنوب الجزيرة العربية ص ١١

(٢) هارولد . ف عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(٣) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ٣٩ .

حذرا حتى لا يورط الحكومة بارتباطات متصلة بمطالب ذلك الزعيم فى المخا ، وأما بشأن الاشارة الى أعمال الشريف حسين حاكم المخلاف السليمانى العدائية فانه " (ربما كان من الأعمال السياسية للمستقبل البعيد تشجيع ودعم مطالب الامام ") ، واسفرت محاورات هينس مع امام صنعاء عن جعل الباب مفتوحا لبعض النواحى السياسية الهامة . (١)

اعتقد هينس أنه من المضر بالمصالح البريطانية أن يصبح الامام الزيدى قريبا من عدن ، ودافع عن وجهة نظره بضرورة القيام برسم خط للحدود لمنع تقدم الزيود نحو الجنوب فى اتجاه مقطبة (٢) ، وفى مارس سنة ١٨٥٣م أفصحت حكومة الهند عن وجهة نظرها فى الوجود البريطانى فى عدن (" اذ أن التحصينات الشاملة التى أقيمت بتكاليف باهظة دلت على أنها تمت بقصد الدفاع عن شبه الجزيرة العربية بوجه عام ، وصد هجمات العرب عن البرزخ ، وبهذا القصد يجب أن تعتبر مدينة عدن على الأقل ذات اعتبار خاص ، وعلى فرض أن المدينة خارجة عن الموضوع كلية ، فالبرزخ معتبر كأنه قلعة ، لكنه غير مأمون ، اذ استطاع الأشخاص الغرباء الالتفاف حوله ، لأنه غير منيع أو غير ملتفت اليه ، ولابد من الاهتمام بالسيطرة على الينابيع ، ومع أنه من المسلم به كقاعدة أن مدينة عدن ليست حاصلة على الاعتبار الاول أو الثانى ، وهى دائما محل للتكهن فى أنها سوف

---

(١) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٥ ، ٥٧ .

تحصل على بعض الاعتبار ، فان حمايتها تكون جزءا مقررا من نظام الدفاع العام الذى تزداد بمقتضاه التحصينات وتقوى ") .

وفى سنة ١٨٥٤م بدأت سلطات بومباى Bombay الحربية تحس بحالة النقص وعدم الكفاءة فى الميناء وفى الدفاع عن فوهة البركان وأقصد به عدن ، وتم اكتشاف احتمالات الضرر التى يمكن أن تسببها سفن معادية (١) ، وفى ١٤ يوليو سنة ١٨٥٤ م وقع السلطان سعيد بن سلطان حاكم مسقط تنازلا للانجليز عن جزر (كوريا موريا) وتضم معها خمس جزر صغيرة فى المحيط ، وجاء فى التنازل (" أن الكابتن فرمانتل Fermantle الذى ينتمى الى الشعب القوى انجلترا والذى يتبع البحرية الملكية الخاصة بالملكة (فيكتوريا) قد طلب منى جزر كوريا موريا ، وأنى بمقتضى هذا أتنازل عن الجزر المشار اليها سابقا للملكة فيكتوريا وورثتها وخلفائها من بعدى ، بمحض ارادتى الحرة وبارتياح دون فتر أو ارهاب أو أية مصلحة مالية كانت . . . "(٢) ، واغتاظت فرنسا من هذا التنازل ، ولا سيما اذا عرفنا أن صاحب مسقط كان يتظاهر بأنه حليف لفرنسا فأمرت اسطولها بالقيام بمظاهرة فى تلك البحار ، وقابل الانجليز هذه الحركة باحتلالهم جزيرة بريم بصورة نهائية سنة ١٨٥٨ (٣) ، وتقع هذه الجزيرة عند مضيق

---

(١) هارولد ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ٦٧ ، ٦٩ .

(٢) محمود كامل ، اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٤١ .

(٣) ساطع الحصرى ، يوم ميسلون ، ص ٤٣ .

باب المندب ، واحتلت أيضا جزيرة قمر فى البحر الاحمر (١) . الا أن جزر كوريا موريا تتبع فى ادارتها للمقيم الانجليزى فى الخليج العربى ، وذلك لبعدها عن عدن (٢) .

وجدير بالملاحظة أن التنافس كان قائما بين انجلترا وفرنسا فى هذه الفترة من أجل التمركز فى البحر الأحمر وباب المندب فبعد أن استقرت انجلترا فى بريم أراد المسيو تير مقابلة هذه الحركة فأمر بانزال عساكر فرنسية الى رأس الشيخ سعيد الواقع أمام (بريم) ، وقد استند فى عطه الى معاهدة عقدت فى القرن الثامن عشر بين دولا مورونيه وزعماء قبائل الخميس ودرين حيث تخلى هؤلاء عن هذا الموقع لفرنسا . وفى سنة ١٨٦٢م اهتم المسيو توفيل بصورة خاصة لتنفيذ خطة احتلال الشيخ سعيد والاستقرار فيها ، وحاول كذلك الاستيلاء على لأبوك (٣) بالقرب من جيبوتى ، فقام بمفاوضات مع زعماء ونقلة انتهت الى نتيجة مبدئية ذات ايجابية بتاريخ ٢٠ مارس سنة ١٨٦٢م (٤) . الا أن فرنسا تملكت لأبوك بموجب معاهدة باريس سنة ١٨٦٤م . (٥) . وفى سنة ١٨٦٨م باع على شاباط أحد زعماء قبيلة درين جميع حقوقه فى الشيخ سعيد لبازين راليود أحد كبار

---

(١) محمد حسن عويلى ، اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربى ، ص١٤ .
(٢) حسين فوزى النجار ، بريطانيا والجنوب العربى ، ص ٤١ .
(٣) تقع منطقة لأبوك فى الجهة الشرقية من القارة الافريقية ، على ساحل المحيط الهندى ، بالقرب من منطقة جيبوتى.
(٤) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى فى الشرق الادنى ، ص٧٣ - ٧٤ .
(٥) محمد عمر حبشى ، اليمن الجنوبى ، ص ١٣ .

تجار مارسيليا ، وعلى الرغم من احتجاج الباب العالى وضع الفرنسى يده على المكان الذى اشتراه وصار فى سنة ١٨٧٠ مستودع فحم للسفن الفرنسية ، وبعد فترة أراد بازين رابود بيع حقوقه فى الشيخ سعيد ، فعرض على الحكومة الفرنسية شراء حقوقه فيها ، غير أن الحكومة رفضت هذا العرض ، واغتنمت الدولة العثمانية هذه الفرصة فاشترت الشيخ سعيد ، بعد ذلك بذلت فرنسا جهودها فى بسط النفوذ فى لأبوك لتعويض الشيخ سعيد ، كما استولت على غوبا وتاجورا فى افريقيا بقيادة المسيو لاغاور فى سنتى ١٨٨٤ و ١٨٨٥ م ، (١) وبذلك ظلـــت السلطتان الانجليزية والفرنسية تسيطران عمليا على حركة المواصلات عبر البحر الأحمر ، خاصة الانجليز الذين انصرفوا الى تأمين حماية عدن ضد الغزوات القبلية والقادمة من الداخل ، الأمر الذى أدى بهم الى توسيع نفوذهم (٢) .

كل ذلك حدث فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية عاجزة عن اتخـــاذ اجراءات حاسمة ضد بريطانيا اذ لم تكن القناة قد فتحت ، ونلاحظ أن نشـاط الدولة العثمانية برز فى شراء الشيخ سعيد بعد فتح قناة السويس ، لذلك وقع عبء الدفاع على العرب ، ومن ذلك هاجم العرب فى ٢١ مايو سنة ١٨٤١ م برئاسة سلطان لحج عدن وكان عدد القوات مابين أربعة آلاف وخمسة آلاف رجل ، الا أنهم هزموا ، ومنوا بخسائر فادحة (٣) .

---

(١) جان بيشوفن ، بواعث الحرب العالمية الاولى فى الشرق الادنى ، ص ٧٤ .
(٢) محمد عمر حبشى ، اليمن الجنوبى ، ص١٣ .
(٣) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى الجنوب العربى ، ص ١٣٧ .

وفى الخامس من يوليو سنة ١٨٤١ قام سلطان العبدلى بالتعاون مع السلطان الفضلى بمحاولة ثالثة لاستعادة عدن ، فتوجه نحو خمسة آلاف من رجاله ناحية أسوار عدن ، الا أن النيران الانجليزية الموجهة من سفينة حربية كانت راسية على شاطئ عدن بالاضافة الى نيران الحامية ، أدت الى انسحاب العرب بخسارة ثلثمائة رجل ، فتجمع العرب فى بير أحمد فى مكان يمكنهم منه منع أى اتصال بين عدن والمناطق الداخلية ، وبنوا قلعة نوبة الشيخ مهدى وبدأوا سلسلة من الغارات فأحدثت أضرارا كبيرة للتجار ولحاملى المؤن ، ونتيجة لذلك تقدمت قوة انجليزية فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٤٠ تتكون من ٣٠٠ من الانجليز و ٢٠٠ وطنى وبطارية مدفعية تحت قيادة بينيكويك Penny Cuick فتمكنت هذه القوة من تدمير نوبة الشيخ مهدى ، ثم دمرت قلعة الشيخ عثمان ، ثم قام الاسطول الهندى بضرب ساحل الفضلى ، وأدى ذلك الى فتور همة العرب (١) .

ويذكر الشيخ الواسعى " أنه فى شهر رجب عام ١٢٦٢هـ (سنة ١٨١٦م) خرج شريف من أشراف مكة اسمه السيد اسماعيل وتوجه نحو اليمن ، ولم يزل يدعو الناس الى الجهاد واخراج الفرنجة من عدن فأجابه جماعة من الناس ، ثم وصل الى قرب عدن بنحو فرسخ ولم يزل محاصرا لعدن حتى سمم هنالك وتوفى ، وتفرق من كان بمعيته من المجاهدين (٢) ، ولكن فى رواية أخرى قصها أحد شهود العيان

---

(١) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٦٩ .

ونشرها العبدلي ، ثم ان ذلك الشريف جاء معه جيش من عسير وانضم اليه كثيرون من أهالي لحج وهجموا على الانجليز برغم تفشي الطاعون في الجيش ، وهجموا على الانجليز فقابلوهم باطلاق المدافع فانهزموا وتفرقوا ، وأن الشريف ومن بقي من أصحابه توجهوا الى "أبين" وواضح من الروايتين أن هذه الدعوة لاخراج الانجليز وتحرير عدن من الاجانب غير المسلمين لم تأت الا من الشمال أي من الحجاز . (١)

وفي ٢٣ يناير سنة ١٨٦٧م عقد الانجليز اتفاقا مع شيخ قبيلة العقربي الذي تعهد بألا يبيع ولا يرهن ولا يسمح باحتلال أية قطعة من أراضي شبه الجزيرة المعروفة باسم عدن الصغيرة الا للحكومة البريطانية في مقابل ثلاثة آلاف ريال تدفع فورا واتاوة شهرية قدرها ثلاثون ريالا .

وفي ٧ مارس سنة ١٨٦٧م وافق سلطان لحج الشيخ خليفة أحمد عبد الكريم بالتصريح للانجليز بمد قناة مياه من الشيخ عثمان الى عدن ، وذلك على نفقة الانجليز ، وأن تبقى القناة في حماية السلطان . (٢)

لقد اتبع الانجليز سياسة مرنة في جنوب اليمن ، ذات مظاهر مختلفة ، أولها المعاهدات الولائية والرواتب الشهرية أو السنوية المختلفة باختلاف مكانة كل أمير ، ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجيء الى عدن من السلاطين أو يسافر منها ، ثم الألقاب والنياشين بالاضافة الى تخصيص الهدايا الموسمية للسلاطين

---

(١) أحمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص١٦٢ - ١٦٣ .
(٢) جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص٣٥١ - ٣٥٢ .

والتدخل فى السياسة المحلية عند انتخاب أوتعيين أحد الحكام ، والتحزب لبيت طامع فى الملك على بيت مالك أوعكس ذلك ، وأخيرا ان كان يصح الاخير أولا ، المحافظة على استقلال كل سلطان وأمير تحقيقا لمصالحهم ولمصلحة انجلترا ، وقد عقد الانجليز هذه المعاهدات الولائية مع غالبية السلاطين والأمراء والشيوخ بعد احتلالها لعدن مباشرة ٠ (١)

كما كان الانجليز يتدخلون فى بعض الاحايين فى شؤون أصحاب المشاهرات ليصلحوا مثلا بين صديقين متخاصمين من أصدقائهم فيورثهم التدخل مسئولية توجب عليهم الاستمرار ، فيستمرون محكمين ومسيطرين ٠ (٢)

وضح للانجليز أنه يجب للمحافظة على عدن قوة كافية ، وقد يعجزون عن تأمين ذلك اذا لم يكن لعدن منطقة تشبه الدرع يصونها من هجمات العرب الذين يحيطون بها من جهات الشرق والغرب والشمال ويحاربون بشراسة ويعتصمون بالجبال فاتخذوا لذلك سياسة لين تكتنفها شدة ، وبدأت المفاوضات وابتاع الانجليزمن الاراضى ما لم يستطيعوا أخذه بالسياسة ، فتم بذلك للانجليز الدرع الذى يحتاجون اليه والذى هو عبارة عن خط يمتد من الغدير على البحر غربا الى دار الامير شمالا ، ومنها شرقا بشمال الى أم العمدة على البحر ،

---

(١) أمين الريحانى ، ملوك العرب ، ص ٤١٨ ٠

(٢) محمود كامل المحامى ، اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٤١ ٠

ثم أقام الانجليز فى هذه المنطقة الانجليزية الاستحكامات العسكرية ونقلوا اليها الجنود من الهند . (١)

وعلى هذا النحو أخضعت انجلترا الامراء المحليين لسلطتها ، بعد أن ضمنت لهم المحافظة على الاستقلال الذاتى التقليدى ضمن حقوق السيادة لسلطات الحماية ، وقد ترك لحكومة الهند أمر السهر على تلك القوى حيث كانت الرقابة غير المباشرة والغامضة تتم عن طريق سلطات عدن ، وهذه السلطات لم تسمح ولم تعمل على السيطرة على النزعات القبلية بل ذهبت الى اعطاء زعماء القبائل صفة الامارة والسلطنة والمشيخة فى ظل السيطرة البريطانية ، (٢) وقد حرصت السلطات البريطانية على التركيب الاجتماعى والسياسى للتنظيم القبلى الموروث عن تفكك الممالك الكبرى التى سبقت الاسلام وذلك بحجة احترام النزعات الاستقلالية المحلية ، وهذا التركيب يحتفظ بأهميته دائما فى منظر الاستعمار طالما أنه يشكل حاجزا فى طريق أجزاء الجنوب العربى ، وأصبحت انجلترا مرتبطة بمعاهدة ثنائية مع كل من الكيانات السياسية المعترف بها رسميا واللائحة الرسمية فى عدن تشير الى أن عددها ثمانية عشر ولكنها فى الواقع أكثر عددا (٣) ، واتخذ الانجليز فرصة جهل وفقر السلاطين فى السيطرة عليهم وتشتيت كلمتهم فعقدوا معهم تلك الاتفاقيات ، بعد أن اتخذوا من عدن

---

(١) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٣٥٢ .
(٢) محمد عمر الحبشى ، اليمن الجنوبى ، ص ١٧ .
(٣) جان جاك بيربى ، جزيرة العرب ، ص ١٨٥ - ١٨٦

قاعدة للتوسع في جنوب اليمن . (١)

ومحمية عدن تمثل مجموعة من أراض متداخلة متباينة المساحة متشابهة النظم تقريبا والوجود البريطاني لم يمنع استمرار الانقسامات التي كان من نتائجها الصراع الداخلي المستمر (٢) الذى استغله الانجليز لصالحهم، ولم تشهد عدن أى تحسين في أوضاعها ، سواء على الصعيد الادارى أو الاقتصادى أو الثقافي ، وتبعت عدن الحكومة الهندية في ادارتها مثل سنغافورة وملاقا ، أما الادارة في عدن فقد قامت على أساس مركزى ذى طابع استعمارى ، وعهد بها الى رجال من حكومة الهند ممن عرفوا بخبرتهم في الادارة السياسية وهم أوربيون ومعظمهم عسكريون الى جانب قليل من أصل هندى ، وكان هؤلاء مجرد موظفين ثانويين . (٣)

أما بالنسبة لمعاملة السكان من قبل السلطات الانجليزية ، فقد نوقشت كل الطرق والاساليب الممكن اتباعها ، وكان أكثرها ملائمة للظروف في نظر الانجليز نظرية (فرق تسد) وذلك على اعتبار الامكانيات الحربية التي كانت محدودة ، اذ شعر هينس في البداية بأنه ليس له الخيار ، فالامكانيات والامدادات العسكرية التي طلبها لعاقبة على سبيل المثال ، كانت تتأخر أو ترفض ، وقد دافع هينس

---

(١) أمين سعيد ، تاريخ اليمن ، ص ٢٥ .

(٢) جان جاك بيريى ، جزيرة العرب ، ص ١٨٠ .

(٣) محمد عمر الحبشى ، اليمن الجنوبى ، ص ١٧ - ١٨ .

عن سلوكه بقوله ("انني أنظم الامور وأقوم باعداد الترتيبات وأجعل القبائل المعادية والمشاغبة تقاتل ضد قطاع الطرق بدون استدعاء الحراب البريطانية" (١))

أما عن العلاقات التجارية مع البلاد العربية فلم تكن منتظمة ولم يكن في موارد البلاد ما يغذيها بالنشاط والاستمرار أو يضفي عليها مزيدا من الاهتمام. (٢)

وتكمن أهمية عدن بالنسبة لانجلترا في الدرجة الاولى كسنغافورة، وجبل طارق في مركزها الاستراتيجي النابض على الشريان الحيوي للمواصلات بين الجزر البريطانية وامبراطوريتها، فعدن تقف كالحارس الذى يصون الثروة البريطانية الى جانب جبل طارق، ومالطة، وهونغ كونغ، وسنغافورة وصخرة بريم، فالقوافل والسفن لا تنقطع أمامها، وتعتبر عدن ميناء ومركز لتجارة العبور "الترانزيت"، وتتم بواسطتها أيضا اعادة التصدير والمبادلات العائدة الى اليمن والمحمية وترتبط عدن بالخارج من أجل الموارد الغذائية التى تستوردها نظرا لقلة الزراعة، ويعمل في عدن أرباب حرف وصيادون وبناة مراكب من أجل السوق المحلية، وفي عدن ملاحات متعددة تنتج الملح وهو الانتاج الوحيد. (٣)

كما تستمد عدن أهميتها من وجود مرفئها الذى شهد خلال فترة من

---

(١) هارولد. ف، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب، ص ٤٤.

(٢) حسين فوزى النجار، بريطانيا والجنوب العربي، ص ١٩.

(٣) جان جاك بيريبي، جزيرة العرب، ص ١٨٣.

الزمن مرحلة تقهقر بسبب التقدم الذى طرأعلى التجارة البحرية عن) طريـــق رأس الرجاء الصالح ، وقد رافق الاحتلال الانجليزى قيام ظاهرتين وهـــو اعادة فتح البحر الاحمر للرحلات المتجهة الى الهند واستراليا من جهـــة، ومرحلة ازدهار التجارة الدولية من جهة ثانية (١) . وهذه الظاهرة سوف تتضاعف وتعطى للبحر الاحمر أهميته القديمة قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، فى أعقاب افتتاح قناة السويس مباشرة .

من هذا العرض نرى حالة غرب الجزيرة العربية قبل افتتاح قناة السويس بالنسبة للدولة العثمانية ، فالاشراف ذوو نفوذ قوى فى الحجاز ، والثـــورات فى عسير والمخلاف السليمانى ، والتنافس مشتعل بين الائمة الزيدية فى اليمن ، بالاضافة الى التواجد البريطانى فى عدن ، ومعنى ذلك وجود لين هـــش للدولة العثمانية بسبب صعوبة ارسال الحملات والمواصلات ، من العاصمـــة الى غربى الجزيرة العربية قبل افتتاح قناةالسويس ، وذلك الوضع الذى سنرى كيف يتغير بعد افتتاح القناة .

---

(١) محمد عمر الحبشى ، اليمن الجنوبى ، ص ١٣ .

الفصل الثانى

قنـاة السويـس

أ - عودة طريق التجارة العالمية للبحر الأحمر.

ب - أهمية القناة للدولة العثمانية من حيث سياستها العربية.

كان جانب كبير من تجارة الشرق يأتى عن طريق الأراضى المصرية عبر البحر الاحمر وخليج السويس ثم تسير فى طريق برى الى النيل ، ومنها الى ثغور مصر على البحر الابيض المتوسط ، ثم تنقل عبر ذلك البحر الى الجزر والمدن الايطالية ، ومن أهمها البندقية وجنوه ، وكانت هذه المدن تقوم بتوزيع هذه التجارة الشرقية الى بقية أجزاء أوربا الغربية والوسطى (١) ، ثم تحولت السفن التجارية العالمية ابان التوسع الاوربى الاستعمارى الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وبعد أن أصبح شق القناة أمرا محتملا لم يكن هناك أفضل من بناء الموانىء فى البحر المتوسط والبحر الاحمر ، لكن الانجليز كانوا يعارضون تنفيذ مشروع القناة وكتبوا كثيرا عن مصاعب هذا المشروع ، لأنهم خشوا من تحول التجارة الأوربية نتيجة شق القناة الى كل من مارسيليا وتاريستا ، ومن ثم تنافسان لندن وليفربول ، الا أن هذا الاحتمال كان بعيد الوقوع نظرا لأن انجلترا كانت تملك سفنا ضخمة ومنتجات هائلة ، وهذا ما تفتقر اليه مارسيليا وتريستا ، وكان الانجليز يعرفون أن تجارة البحر الاحمر سوف تتضاعف بعد شق القناة ، مما أثار مخاوف انجلترا ، وذلك لأن القناة سوف تسمح لكل الدول بالتوسع فى الشرق مما يهدد الهند ، وكان معنى عدم شق القناة هو أن الانجليز سيظلون محافظين على مركزهم الممتاز فى تلك الانحاء . (٢)

---

(١) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٣ .

(٢) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٢٤١ .

لكن مع بداية القرن التاسع عشر تحدثت الصحف فى أنحاء العالم ،عن الصلة بين البحرين المتوسط والاحمر. وأشارت هذه الصحف الى أن البحرالاحمر يمتد كقناة طبيعية واسعة نحوالشمال حتى تقابل تقريبا البحر المتوسط ، وأن الطبيعة فى عظمها قد خلقت هذين البحرين لتسهيل الاتصال بين أوربا وآسيا وافريقيا ، وتركت لعبقرية الانسان أن توجد الوسائل لاتمام الاستفادة من تنظيماتها هذه (١) ولذلك بذلت عدة محاولات من شركات بريطانية لتذليل العقبات التى تعترض وجود خط ملاحى منتظم بين الهند وانجلترا عبر البحرين الاحمر والمتوسط ، وأثير هذا الموضوع فى مجلس العموم البريطانى فى سنة ١٨٣٤م وانتهى النقاش والبحث فى المسألة الى القول بأنه وان كان انشاء خط ملاحى تجارى عبر البحر الاحمر بين الهند وانجلترا يحمل دافعى الضرائب فى انجلترا عبئا أكبر الا أن مثل هذه المواصلات السريعة مع الشرق ستحل كثيرا من مشكلات الادارة وستخدم المصالح الانجليزية فى الهند ، ولذا قرر المجلس أنه يجب أن يبت حالا فى مسألة اتصال تجارى منتظم مع الهند عبر البحر الاحمر. (٢)

وفى فرنسا كانت مقالات ميشيل شيفاليه Chevalier فى جريدة Le GLOBE فى فبراير تتحدث عن أهمية الطريق عبر البحر الاحمر الى المتوسط ، وتمت دراسات بدأها فى سنة ١٨٣٤م فورنيل Fournel مهندس المناجم ولم تؤد

---

(١) 1.Hoskins:British Routs to India p.41

2.Hoskins:British Routs to India p.125

(٣) بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، ص ٣٨١ .

جهود اينفانتن Enjantin لدى محمد على باشا الى نتيجة ما ، لأن محمد على فهم أن هذه القناة ستثير اهتمام العالم بأجمعه ، وتكون بذلك فرصة للتدخل الأجنبى فى مصر ، ولكن هذا الحذر لم يلبث ان تبدد حينما تولى محمد سعيد باشا ولاية مصر ، وكانت مصر تدرك أهمية البحر الاحمر كطريق ملاحى ، وأدركت فى الوقت نفسه حقيقة الصراع الذى سيدور حول النفوذ فى هذه المنطقة لو تم شق القناة ، لذلك كانت سياسة مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر وفى النصف الثانى منه على وجه الخصوص قائمة على هذا الادراك الكامل لحقيقة الاوضاع فى هذه المنطقة ، وعمدت مصر - بعد خروج الفرنسيين بحملتهم منها ، واضطرار الانجليز للانسحاب ، وبعد أن استقرت الأمور - الى تنشيط وتأمين الحركة التجارية عن طريق البحر الاحمر ، اذ فى سنة ١٨٣٩م أنشئ خط تلغراف بين السويس والقاهرة وأصبح المسافر يستطيع البقاء فى القاهرة حتى تصل البرقية بموعد مغادرة السفينة لميناء السويس ، كما درس مشروع مد خط حديدى من الاسكندرية الى القاهرة ، ثم منها الى السويس لتسهيل أمر التجارة عبر مصر (١) .

---

(١) شوقى عطا الله الجمل ، البحر الاحمر فى سياسة مصر ، ص ٧ .

ضاعفت الدولة العثمانية جهودها منذ بسطت نفوذها على مصر والحجاز الى تجميد النشاط فى البحر الاحمر قدر الامكان ، فحرمت دخول السفن الاوربية الى هذا البحر بحجة أنه يوءدى الى الاماكن المقدسة الاسلامية ، الا أن هذه المحاولة لم يقدر لها النجاح فى تجميد الملاحة الدولية ، اذ لم يستمر الاعتماد على طريق رأس الرجاء الصالح على اعتبار أنه طريق طويل ، بينما طريق البحر الاحمر وهو الطريق القصير الذى يوفر من الوقت والجهد والمال ، القدر الكبير ، خاصة التغيير الذى طرأ على الملاحة فى البحر الاحمر باستخدام السفن التجارية التى تمخر عباب هذا البحر مما جعل طريق رأس الرجاء الصالح يبدو عقيما منذ بداية القرن التاسع عشر ، لأنه لم يساير الثورة الاقتصادية ، بالاضافة الى أن العلاقات التجارية والسياسية فى زيادة مستمرة وتستلزم الاتصال السريع كل ذلك وجه الانظار الى هذا الطريق القصير طريق البحر الاحمر ، وفى مقدمة الدول التى ركزت أنظارها على ذلك انجلترا وفرنسا . (١) واستطاع فرديناند دى ليسبس Ferdinand de Lesseps أن يقنع خديوى مصر سعيد باشا وحصل منه على عقد امتياز حفر قناة السويس ، وكان ذلك فى نوفمبر سنة ١٨٥٤م ، وفى هذا الوقت كان المشروع يخص دى لسبس دون أن يخطر به الحكومة الفرنسية ، الا أنه بعد ذلك دخل فى اطار السياسة لأن الخديوى احتاج الى تصريح من الباب العالى على اعتبار أن سعيد باشا كان تابعا للسلطان ، وهنا تدخل

---

(١) شوقى عطاالله الجمل ، البحر الاحمر فى سياسة مصر ، ص ٣ .

المنافسة بين فرنسا وانجلترا فى طور هام ، ففى يناير سنة ١٨٥٥م وافق نابليون الثالث على مشروع القناة ، الا أن هذه الموافقة كانت شخصية ، لأنه لا يريد الدخول مع انجلترا فى حرب ، ولكنه كان يرى أن هذا التحفظ موقت ، اذ حينما تشترك روءوس الاموال فى العملية فان المقاومة لابد وأن تختفى .

وفى نوفمبر سنة ١٨٥٨م طرحت الاسهم فى الأسواق ، وذلك بطرح أربعمائة ألف سهم ، سلم منها للخديوى شخصيا ٥٤ ألف سهم ، وحجز منها للمصريين ٢٢ ألفا والباقى طرح منه فى الأسواق المالية ومقداره ٣١٤ ألف سهم ، استوعبت الأسواق الفرنسية منها ٢٠٧ ألف ، وزعت بين ٢١ ألف مشترك ، ولم تتقدم انجلترا ولا روسيا ولا النمسا لشراء بعض من هذه الاسهم ، وكان بلمرستون ، رئيس وزراء انجلترا قد نصح أصحاب الاموال الانجليزية بعدم المساهمة فى بناء المشروع حتى لا تتمكن الشركة من تجميع الاموال اللازمة لتكلفة المشروع . (١)

وعندما أثيرموضوع القناة فى مجلس العموم البريطانى فى يونيه سنة ١٨٥٨م أعلن بلمرستون أن قناة السويس سوف تعمل فى المستقبل على انحلال الدولة العثمانية ، وأن السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية كافية لخدمة مصالح انجلترا أكثر من القناة ، الا أن وزير الخارجية جلادستون بين فى الجلسة نفسها عن ضعف هذه الفكرة وذكر أن القناة مجرى مائى ، اذا قدر لها أن تقع فى يد أية دولة فستقع فى يد أقوى الدول البحرية وهى انجلترا ، وطلب من الاعضاء أن ينظروا

---

(١) بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

الى مشروع القناة لا كمشروع سياسى ولكن كمشروع تجارى قبل كل شئ (١) ، ولما كان دى لسبس يواجه صعوبات مالية ، فقد اقترح على الخديوى أن تباع القناة لدول أوربا البحرية ، وكان يأمل من وراء ذلك انقاذ الموقف ، وأن يضمن بذلك أن تصبح القناة على الدوام محايدة ، لكن الباب العالى كان على حق حين أوضح أنه لا يمكن من جهة المبدأ ، اقرار بيع القناة ، أو تكوين ادارة دولية فى أراض هى ملك له ، حتى مسيو دى لسبس نفسه لم يكن له الحق فى اثارة مسألة تلك حقيقتها ، فشركة قناة السويس شركة مصرية ، وهى بهذا الوصف خاضعة لقوانين الدولة العثمانية وعاداتها . (٢)

بدأت عمليات الحفر وتغير الموقف فى اكتوبر سنة ١٨٥٩م حين وعد نابليون الثالث دى لسبس بالتأييد الا ان انجلترا شجعت فى ديسمبر سنة ١٨٥٩م حملة صحفية تهدف الى زعزعة الثقة فى الشركة واستطاعت انجلترا أن تحصل على فرمان من الدولة العثمانية بوقف الاشغال ، بعد أن اوضحت للباب العالى أن مصر ستتخلى عن الروابط التى كانت لا تزال تربطها مع الدولة العثمانية الا أن دى لسبس استطاع ان يتغلب على هذه الصعاب ، ففى ١٩ مارس سنة ١٨٦٦م وافقت الحكومة الانجليزية على عقد الامتياز بشرط أن يكون الاشراف الذى تمارسه فرنسا على المشروع مجرد اشراف مالى ، وبعد أن انحلت الصعوبات

---

(١) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٢٧ .

(٢) شونفليد . هيو . ج ، قناة السويس ، ص ٥٢ .

السياسية قامت الشركة باعطاء دفعة للاشغال بسرعة أكبر ، ووجدت بسهولة السندات المالية (١) . وعندما تقدمت عمليات الحفر، قدرت انجلترا الاخطار التى تحدق بمصالحها فى الهند من جراء بقاء القناة فى أيدى شركة فى الغالب أنها فرنسية ، فحاولت أن تدرأ هذه الأخطار بسلسلتين من التدابير الفعالة وبذلت أولا جهودا عظيمة لتقوية مركزها فى مدخل البحر الاحمر وسواحل الجزيرة العربية ، فوسعت منطقة الاحتلال فى عدن ، وبسطت حمايتها على النواحى المجاورة لها واحتلت زيلع وبربرة على الساحل الغربى للبحر الاحمر ، وفرضت معاهدات حماية انفرادية مع أمراء سواحل الجزيرة العربية وشملت هذه الحماية جميع أقسام حضرموت ، وقطر وعمان والبحرين والكويت وأتبعت ذلك بشراء أسهم مصر سنة ١٨٧٥م ثم باحتلال مصر سنة ١٨٨٢م وبذلك كانت خطة بريطانيا تضمن السيطرة التامة على طريق الهند (٢) ، وكان افتتاح قناة السويس فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩م فى احتفال كبير يسوده الفخامة البالغة ، وأنفقت الحكومة المصرية الاموال الطائلة واشترك فى الاحتفال عدد كبير من ممثلى البلاد الاجنبية وأقيمت القصور الفخمة والبيوت الفاخرة لاستقبال الوفود المشاركة ، وفى يوم الافتتاح سارت ٦٧ سفينة فى شكل استعراضى بالقناة وفى مقدمتها اليخت الفاخر الذى أطلق عليه اسم " أوجينى " تكريما لامبراطورة فرنسا التى كان يحملها ذلك اليخت ، واستمرت الاحتفالات عدة أسابيع (٣) ، وبمعنى آخر كان الافتتاح

---

(١) بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤

(٢) ساطع الحصرى ، يوم ميسلون ، ص ٤٣ .

(٣) جالينيا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٢٢ .

عالميا وله أهميته الكبرى بالنسبة للعالم بدليل حضور غالبية مندوبى الدول الكبرى ، ويذكر شونفيلد . هيو . ج أن البحث الحديث أثبت أن اسماعيل كان يرمى الى هدف آخر من حفلات الافتتاح ، فلم يكن غرضه الرئيسى من اقامة هذه الزينات الا اعلان استقلال مصر استقلالا تاما ، وكان قد قضى سنين قبل ذلك وهو يحاول انتزاع استقلاله بمصر من الباب العالى ، ثم قدر أن يستطيع اعلان هذا الاستقلال فى حفلات الافتتاح ، وكان نابليون الثالث محور السياسة الاوربية ، لذلك فكر اسماعيل فى دعوته الى هذه الحفلات حتى يكون اعلان استقلال مصر أمام عاهل فرنسا وممثلى ملوك أوربا ، وحاول اسماعيل أن يتصل بنابليون ليدعوه الى حفلة الافتتاح وأرسل رسولا ليتصل بالامبراطور ولكن الباب العالى أحس بنوايا اسماعيل فاتصل بنابليون الثالث من الناحية الأخرى ، وقدر نابليون حرج مركزه فلم يقابل شاهين باشا رسول اسماعيل ، وقابلته الامبراطورة يوجينى وقبلت الدعوة نيابة عن زوجها . (١)

وكانت هناك بعض الدول الاوربية ترغب فى مساعدة اسماعيل باشا فى تنفيذ رغبته فملك ايطاليا فكتور أمانويل أرسل سفنه تحت قيادة ولى عهده الى الاسكندرية ، ونابليون أوعز لزوجته أوجينى عند سفرها بمساعدة الخديوى الا أن الدولة العثمانية وانجلترا اعترضت على تلك المحادثات المصرية ، وشددت

---

(١) شونفيلد . هيو . ج ، قناة السويس ، ص ٨٨ .

انجلترا على ذلك ، حتى التزمت ايطاليا بارجاع الأساطيل من ثغر الاسكندرية فلم تحضر الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وبذلك تكون فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية قد ضعفت لدى اسماعيل . (١)

وبافتتاح قناة السويس أصبحت هذه القناة جزءاً من جغرافية العالم الطبيعية والسياسية ، فقد وصلت بين قارتين وأصبحت من الشئون الدولية الهامة (٢) ، واعتبرت من أهم المجارى المائية البحرية فى العالم ، اذ ربطت بين الشرق والغرب ، وأحكمت الصلة بينهما ، وأصبحت أقصر وأقرب طريق للدول الاوربية ومستعمراتها فى الشرق (٣) ، وأجمعت الدول الاوربية عند افتتاح القناة على أن هذا العمل الذى نجح أخيرا سيكون عالميا فى الفوائد التى سيعود بها على الناس ، وعلق مستر Brace قنصل انجلترا فى مصر أن شق القناة قد أدى الى زيادة المواصلات التجارية بين أوربا والبلاد الواقعة على البحر الاحمر ، وأن مراكز الدول الاجنبية سوف يزداد فى هذه البلاد ، ومن المنتظر أن تقع منازعات بينها وبين تلك الشعوب ، وحينئذ يمكن اتخاذ القناة للتدخل المسلح فى شئونها . وهذا التدخل يقضى على الاحتلال الدائم وأن هذا

---

(١) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٧١٨ - ٧١٩

(٢) شونفيلد هيوج ، قناة السويس ، ص ٥١ .

(٣) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٤٥ .

يتوقع فى مصر ذاتها (١) ، وكتب ايرل كلارندن Eral Clarndan وزير الخارجية البريطانى الى دى لسبس خطابا قال فيه" ان الافتتاح الموفق الذى أصابته قناة السويس قد استقبله العالم أجمع بالرضى ، وانى اذ يكون لى الشرف بأن أهنئكم وأهنىء الأمة والحكومة الفرنسية على اهتمامها بمشروعكم اهتماما عميقا لم يتزعزع فاننى أعلم أننى أمثل عواطف أبناء بلدى تمثيلا صادقا ، وعلى الرغم من العقبات المتعددة الاشكال التى كان عليكم أن تجاهدوها ، فقد لقيتم أخيرا نجاحا عظيما جزاء وفاقا على عزمكم الصادق الذى لم يعرف الكلل وأنى لأجدنى مخلصا فى سرورى اذ أقوم بنقل تهنئات حكومة جلالة الملكة اليكم على انشاء طريق جديد للمواصلات بين الشرق والغرب وعلى الفوائد السياسية والتجارية التى تتطلع اليها بثقة نتيجة لمجهوداتكم ". (٢)

وفى الوقت الذى افتتحت فيه قناة السويس كان هناك مايسمى بالانقلاب الصناعى ، نتيجة لهذا بدأ احتياج دول غرب أوربا الى المواد الخام اللازمة للصناعة والمتوفرة فى مستعمرات الشرق ، كذلك رغبة دول غرب أوربا فى ايجاد اسواق لتصريف منتجاتها الصناعية ، فضلا عن استثمار رؤوس الاموال فيها بجانب الرغبة فى الهجرة نتيجة لازدياد عدد السكان ، كما صاحب التطور الصناعى تطور فى صناعة

---

(١) احمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٩ .

(٢) شونفيلد . هيو . ج ، قناة السويس ، ص ٤٩ .

السفن ، وكذلك وسائل المواصلات الاخرى ، كالسكك ، نتيجة لاستخدام البخار في تشغيل الآلة (١) . وترتب على ذلك كساد في الانتاج الصناعي لصعوبة تصريف مايفيض عن الاستهلاك المحلي ، وفكرت الدبلوماسية الاوربية في البحث عن مستعمرات جديدة في آسيا وافريقيا لانهاء تلك الازمة ، وفي هذا المجال كانت بريطانيا التي سبقت غيرها في استخدام الآلات ، وأمكنها في سنة ١٨٧٠م أن تصرف نصف الناتج من الصلب في العالم وثلاثة أضعاف ما أنتجته أية دولة أخرى ، ويمثل هذه النسبة تفوقت في المصنوعات القطنية ، وتجاوزت تجارتها الخارجية ضعف مابلغته التجارة الخارجية لأي بلد آخر (٢) ، وتمخض عن كل ذلك اشتداد روح المنافسة بين دول غرب أوربا ، واتسم هذا التنافس في بادئ الأمر بالطابع الاقتصادي ، وسرعان ما تغلبت عليه النزعة الاستعمارية كما ذكرت نتيجة للتيارات السياسية التي كانت تموج بها القارة الاوربية في ذلك الوقت (٣)

وان كان الهدف من شق قناة السويس هو تصريف البضائع والمصنوعات الاوربية في أسواق الشرق واستيراد المواد الخام فان القناة تكون في خدمة المصالح العالمية ، واذا رغبت فرنسا في سوق لمنتجاتها في شرق البحر المتوسط لتهدد بها التجارة الانجليزية فعليها - أي فرنسا - أن تنمي هذه السوق ،

---

(١) عبد الرؤوف احمد عمرو ، قناة السويس في العلاقات الدولية ، ص ٣٢ .

(٢) د . مصطفى الحفناوي ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ص ١٧ .

(٣) عبد الرؤوف احمد عمرو ، قناة السويس في العلاقات الدولية ، ص ٣٢ .

وذلك بأن تعيد لمصر رفاهيتها وتجعلها بابا الى الشرق ومنفذا لضـــرب بريطانيا فى الهند ، وبذلك تكون مصر قد ربطت مصيرها بالتطور الاقتصادى العالمى ، وبالتالى فان كيان مصر يتأثر بشدة ، وتلك تؤثر فى العالم كله أكبر الأثر وأعمقه ، وذلك هو الانقلاب الصناعى الذى مر بنا آنفا . (١)

كانت أسواق الهند فى السنوات الاولى من افتتاح القناة ، فى المقـام الاول من حيث استغلال الدول الصناعية لها اذ كانت الحمولة الذاهبة اليها ومنها عبر القناة أكبر بنسبة ما من غيرها ، ثم تغيرت هذه النسبة ، اذ تضاءلـت شيئا فشيئا وحلت محلها التجارة مع الصين واليابان ، ودول الشرق الاقصى ، وهذا التطور يرجع الى تطور الاستعمار وانتشار حلقته ، وارتباطه بالسيـاسة الدولية ونموها . (٢)

أما أهمية القناة بالنسبة لانجلترا فقد كانت أهمية كبيرة تزداد مع مر السنين وجاء شق القناة بالنسبة لها ولامبراطوريتها وتجارتها حدثا هائلا كأكبر دولة بحرية استعمارية ظهرت فى العالم ، اذ يمتاز هذا الطريق بأن انجلترا تستطيع ببحريتها المتفوقة حماية تجارتها وسفنها ، ومنذ الافتتاح أصبح الى حد كبيـر تحت رحمة القوة البحرية الانجليزية ، خاصة بعد الكارثة السياسية والبحرية التى منيت بها فرنسا فى الحرب السبعينية وبذلك لم تعد أهمية القناة فى نظر انجلترا

---

(١) احمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٢ .

(٢) احمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ٢٥ .

قاصرة على وقت السلم ، بل كذلك فى وقت الحرب اذ أصبحت القناة الطريق الرئيسى لمرور السفن والقوات والمعدات الحربية الانجليزية الى شرقى افريقيا والشرقين الاوسط والاقصى واستراليا ونيوزلندا ، كما أصبحت القناة الطريق الرئيسى لمد نفوذ بريطانيا وسلطانها فى شرقى العالم وفى آسيا . (١) وقامت على ذلك الاستراتيجية الدفاعية للامبراطورية .

سعت انجلترا بعد ذلك للحصول على أسهم القناة ، حتى حصلت على نصفها تقريبا ، مما ادى الى اندمال الجراح القديمة بين فرنسا وانجلترا والتى كانت بسبب المسألة المصرية ، فأعلن كليمنصو فى خطابه فى المجلس النيابى الفرنسى المنعقد فى يونيه سنة ١٨٨٢م " ان بريطانيا وفرنسا تشتركان فى مصلحتين رئيسيتين أولهما حرية قناة السويس ، وثانيهما ادارة الشئون المصرية ادارة صالحة". (٢) بعد ذلك تطور الموقف فكان الاحتلال الانجليزى لمصر وسيطرتها على قناة السويس سنة ١٨٨٢م ، وساعد استمرار السيطرة الانجليزية على قناة السويس ، بالرغم من اتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨م ، بشأن حرية الملاحة فى القناة ، على جعل القناة من أهم عوامل المنازعات الاستعمارية ، وزاد حادث فاشوده سنة ١٨٩٨م من حدة النزاع بين المتنافسين الرئيسيين فى مصر ، انجلترا وفرنسا ، حتى أصبحت

---

(١) أحمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٤٢-٤٣ ، عبد الرؤوف احمد عمرو ، قناة السويس فى العلاقات الدولية ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) شونفيلد . هيو . ج ، قناة السويس ، ص ٥٥ .

انجلترا على وشك الحرب مع فرنسا . واستمر هذا التنازع يتصاعد طوال السنوات التالية حتى تم توقيع الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤م (١) . ونتيجة لافتتاح قناة السويس فقد اهتمت الحكومة المصرية بانشاء خطوط بريدية لتربط بين الموانئ ، كما افتتحت مكاتب بريد فى كل ميناء على البحر الاحمر ، وأدركت الحكومة أهمية نظام البريد ، فكلفت الشركة العزيزية بتخصيص سفينة تتحرك كل ثلاثاء من السويس الى جدة ، بينما تقوم أخرى من سواكن ومصوع حاملة البريد الى جدة ومنها الى مصر . (٢)

ونتيجة لعودة طريق التجارة العالمية الى البحرالاحمر ، نشطت الحركة فى ميناء السويس ، بعد أن أتم بناءه اسماعيل ، وكان سعيد قد بدأ بناءه فى سنة ١٨٥٦م ، وأصلح الطريق بين السويس والقاهرة ، وتم ايصاله بالخط الحديدى السويس ـ القاهرة ـ الاسكندرية ، وبعد مزاولة الشركة المجيدية نشاطها فى البحر الاحمر ، وأصبح ميناء السويس هاما للخطوط الملاحية فى البحر الاحمر ، وكانت شركة ديبير الفرنسية قد قامت بتوسيع ميناء السويس واصلاحه ، واقامة حاجز حجرى لصد الامواج وتامين السفن ، وانشئ حوض عائم لاصلاح السفن بالميناء كما أنشئت عدة فنارات لهداية السفن ، وبعد افتتاح قناة السويس أصبح للميناء مركز خاص لأنه مدخل القناة التى بربط بين بحرين من أهم البحار ، ويعابر

---

(١) جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٣٦ .

(٢) شوقى عطا الله الجمل ، البحرالاحمر فى سياسة مصر ، ص ١٩ .

الميناء حركة السفن فى القناة وأخذت الأهمية والعناية تزداد يوما بعد يوم بازدياد الملاحة فى القناة ، كما نشطت الحركة فى ميناء القصير على البحر الاحمر ، وهو يواجه قنا على النيل ، وتضيق المنطقة الصحراوية التى تفصل بينهما ويوصل بين القصير والنيل وديان معروفة ، ولهذا الميناء أهمية خاصة فى أوقات الحج ، ويقابل هذا الميناء على الساحل الشرقى للبحر الاحمر ميناء الوجه من ثغور جدة ، وفيه أقيم فنار لهداية السفن ، أما ميناء برنيس ، فيقع قرب رأس لباس على البحر الاحمر وتقابله على النيل تقريبا مدينة اسوان ، وقد اهتمت الحكومة بتعمير الطرق البحرية التى توصل بين قنا والقصير وبرنيس وسواكن ، وربطت بخطوط تلغرافية ، كما اهتمت الحكومة المصرية بميناء سواكن باعتباره ميناء السودان الرئيسى من جهة البحر وعن طريقه يمكن تنظيم اتصال مصر بالسودان . واهتمت الادارة المصرية باصلاح وترميم مرسى السفن بها ، كما اهتمت بربط سواكن باجزاء السودان الاخرى بخطوط تلغرافية ، وبحث مشروع مد خط حديدى من سواكن الى بربرة ومنها الى شغرى وعندما زادت الحركة فى ميناء سواكن عين ضابط بحرى لمراقبة السفن وحفظ الامن وتطبيق القوانين البحرية بالميناء ، وأنشئت المخازن لحفظ البضائع الواردة والصادرة وصيانتها حتى يتم التعرف عليها . كذلك ازدهر ميناء طوكر وميناء عقيق اللذان يقعان جنوب سواكن ولما زادت أهمية طوكر كميناء بحرى عين لها مأمور خاص (١) . واهتمت الحكومة

---

(١) شوقى عطالله الجمل ، البحر الاحمر فى سياسة مصر ، ص ٢٥-٢٧ .

اسماعيل باشا بميناء الاسكندرية اذ قامت بتوسيعه واقامة حوض عائم من الحديد سنة ١٨٦٨م ، وأقيم حاجز ضخم لصيانة السفن والميناء من الامواج والعواصف كما انشئت عدة أرصفة للشحن والتفريغ ، وكان من الاعمال التى ساعدت فى تسهيل حركة الملاحة للسفن فى البحرين المتوسط والاحمر، انشاء الفنارات على سواحل البحر الاحمر والبحر المتوسط وخليج عدن ، حتى بلغ عددها خمسة عشر فنارا (١)، أما الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية فقد استمر يحتل أهميته بعد افتتاح القناة ، وتحول الطريق الرئيسى للملاحة اليها بسبب اشرافه على طريق الهند وسيطرته على المنفذ الجنوبى للبحر الاحمر، مما جعل انجلترا تحرص على حماية نفوذها فيه ، وبسط حمايتها على جميع أجزائه (٢) فميناء عدن ازدادت أهميته مع استخدام السفن التجارية ومع افتتاح قناة السويس ، وكان موضوع حماية الميناء يعتبر من أهم المهام فى نظر الانجليز ، ومن ثم عملوا على تقوية منشآته وتزويد جزيرة بريم بالمدفعية . أما الحركة فى قناة السويس فقد أخذت فى الازدياد سنة بعد أخرى ، فمثلا فى شهر أغسطس سنة ١٨٧١م عبرت ٦٠ سفينة تحمل ٦٥ر٣٧٠ طن ، بينما عبرت فى نفس الشهر سنة ١٨٧٢م ٨٢ سفينة تحمل ٩٥ر٢٣٢ طن وكانت السفن الانجليزية هى أكثر السفن العابرة ، اذ بلغ عددها ٥٥ سفينة منها ٦ سفن بخارية ، وسفينة واحدة فرنسية عادية ، و ٦ سفن ايطالية

---

(١) سيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) حسين فوزى النجار ، بريطانيا والجنوب العربى ، ص ٣٧ .

منها ٣ سفن بخارية ، و٢ سفن عثمانية، و ٣ سفن برتغالية ، وسفينتان ألمانيتان ، وسفينة أسبانية ، وسفينة سويدية وأخرى مصرية ، ومن ذلك يتبين أن القناة أصبحت ممرا عالميا وان أكثر السفن تحمل الجنسية الانجليزية على اعتبار أنها دولة استعمارية وصاحبة أكبر اسطول بحرى ، لذلك كان يهمها أمر القناة أكثر من أية دولة أخرى ، أما السفن العثمانية الاربعة ، فكان منها ثلاث تابعة للحكومة ، واتجاهاتها من بيروت الى القنفذة ، وأخرى من جدة ـ اسطنبول ، والثالثة من البصرة ـ اسطنبول . (١)

وهكذا بعودة طريق التجارة العالمية للبحر الاحمر دبت الحياة من جديد فى هذا البحر ، وبعودة التجارة العالمية ازدهر هذا البحر وقامت الموانى ء الجديدة على شاطئيه الشرقى والغربى ، وازدهرت الموانى ء القديمة وازدادت أهميته كميناء جدة وعدن و المخا والسويس ، واهتمت الدول الاوروبية بهذا البحر وأخذت تبحث عن نقاط استراتيجية لتتمركز فيها ، وأصبحت منطقة البحر الاحمر منطقة صراع عالمى ، كما أن عودة التجارة للبحر الاحمر كان له الاثر الطيب فى أوروبا اذ أخذت السلع تنخفض قيمتها الشرائية كما كانت هناك أيضا حركة انتعاشية فى موانى ء البحر الابيض المتوسط .

---

(١) Suez Canal traffic. August 1872 (conterued).
Public record office. Ref. F.O.195/1000 B.

أما أهمية القناة للدولة العثمانية من حيث سياستها الحربية ، فينبغى أن نشيرهنا بايجاز الى أن عمرو بن العاص كان قد استأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى عام قحط الحجاز والمسمى عام الرمادة ، فى توصيل البحرين الاحمر والابيض المتوسط ، فأذن له باعادة شق الترعة القديمة وسماها خليج أمير المؤمنين ، وجرت فيها سفن الميرة الى الحجاز وظل الحال على ذلك حتى عهد أبى جعفر المنصور العباسى الذى أمر بردمها سنة ١٤٥ هـ الموافق سنة ٧٧٠م حتى لا تنقل الميرة الى محمد بن عبد الله بن الحسن الخارج عليه فى الحجاز (١) ، توقف بعد ذلك نقل السلع عبر هذه القناة ، وأصبحت التجارة تنقل بالبر الى البحر المتوسط ، وذلك بعد قدومها من الشرق الاقصى عن طريق البحر الأحمر ، واستمر الحال على ذلك حتى تحولت التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح وأقفل طريق البحر الاحمر ، مما ادى الى كساد التجارة فى هذه المنطقة ، بالاضافة الى ركود الحياة فيها ، وقلة النشاط البحرى كما أشرنا من قبل وضعف سلطان الدولة العثمانية على الجزيرة العربية وعلى الاخص الطرف الغربى منها ولذلك يعتبر انشاء قناة السويس سنة ١٨٦٩م بالنسبة للدولة العثمانية ، حدثا هاما بالنسبة لأهمية شبه الجزيرة ولا سيما الحجاز ، (٢) ، وكان غرب الجزيرة العربية والحجاز لهما أهمية بالغة بالنسبة للدولة العثمانية على اعتبار الموقع الممتاز خاصة بعد عودة

---

(١) عمر الاسكندرى ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثمانى ، ص ٢٠٩ .

(٢) هارولد ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ٧٤ .

التجارة العالمية اليه ، فوجود اليمن فى جنوب غربى شبه الجزيرة العربية جعله منطقة دفاع هامة عن حدود الدولة العثمانية من الجنوب ، وقد أدى هذا الى اقتناع العثمانيين بأن سيطرتهم على اليمن تجعلهم يضمنون سلامة الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ، وقد تضاعفت أهمية موقع اليمن وخطورته بتحول التجارة العالمية الى طريق البحر الأحمر عبر القناة ، أما الحجاز فأهميته تكمن للدولة العثمانية أنه يضم الاراضى المقدسة ، لذلك كان السلطان العثمانى أمام أعين المسلمين حاميا للأراضى المقدسة ، ويرون فيه الحاكم المسلم الذى يجب أن يطيع أوامره كل مسلم على وجه البسيطة ، من ذلك تظهر الدولة العثمانية ذات أهمية كبرى تخشاها بقية القوى الكبرى فى العالم ، هذا ومن جهة أخرى أرادت الدولة العثمانية أن يكون لها مناطق نفوذ على البحر الاحمر ، الذى أخذت الدول الاستعمارية تزاحم فى اقتناء مناطق نفوذ لها فى هذه المنطقة الحيوية من العالم ، أعنى البحر الاحمر .

وكان افتتاح القناة وازدهار الحياة الاقتصادية فى موانيه ، وخصوصا الموانئ العربية سببا فى أن الدولة العثمانية أخذت تستفيد من الرسوم التى كانت عائدة من وقوف السفن فى تلك الموانى ، ثم وجهت الدولة العثمانية بعد ذلك اهتمامها للبحر الاحمر ، الذى أصبح أهم طريق للمواصلات بين الشرق والغرب والى مناطق الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر ، وخاصة اليمن التى تشرف على مضيق باب المندب فى جنوبه ، وقد أكدت قناة السويس للعثمانيين ضرورة اعادة فرض

سيطرتهم الفعلية على اليمن بعد أن تضاعفت اهمية موقعها وخطورتها اثر تحول التجارة العالمية الى طريق القناة ، بل ان هذا الممر البحرى الجديد يسر للأسطول العثماني العبور الى البحر الاحمر والخليج العربي ، ووصل ميناء الاستانة بموانئ الجزيرة العربية مباشرة ، وبذلك سهلت عمليات توصيل القوات والامدادات العسكرية فى أقصر وقت ممكن الى بلدان الجزيرة العربية (١) ، كما ساعدت قناة السويس العثمانيين على تدبير الشئون العربية عن كثب ، وذلك انطلاقا من قاعدتهم بالحجاز ، حيث رتبوا خططهم للتغلب على اليمن وعسير (٢) ، كما كان فتح القناة عاملا هاما ، أعان الدولة العثمانية على تشديد قبضتها على شئون الحجاز والتدخل المستمر فى شئون الشرافة ، اذ ان الافتتاح كما أوضحنا أوجد طريقا مائيا مباشرا بين الاستانة وكل من الحجاز واليمن ، وهما من الولايات العثمانية الواقعة على الساحل الشرقى للبحر الاحمر ، كما زادت قدرة الدولة من بسط وتأكيد سيطرتها على الاجزاء الغربية من شبه الجزيرة العربية ، وكان الموقف العسكرى قبل فتح القناة صعبا ، لأن الدولة العثمانية كانت تستخدم الطريق البرى لتسلكه قواتها المسلحة عبر الصحراء الى الحجاز وعسير ، وكانت هذه القوات تصل فى حالة اعياء شديد ، بعد أن تكون قد فقدت الكثير من الضحايا بسبب الاهوال التى تلاقيها أثناء السير عبر الصحارى والفيافى الطويلة ، وكانت فى بعض

---

(١) فاروق اباظه ، الحكم العثمانى فى اليمن ، ص ٨٣ .

(٢) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ١٦ .

الاحيان تصل متأخرة وبعد فوات الأوان ، لكن بافتتاح القناة تبدل الامر وأصبح في وسع الدولة أن ترسل بحرا ومباشرة حاميات عسكرية جديدة الى الحجاز ومؤنا وامدادات عسكرية الى جيوشها باليمن ، وعلى ذلك فان فتح القناة أدى الى دعم سيطرة الدولة على أقليم الحجاز (١) ، وقد رأينا فيما سبق كيف كان السلطان العثماني يستعين بالوالي المصري في ارسال القوات الى اليمن التي كان يمدها في ميناء السويس ، وكانت الدولة العثمانية قد لجأت الى والي مصر اسماعيل للاستعانة به في اخماد ثورة العسيريين ضد العثمانيين في اليمن ، حتى لا تخرج عسير نهائيا عن حظيرة الدولة العثمانية ، وأعد الوالي العثماني في مصر حملة قوامها ٤٤٤٥ ، وأبحرت هذه القوة من ميناء السويس في ٣ يونيه سنة ١٨٦٤ ، من ميناء السويس متجهة الى جدة ومنها الى شمال اليمن وتشبه هذه الحركة استعانة السلطان العثماني بمحمد على للتصدى لدعوة التوحيد والاصلاح (٢)

ولكن بعد افتتاح القناة يستطيع السلطان العثماني ارسال قواته من العاصمة الاستانة دون الاستعانة بالوالي المصري أوغيره ، كما حدث في الفتح العثماني الثاني لليمن سنة ١٨٧٢م وبعبارة أخرى فقد كان فتح القناة للملاحة العالمية عاملا هاما في سهولة وسرعة الاتصال بين الاستانة والحجاز واليمن وهط

---

(١) فائق بكر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٩٤ .

(٢) فاروق اباظه ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٧٠ .

من الممتلكات العثمانية ، ولأول مرة تتصل الحكومة اتصالا بحريا مباشرا بهاتين الولايتين العربيتين وهما الحجاز واليمن ، وأصبح في مقدور حجيج تركيا استخدام السفن في السفر من الموانئ التركية الى موانئ الحجاز مباشرة (١) ، هذا وقد أثر افتتاح قناة السويس على الدولة من ناحية أخرى ، اذ أنه عندما استوى السلطان عبد العزيز على عرش السلطنة (١٨٦١ - ١٨٧٦م) زاد الاهتمام بالبحرية ، فأصلح دار صناعة السفن ، وأنشأ لها حوضا عائما ، وفتح مدرسة للفنون البحرية ، كما تعاقد مع عدد من معامل أوربا على صناعة مجموعة من السفن البحرية الحديثة بالاضافة الى ما كانت تصنعه دار الصناعة في الأستانة ، على أن هذا الاهتمام لم يستمر في عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٨)م ، ويقال أنه تأثر حين شاهد أن هذه القوات شاركت في الخروج على عمه عبد العزيز يوم خلعه ، وحاصرت قصره من ناحية البحر ، لذلك أهمل الأسطول ، وجعل مقره بعيدا عن البحر في بلديز ، كما حظر على هذه السفن الخروج للمناورات ، ولم يسمح بانشاء غير طرادين وعدد من النسافات ، كلفت الخزينة الكثير . (٢)

وقد ادرك السلطان عبد العزيز أهمية القناة وذلك أثناء الحفر وقبل الافتتاح ، فزار مصر ليؤكد مجددا سلطة الدولة العثمانية على هذا الاقليم ،

---

(١) فائق بكر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ١٠٥ .
(٢) محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٤٦ .

وكانت الزيارة فى شهر ابريل سنة ١٨٦٣م (شوال سنة ١٢٧٩هـ) ، ونزل بالاسكندرية ، ثم ذهب الى القاهرة ، ونزل فى ضيافة الخديوى اسماعيل عشرة أيام لقى فيها الحفاوة البالغة مما جعل لاسماعيل منزلة كبيرة عنده . وكان السلطان عبد العزيز هو السلطان العثمانى الذى جاء مصر زائرا بعد السلطان سليم الذى دخلها فاتحا ، ولذلك كانت هذه الزيارة تكريما وتعظيما لشأن اسماعيل الذى اغتنم الفرصة واستغل المنزلة التى نالها ليكسب من الدولة العثمانية حقوقا ومزايا جديدة واستخدم المال وبذله بسخاء ، فغمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة وملأ سفينة بأكملها وقدم الهدايا الى الأعظم فؤاد باشا ليتخذ منه عونا له فى مساعيه لدى الحكومة العثمانية ، وعاد السلطان عبد العزيز من زيارته مغتبطا مما لقيه من الاكرام ، ومهدت الزيارة الطريق أمام اسماعيل لنيل رغباته (١) ، وكان السلطان عبد العزيز يريد ارضاء اسماعيل وذلك من خلال الامتيازات الممنوحة له بموجب فرمانات ، خوفا من انسلاخ هذا الاقليم من الدولة ، والذى سيصبح فى المستقبل طريقا هاما للولايات العثمانية فى الجزيرة العربية .

على أن سلطة الدولة العثمانية فى شبه الجزيرة العربية لم تقو الا فى سنة ١٨٧٠م ، وقد مهدت لذلك عوامل مختلفة لأن فتح قناة السويس سهل للأسطول العثمانى الالتفاف حول شبه الجزيرة العربية للوصول الى الخليج العربى (٢) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى بك ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) د . صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج ، ص ١٨٣ .

وبفضل التسهيلات التى أتاحتها قناة السويس ، تمكنت الدولة العثمانية كما ذكرت سابقا من ارسال قوات كبيرة الى اليمن لاستعادة نفوذها فيه واقامة حكم عثمانى فعال ، واذا قارنا بين الحملة التى أرسلت فى سنة ١٨٤٩م أى قبل افتتاح القناة وبين الحملات التى تلت افتتاح القناة فاننا نجد الفارق الهائل الذى يوضح أهمية القناة فحملة سنة ١٨٧٢م كان عددها أكبر من سابقاتها (١) وكان على رأسها القائد أحمد مختار ، الذى جهز بجيش كامل يعرف بالفيلق السابع لاعادة السيطرة على اليمن (٢) ، لأن الدولة العثمانية كانت مقسمة الى سبع مناطق عسكرية ، وكان فى كل منطقة منها جيش يسمى بالاوردى أو الفيلق ، ويتكون الفيلق من أربع فرق ، وثمانى لواآت ، و ١٦ آليا ، ٦٤ اورطة ، ٢٥٦ بلوكا وكل فيلق من هذه الفيالق ما عدا السابع يتكون من جنود منتظمة يتمركزون زمن الحرب ، وذلك مثله مثل الجيش الاحتياطى الاستراتيجى ، ويشتمل كل فيلق على جيش نظامى وآخرين من الرديف ورابع من المستحفظين ، وفى زمن السلم يكون بكل جهة من جهات الفيالق المذكورة جيش من النظاميين " أى الجند المنظمة " وأربع فرق من بيادة الرديف ، وما عدا هذه الاورديات - الفيالق - السبعة ، فان بلاد كريت وطرابلس الغرب ، والحجاز ، تحتلها جنود عديدة ليست داخلة ضمن الفيالق السبعة ، وكل فيلق يشتمل أيضا على فرقتين من المرتجلين بكل واحدة أورطة ، وأربعة الايات من الرجال ، وفرقة من السوارى بها ستة ألايات ، وفرقة من الطوبجية

---

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٣٣ .

(٢) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥٠ .

وتشتمل على عدة بطاريات راكبة ، وستة الايات مكونة لثلاث لواآت ، ورطة مهندسين حربية وبلوك للبرقيات . (١)

وقد سبق أن أشرنا الى أن الحملات العسكرية التى أرسلت لاخضاع عسير واليمن قبل افتتاح القناة كان يستعان فيها بالخديوى فى مصر أو بالشريف بمكة فى اعدادها وتموينها ، وقد مر بنا ذلك فى الفصل الاول على أنه منذ سنة ١٨٧٠م فصاعدا ، أصبح فى وسع الدولة العثمانية أن ترسل على عجل المؤن والامدادات العسكرية الى جيوشها باليمن عبر قناة السويس ، ويؤكد صحة ذلك أنه فى سنة ١٨٧٢م استطاع العثمانيون أن يغزوا اليمن من جديد دون مساعدة شريف مكة ، ودون الاعتماد كلية على الوالى فى مصر ، كذلك ساعدت قناة السويس الدولة العثمانية فى محاولاتها على القضاء على مساوىء الادارة العثمانية فى اليمن وتطبيق القانون الصادر فى سنة ١٨٦٤م بشأن تنظيم حكم الولايات كما قربت قناة السويس المسافة بين الساحل الغربى لشبه الجزيرة وبين الاستانة فشجعهم ذلك على محاولة تشديد قبضتهم على الحجاز واليمن (٢) ، كذلك جهزت الدولة العثمانية حملة عسكرية قوامها عشرون الف جندى ، تحملها السفن الحربية بقيادة محمد رديف باشا ، وأحمد مختار باشا ، وذلك عندما غار الأمير العسيرى محمد بن عائض على الحامية العثمانية بالحديدة ، كما قامت قواته بأعمال

---

(١) اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٧٦٧ - ٧٦٨ .

(٢) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ١١٤ ، ٨٥ .

وحشيةضد الاهالى فى تهامة اليمن ،ووصل رديف باشا القنفذة أحد الموانئ فى غرب شبه الجزيرة العربية ،وأخذ فى الاستعداد للوثوب على الاهلين فى عسير ،ثم باشر عمله فى عسير، حتى أقر الامن فيها وقمع الفتنة ، (١) ويلاحظ هنا مدى استفادة الدولة العثمانية من قناة السويس فى سرعة اخماد الفتن والاضطرابات ،التى تقوم فى أجزاء الدولة وقامت هذه الحملة سنة ١٨٧٢م ، ووصلت القنفذة فى شوال سنة ١٢٨٨ هـ .

الا أنه يلاحظ منذ بداية التدخل العثمانى فى منطقة جنوب الجزيرة فى سبعينات القرن التاسع عشر أن أصبح النفوذ الانجليزى مهددا تهديدا خطيرا ، مما جعل انجلترا تعمل على تغيير المعاهدات الولائية الى حمايات فرضتها على الرؤساء العرب لابعاد النفوذ العثمانى عن عدن (٢) .

أما عن اهتمام الحكومة المصرية بشئون البحرية على اثرِبناء قناة السويس فقد كان سعيد باشا عازما على اصلاح البحرية ،الا أن انجلترا كان يهمها ألا تنهض قوات مصر البحرية ،فسعت لدى الدولة العثمانية لتمنع تجديد الاسطول المصرى ،وأوهمت السلطان أن تقوية الاسطول المصرى فيه تهديد للعثمانيين وسيادتهم على مصر ،فأصدر السلطان أمره لسعيد بألا يقوم باصلاح سفن الاسطول

---

(١) هاشم سعيد ،تاريخ عسير ،ص ٢٠٩ .

(٢) جاد طه ،سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ،ص٣٥٤ - ٣٥٥ .

وألا ينشىء ولا يشترى سفنا جديدة الا بأمره ، وكانت انجلترا تهدف من وراء ذلك أن لا يكون هناك منافس لسيادتها البحرية فى البحر المتوسط والبحر الاحمر ، لذلك سعت الى وقف نشاط مصر البحرى . (١) الا أن الخديوى اسماعيل قام بتزويد البحرية المصرية بسفن حربية مدرعة ، عن طريق تعاقده مع شركة فرنسية على ثلاث سفن ، وتعاقده مع النمسا على سفينتين لكن انجلترا كما رأينا كان من سياستها اضعاف قوة مصر البحرية والحربية وذلك لضمان السيادة فى البحرين الاحمر والمتوسط ولتنفذ سياستها الاستعمارية المرسومة فى هذه المناطق ، فلم تنظر لهذه الجهود المبذولة لاحياء البحرية المصرية بعين الارتياح ، فلجأت للطريقة التقليدية فى اثارة مخاوف الدولة العثمانية من جهود اسماعيل هذه ، واوعزت الى السلطان بأن يقف فى وجه هذه الجهود والحد منها ، وتذرعت الدولة لذلك بأن الفرمانات لا تبيح لمصر انشاء سفن حربية مدرعة بدون اذن سابق من السلطان وقامت أزمة بين السلطان والخديوى الا أن هذه الازمة حلت ، وذلك بأن ابتاعت الدولة العثمانية لنفسها هذه السفن المدرعة .

وقام الاسطول المصرى برحلات منتظمة فى البحر الاحمر ، فساد الامن والسلام مياهه ، بعد أن كانت الاخطار تسود فيه ، كما دب العمران وانتشرت مظاهر الرخاء والتطور فى موانىء افريقيا الشرقية التى أصبحت متصلة ببلدان العالم بعد أن كانت تكاد تكون فى عزلة تامة ، وأدى هذا الى ازدهار التجارة ، ونشاط الزراعة وغيرها من

---

(١) شوقى عطاالله الجمل ، سياسة مصر فى البحرالاحمر، ص ٥٠ .

موارد الثروة فى هذه الجهات (١) ، وفى أواسط ذى الحجة سنة ١٢٨١ هـ مايو سنة ١٨٦٥م أصدر السلطان عبد العزيز فرمانا باحالة ميناء سواكن وميناء مصوع للادارة المصرية على أن تورد مصر لخزينة جدة ٢٥٠٠ جنيه عثمانى سنويا الا أن هذا الفرمان عدّل فيما بعد ضمن فرمان تغيير الوراثة الصادر فى محرم سنة ١٢٨٣ هـ الموافق سنة ١٨٦٨م فجعلت الاحالة وراثية ونص على أن تنتقل ولاية مصر مع ما هو تابع لها من الاراضى ، وكامل ملحقاتها ، وقائمقامية سواكن ومصوع الى أكبر أولاد الخديوى بطريقة التوارث ، وبالصورة نفسها الى أكبر أولاد ذريته ، وبعد أن استقرت الامور لمصر فى مصوع وسواكن ، شكلت منها ومن الاقاليم السودانية المطلة على البحر الاحمر بالاضافة الى مديرية التاكة ، محافظة جديدة عرفت باسم محافظة سواحل البحر الاحمر ، وعين أحمد مختار باشا مديرا لشرقى السودان ومحافظة البحر الاحمر ، الا ادارة هذه الاقاليم لم تستقر على وتيرة واحدة ، ففى رجب سنة ١٢٨٨ هـ ألغيت حكمدارية السودان ومحافظة سواحل البحر الاحمر ، ثم تقسيم السودان الى مديريات ومحافظات مستقلة ، على أنه أعيد توحيد ادارة محافظتى مصوع وسواكن فى محرم سنة ١٢٨٩ هـ (٢) نظرا لازدياد أهميتها بعد افتتاح قناة السويس .

وبعد الافتتاح رأت الدولة العثمانية فائدة قناة السويس وخشيت من انسلاخ

---

(١) شوقى عطا الله الجمل ، سياسة مصر فى البحر الاحمر ، ص ٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢ .

مصر ، هذا الاقليم الحيوى من جسم الدولة ، فأصدرت فرمانا فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩م ، " وهو الذى أكد حقوق السيادة العثمانية على الخديوية المصرية وبالصورة التى رسمتها ١٨٤٠ - ١٨٤١م ، وأعاد فيه السلطان ذكر المسائل التى قبلها اسماعيل بشأن تحديد عدد السفن الحربية والعلاقات الخارجية وأكد عليه ضرورة استخدام موارد البلاد لخدمة مصالحها الحقيقية ، ومعاملة الرعايا المصريين بالعدل والانصاف ، وألا تجبى ضرائب جديدة من غير حاجة شرعية تامة ، وألا يعقد قرض الا بعد موافقة السلطان (١) ولعلنا نذكر تلك الاحتفالات التى أقامها الخديوى اسماعيل بمناسبة افتتاح القناة ليكسب لنفسه استقلالا ذاتيا عن الدولة وهنا شعرت الدولة العثمانية بهذه الحركة فأصدرت هذا الفرمان حتى يقف عند حده وألا يتكرر منه ذلك فى المستقبل ، كل هذا بدافع حرص الدولة العثمانية على سيادتها كاملة ، ليحقق لها السيادة الكاملة على القناة ، وكان فرديناند دىلسبس عندما فكر فى أن تباع الشركة للدول البحرية الاوربية عندما وقفت أمامه الصعوبات المادية والخسارة التى واجهتها الشركة فى السنوات الاولى ليضمن دولية وحيادة القناة لم توافق الحكومة العثمانية على ذلك ، وما كانت لتصمت أبدا لمثل هذه المشاريع التى تتعارض بطبيعة الحال مع حقوق سيادتها فشركة القناة شركة مصرية خاضعة للقوانين العثمانية . (٢)

---

(١) د. سيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص٣٦٥ .

(٢) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص٤٥ .

وفى الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧م ، أرسلت بريطانيا الى روسيا فى ٦ مايو سنة ١٨٧٧م تبلغها أن " كل محاولة لحصر القناة أوالنواحى المجاورة لها أو تعطيلها بأى شكل فان الحكومة البريطانية تعتبر ذلك تهديدا للهند واضرارا جسيما بتجارة العالم ، وأن كل عمل من هذا القبيل يتعارض مع احتفاظها بموقف الحياد السلبى ، وقد استجابت روسيا لذلك ، كما أرسلت بريطانيا مذكرة مماثلة الى كل من الباب العالى والخديوى وشركة القناة وقد أجابت الدولة العثمانية بأنها تؤيد حرية المرور بقناة السويس لجميع سفن الدول المحايدة ، ولكنها فى الوقت نفسه تعتبر القناة جزءا من ممتلكاتها لا يوضع بأى شكل تحت نظام الحياد ، واستنادا لهذا لن تسمح للسفن المعادية بدخولها واحتفظت السلطات العثمانية بحقها الكامل فى القبض على السفن الروسية التى تدخل القناة (١) ، وأكدت الدولة العثمانية بعد ذلك أحقية استعمال القناة فى أوقات الحرب وأنها جزء لا يتجزأ من ممتلكات الدولة العثمانية ، وكان ذلك على الصعيد الدولى فى اتفاقية ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٨٨م والخاصة بحرية الملاحة فى قناة السويس ، ومن أهم البنود التى عنيت بهذا الحق المادة الرابعة من الاتفاقية التى جاء فيها : بما أن القناة البحرية تظل فى زمن الحرب طريقا حرا ولو كان ذلك لمرور السفن الحربية التابعة للدول المتحاربة عملا بالمادة الاولى من هذه الاتفاقية ، فقد اتفقت الدول المتعاقدة على عدم استعمال أى حق من

---

(١) الدراسات الثقافية ، قناة السويس ، ماضيها وحاضرها ، ص ٢٣ .

حقوق الحرب ،أو اتيان أى فعل عدائى أو أى عمل من شأنه لتعطيل حرية الملاحة فى القناة ،أو فى الموانئ الموصلة اليها ،أو فى دائرة نصف قطرها ثلاثة أميال بحرية من هذه الموانئ حتى لو كانت الدولة العثمانية احدى الدول المتحاربة ،ويمتنع على البوارج الحربية للدول المتحاربة أن تباشر داخل القناة أو فى الموانئ المؤدية اليها عمليات التموين أو التخزين الا بالقدر الضرورى جدا ،ويتم مرور السفن المذكورة فى أقصر وقت ممكن وفقا للأنظمة المعمول بها ، ولا يجوز لها الوقوف الا لضرورة قضت بها مصلحة العمل ،ولا يجوز أن تزيد مدة بقائها فى بورسعيد أو فى خليج السويس على ٢٤ ساعة فقط فى حالة التوقف الجبرى ،وفى الحال عليها الرحيل فى أقرب فرصة ممكنة ،ويجب أن تمضى ٢٤ ساعة بين خروج سفينة متحاربة من أحد موانئ الدخول وبين قيام سفينة أخرى تابعة للدول المعادية (١) ،ومن خلال هذه المادة يتبين أن الدولة العثمانية وبقية الدول المشاركة فى هذه الاتفاقية ،قد حافظت على سلامة الموانئ المؤدية اليها عمليات التموين ،كما حافظت على أملاك الدولة العثمانية ،بضمانات مختلفة من حيث الزمن والمكان ،فمن ناحية الزمن حدد ٢٤ ساعة مدة توقف السفن المتحاربة فى موانئ بورسعيد والسويس التابعة للدولة العثمانية وذلك فى حالة الضرورة ،ومسافة قدرها ثلاثة أميال بحرية يضمن سلامة أمن الموانئ .

ونصت المادة الثامنة " ... وعلى كل حال يجتمع المندوبون مرة فى السنة

---

(١) بطرس بطرس غالى ،يوسف شلاله ،قناة السويس ومشكلاتها ،ص ١٢ .

للتثبت من تنفيذ المعاهدة تنفيذا حسنا ، وتعقد هذه الاجتماعات الاخيرة برياسة مندوب خاص تعينه حكومة السلطنة العثمانية لهذا الغرض . ويجوز أيضا لمندوب الحضرة الخديوية حضور الاجتماع كذلك ، وتكون له الرياسة فى حالة غياب المندوب العثمانى ، ويحق للمندوبين المذكورين المطالبة بنوع خاص بازالة كل عمل أو فض كل اجتماع على ضفتى القناة من شأنه أن يمس حرية الملاحة وضمان سلامتها ، (١) وهنا أيضا كسبت الدولة العثمانية بموجب هذا البند امتيازا خاصا وذلك فى ترأس الاجتماعات السنوية للتثبت من تنفيذ الاتفاقية ويأتى بعده فى الأفضلية الخديوى ، على اعتبار أن القناة جزء من الدولة لضمان سلامة الاراضى العثمانية ، كما نصت المادة التاسعة ، " تتخذ الحكومة المصرية فى حدود سلطتها المستمدة من الفرمانات والشروط المقررة فى المعاهدة الحالية ، التدابير الضرورية لتنفيذ المعاهدة ، وفى حالة عدم توفر الوسائل الكافية لدى الحكومة المصرية . يجب عليها أن تستعين بحكومة الدولة العثمانية التى يكون عليها اتخاذ التدابير اللازمة لاجابة هذا النداء .." (٢) ، وبموجب هذه المادة ، اعتبرت الدول مصر تابعة للدولة العثمانية التى بموجبها تضع التدابير الضرورية فى تنفيذ هذه المعاهدة من وسائل دفاعية للقناة ، ومما لا شك فيه أن الدولة هنا لديها مكاسب مادية وأخرى معنوية ، فمبدأ استعانة حكومة مصر بالدولة العثمانية فى وضع التدابير للتنفيذ دون أية دولة أخرى ، معناه الارتباط الكامل لمصر التى تجرى القناة فى أرضها بالدولة العثمانية

---

(١) عبد العزيز الشناوى وجلال يحيى ، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٦٦
(٢) بطرس بطرس غالى ويوسف شلاله ، قناة السويس ومشكلاتها ، ص ١٤ .

فهو بذلك يعد مكسبا معنويا ، يؤكد سيادة الدولة العثمانية على هذا الاقليم أما من الناحية المادية فهو استفادة الدولة من الرسوم العائدة من مرور السفن وتأكيد ذلك جاء بموجب قرارات هذه المعاهدة ، كما نصت المادة العاشرة من اتفاقية سنة ١٨٨٨م الخاصة بحرية مرور السفن فى قناة السويس" .. لا تتعارض فى أحكام المواد ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ مع التدابير التى قد يرى عظمة السلطان وسمو الخديوى اتخاذها فى حدود الفرمانات المخولة ، ليضمنا بواسطة قواتهما فى حدود الفرمانات الممنوحة ، الدفاع عن مصر وصيانة الامن العام ، واذا رأى صاحب العظمة السلطان أو سمو الخديوى ضرورة استعمال الحقوق الاستثنائية بهذه المادة ، فانه يجب على حكومة الدولة العثمانية أن تخطر بذلك الدول الموقعة على تصريح لندن .

ومن المتفق عليه أيضا أن أحكام المواد الأربعة المذكورة لا تتعارض اطلاقا مع التدابير التى ترى حكومة الدولة العثمانية ضرورة اتخاذها لكى تضمن بواسطة قواتها الخاصة الدفاع عن ممتلكاتها الواقعة على الشرقى للبحر الاحمر" (١) ، وكان مندوب الدولة العثمانية قد اقترح قبل اقرار هذه المادة النص الآتى " للباب العالى مطلق الحق فى اتخاذ كل الوسائل الضرورية للدفاع عن الاقليم" ثم عاد فاقترح النص الآتى " لا تعطل مواد المعاهدة حقوق الباب

---

(١) عبد العزيز الشناوى وجلال يحيى ، وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ٦٦٤ .

العالى فى اتخاذ الوسائل والاجراءات التى يراها ضرورية للدفاع عن مصـــر ، والنصان فى عمومهما يشملان الحصر البحرى والزيارة والتفتيش ،ولم تعترف الدول على اطلاق النص على الحق فى اتخاذ كافة الاجراءات الضرورية للدفاع عن مصر -ومنها الحصر البحرى -وان كان بعضها كايطاليا ،قد لاحظ أن الصياغـــة الأخيرة تعلق حق مصر فى الدفاع عن نفسها على ادارة الحكومة العثمانيـــة ، واقترح لتلافى ذلك أن يقرر الحق لحكومة مصر ذاتها (١) ،وأعفت المادة العاشرة الدولة العثمانية من قيود عسكرية خاصة بهذه الاتفاقية ،وذلك عندما يكون الامر متعلقا بقيام قواتها المسلحة بالدفاع عن الحجاز أواليمن وهما من ولايات الدولة وكانت هذه القيود قد وضعت أصلا لتلتزم بها الدول المتحاربة ،ضمانا لحرية الملاحة فى قناة السويس، هذا وملكية مصر للقناة وسيادتها عليها هى المبرر الشرعى للاستثناءات التى تقررت لمصلحتها والتى تبيح لها توقيف بعض مواد الاتفاقية ، كما أن هناك استثناءات للدولة ذاتها تحققت فى المادة الثانية عشرة التى جاء فيها" ... قد اتفقت على أن لا يجوز لاحداها الحصول على مزايا اقليمية أوتجارية أو امتيازات فى الاتفاقات الدولية التى تبرم مستقبلا فيما يتعلق بالقناة ،ويحتفظ فى جميع الأحوال بحقوق تركيا كدولة ذات سيادة اقليمية". (٢)

---

(١) الدراسات الثقافية ،قناة السويس ،ماضيها وحاضرها ،ص ٣٣ .

(٢) بطرس بطرس غالى ،ويوسف شلاله ،قناة السويس ومشكلاتها ،ص ١٠٥ .

وهكذا كان اهتمام الدولة العثمانية بالقناة كما رأينا ادراكا منها أن القناة هي أهم العوامل من حيث تحقيق سياستها العربية ، ولأن هذا الممر البحري الجديد من شأنه تيسير عبور الأساطيل العثمانية ، ووصل ميناء الاستانة بموانيء الجزيرة العربية مباشرة وبذلك تسهل عملية توصيل القوات والامدادات العسكرية في أقصر وقت ممكن ، كما يسر هذا الممر للدولة الوقوف عن كثب على أمور هـذا الجزء ، وسوف نرى أن الدولة استطاعت بعد افتتاح قناة السويس أن تقيم حكمـا على هذه المناطق وأقصد بها غرب الجزيرة كان أكثر فاعلية عن ذي قبل .

الفصل الثالث

جهود الدولة العثمانية لتأمين الحجاز بعد افتتاح القناة

أ - إخماد القلاقل فى عسير ١٢٨٩ هـ - ١٨٧٢ م

ب - الفتح الثانى لليمن ١٢٨٩ هـ - ١٨٧٢ م

جـ - محاولة استعادة نفوذ الدولة العثمانية فى عدن .

كان الأمير محمد بن عائض فى مطلع سنة ١٢٨٨ هـ الموافق سنة ١٨٧١م فى أوج عزه ، اذ كان الامن يروج فى جميع بلاده ، وأخذت هيبته تدب فى قلوب أهل ولايته ، فقدموا له فروض الطاعة ، الا أن تهامة اليمن التى كانت تحت النفوذ العثمانى المباشر بما فى ذلك المخلاف السليمانى صارت على عكس بلاد عسير ، اذ ضاق الاهالى من الحكم العثمانى المباشر ، مما ادى الى تدهور حالة الامن وترديه ، وانتشار الفساد ، مما جعل بعض أعيان البلاد يتجهون الى أمير عسير طالبين منه التدخل لانقاذ بلادهم من العثمانيين فاستجاب لذلك حاكم عسير ، ورأى فى ذلك الفرصة لتحقيق رغباته التوسعية بضم تهامة اليمن والمخلاف السليمانى وطرد العثمانيين منها ، (١) وفى سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) توجه الأمير محمد بن عائض على رأس جيش كبير واستولى أولا على المخلاف السليمانى واستطاع أن يطرد الحاميات العثمانية ويجبرها على الرحيل بحرا الى الحديدة التى كانت مركزا لتجمع القوات العثمانية فى اليمن ، ثم تقدم بعد ذلك الى تهامة اليمن ، وأخذ يعبث فى أرجائها سلبا ونهبا وقتلا ، واستولى على مدينة الحديدة ، ويقال أن طلائعه وصلت الى مخا ، وارتكب جنده الكثير من الفظائع الا أن العثمانيين استطاعوا أن يجمعوا شملهم من جديد فكروا على محمد بن عائض وهزموه ، فارتد بعد ذلك منهزما ، وارتكب أثناء عملية التراجع الفظائع والمنكرات الى أن وصل مدينة أبى عريش ، وأقام عليها لاحق الزيدانى على رأس حامية عسكرية (٢)

---

(١) النعمى ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٨ .

(٢) العقيلى ، تاريخ المخلاف السليمانى ، ص ٥٦٥ .

وكان محمد بن عائض قد استولى قبل ذلك على بلاد بنى شهر وغامد وزهـــران وهذه البلاد تابعة للأشراف فى مكة ، وبذلك يكون ابن عائض قد نقض العهـــود والصلح الذى عقده مع الدولة العثمانية (١) ، وهكذا يخرج ابن عائض للمرة الثانية عن طاعة الدولة ، واشتكى من أعماله كثير من مشايخ تلك النواحى ، لذلك رأت الدولة لزوم ارسال الجنود لتمكين دعائم الحكومة العثمانية وما ان وصلـــت أخبار غارة الجيش العسيرى على تهامة الى الأستانة حتى أرسلت الجيوش لقتاله فى نفس السنة ، وذلك لابقاء اليمن تابعة للدولة العثمانية ، وسيرت الدولة فرقتين احداهما من الأستانة الى بلاد اليمن لحرب عسير ، والثانية من بغداد عن طريق نجد (٢) ، وكانت فرقة الاستانة تحت قيادة الفريق محمد رديف باشا ومعه احمد مختار باشا رئيسا لأركان الحرب (٣) ، وكانت هذه الفرقة العسكرية يزيد عددها على ستة آلاف مزودين بالمدافع (٤) ، وقيل ان هذه الحملة كان تعدادهـــا عشرين ألف جندى ، وكانت هذه الفرقة على تمام الاستعداد (٥) ، وجديـــر بالذكر أن مصر - بناء على تكليف من الباب العالى - تكفلت بارسال المؤن اللازمة من أرز وسمن وسكر للقوات العثمانية ، وقد ثبت ذلك من الخطاب الذى أرسلـــه

---

(١) ابن دحلان ، خلاصة الكلام عن أمراء بيت الله الحرام ، ص ٣٢ .

(٢) لم تذكر المراجع عن الفرقة الثانية والقادمة عن طريق نجد من بغداد ، بل انفرد بذكرها اسماعيل سرهينك ، (٣) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٣١٧ . (٤) فاروق أباظه ، الحكم العثمانى لليمن ص ٧٧ .

(٥) النعمي ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٩ .

خديوى مصر الى الباب العالى فى ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٨٧ هـ يخبره بوصول مكاتبته التى يطلب فيها بارسال خمسمائة ألف أقة سكر لأجل الفرقة العسكرية الشاهانية التى أرسلت الى الحجاز واليمن ، ويرد عليه بأنه أصدر الأوامر المؤكدة المشددة للمختصين باعداد وتجهيز الكميات المذكورة وارسال نصفها الى ميناء الحديدة ، والنصف الآخر الى الأمكنة التى خصصها سعادة رديف باشا . وأضاف فى الختام : أما أثمان هذه الأشياء ومصاريفها فسيرسل بها كشف فيما بعد ، ثم يعرض استعداده لتلبية أى طلب (١) ، أما عن الدور الذى قامت به حملة رديف باشا الذى وصل الى ميناء القنفذة مباشرة فهنا يتضح أثر القناة اذ أصبح باستطاعة الدولة أن ترسل قواتها فى أى وقت دون مساعدة مصر أو الاشراف فى الحجاز وذلك على عكس ما كان عليه الامر قبل ذلك ، وأخذ رديف باشا يستعد للهجوم على الثوار ، وفى نفس الوقت وجه نداءات للأهالى والثوار جاء فيه أن الله ليس بظلام للعبيد فالقبائل والعشائر والاهالى المنقادون لطاعة أولى الامر يلزم عليهم أن يثبتوا على قدم الطاعة والانقياد ، وأن يعلنوا ذلك لكل حاد وباد لتشملهم الرأفة والرحمة والشفقة ، وانا نقول لكم عموما انه حيث القصد من مأموريتنا وسفرنا من دار الخلافة العلية الى هذه الاماكن انما هو من أجل تأمين البلاد ، وترفيه العباد ، ورفع الظلم والتعدى عنهم ، وقمع وردع أهل الاعتساف والفساد ، فمن كان منكم مطيعا لأوامر الله التى من أهمها طاعة

---

(١) سجل ٢٤ عابدين ، الوثيقة رقم ١٢٧٢ ، شوقى عطا الله الجمل ، الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ، ص ٤٣١ .

ولى الأمر فسيجرى فى حقه اللطف والصيانة ، ويعامل بكامل العدل ..) ، ولكن لم يجد رديف باشا لندائه جوابا من قبل الاهالى أو الامير محمد بن عائض ، وفى أعقاب ذلك المنشور عقد العسيريون برئاسة الامير محمد بن عائض اجتماعا تقرر فيه : رفض ما جاء فى الانذار المذكور ، واعلان النفير العام لمقاومة الجيش الزاحف ويكون مقر قيادة الامير عقبه شعار المطلة على وادى تيه ، بالاضافة الى مرابطة رجال ألمع وقبائل تهامة بمضيق دالج المطل على ماء الاحابيش من شمالى ألمع مايلى محائل (١) ، واحتل بعد ذلك رديف باشا منطقة حلى يعقوب وهى أول مركز للحدود العائضية ، ثم والى زحفه الى محائل فاحتلها فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٨٨هـ (٢) وهنا أخذ القائد العثمانى ينسق خططه الهجومية ، وذلك لعلمه باستماتة الاهالى فى الدفاع بالاضافة الى ماكانت عليه المواقع العسيرية من قوة ومتانة (٣) . عند ذلك رابط محمد بن عائض بحشوده من رجال القبائل فى باحة شعار ، وأخذ فى اقامة التحصينات والاستحكامات وتهيئة خط للدفاع ظنا منه أن العثمانيين سيتقدمون من تلك الجهة ، وكان ابن عائض قد استنهض قبائل ألمع فرابطوا فى وادى حلى الا أنهم لم يتمكنوا من صد الزحف وولوا منهزمين (٤) ،

---

(١) النعمى ، تاريخ عسير ، ص ٢١٢ .

(٢) العقيلى ، تاريخ المخلاف السليمانى ، ص ٥٨٤ .

(٣) النعمى ، تاريخ عسير ، ص ٢١٢ .

(٤) العقيلى ، تاريخ المخلاف السليمانى ، ص ٥٨٤ .

وبعد فشل علي بن يحي المفيدي عن الدفاع ، وانسحابه من مضيق دالع أخذ يغطي هزيمته بمحاولة يائسة ، اذ اعتصم بقمة جبل مطل على مركز الشعبين ومعه ثلاثمائة مقاتل لصد القوات العثمانية ، ولكن بدون فائدة ، فما كاد الجيش العثماني يصل ماء الملحة من موارد علي يعقوب حتى اكتشف مواقع علي بن محمد وجماعته وذلك بالمكهر ، فأرسل عليه القائد سرية من جنوده مجهزة بقوة نارية ضاربة ، فاكتشف جبل قوره ، واستطاعت احتلال قمة الجبل ودمر علي بن يحي المذكور وقرته ، فاعتصم بجبل الشرافة المطل على الشعبين من الجنوب ، (١) أما رديف باشا فبعد أن هزم رجال ألمع زحف حتى وصل وادي العوص ومنه تسلقت قواته العقبة الصعبة ، ونصبت خيامها في سطح تهلل ، وهنا ارتبكت خطة دفاع محمد ابن عائض ، واختل توازنه ، فاضطر الى الانسحاب من خطوطه ، محاولا القيام بحركة سريعة ومبادرة العثمانيين بالهجوم ، الا أن هجومه لم يسفر عن نجاح ، وظل القتال سجالا حتى ارغم على الانسحاب من ذلك الميدان الى الحفير بالقرب من قرية السقا ، بينما تقدم القائد العثماني واحتل السقا وضيّق على الامير محمد بن عائض ، فالتجأ الى قرية ريدة وتحصن بها ، ونظرا لحصانة ريدة ومناعتها الطبيعية ، بالاضافة الى ما أعده محمد بن عائض من وسائل الدفاع فان العثمانيين لم يظفروا من هجماتهم المتكررة عليها بطائل (٢) ، وعقد بعد ذلك القائدان رديف

---

(١) النعيمي ، تاريخ عسير ، ص ٢١٣ .

(٢) العقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ص ٥٨٥ .

باشا وأحمد مختار، اجتماعا بحثا فيه الحالة ، وتقرر أن يبحر الجيش الاحتياطى المرابط فى القنفذة الى ميناء الشقيق ومنه الى ريدة عن طريق تهامة بقيادة احمد مختار باشا (١) ، وذلك من ناحية الغرب ، ثم تقدم أحمد مختار من ميناء الشقيق ووالى زحفه الى أن عسكر غرب ريدة ، وبذلك أصبحت بين شقى رحا ، وهكذا شدد العثمانيون الهجوم على قرية ريدة من الشرق بقيادة محمد رديف ، ومن الغرب بقيادة أحمد مختار ، واستمر الهجوم خمسة أيام متوالية ، ضعفت بعدها مقاومة العسيريين فدب اليأس فى قلوبهم ، وأخذت الخيانة تلعب دورها بين أقارب الامير ، فخرج منهم من كان فى حصن شهران ، ثم استسلم آل مفرح ولم يبق الا القصر الذى تحصن به الامير ، فضعفت معنوية حرسه الخاص ورجاله المقربين ، وأحاط العثمانيون بالقصر من كل جانب فطلب أكثرهم الامان والاستسلام ، واضطر أخيرا الامير محمد بن عائض الى طلب الامان لنفسه وأهله فتعهد له بذلك ، وبموافقة أحمد مختار وتعهده بقبول شروط التسليم ، وسلم الامير نفسه ودخل العثمانيون القصر (٢) ، ويذكر الواسعى أن السلطان عبد العزيز أرسل جيشا لأخذ بلاد عسير ، وقد اتصل شريف مكة محمد بن عون - الذى نصب من قبل العثمانيين سنة ١٨٥٦م - مع أمير عسير محمد بن عائض ، وذلك بأن يسلم العسيرى بلاده للدولة العلية ، وأن أملاكه وخيوله وحصونه تحفظ ، وتخصص مرتبات له ولعائلته ، ولبعض الرؤساء المستحقين ، ويستخدم جميع من يستحق الخدمة فى الوظائف

---

(١) النعمى ، تاريخ عسير ، ص ٢٠٥ .

(٢) العقيلى ، تاريخ المخلاف السليمانى ، ص ٥٨٥ - ٥٨٦ .

العالية ولا يفضل عليه أحد ، فقبل الامير محمد بن عائض ذلك ، وبعد المخابرة من الشريف الى السلطان بذلك ، وصل شريف مكة الى عسير والجنود محاصرة لعسير ، فقدم الرسول وبيده فرمان السلطان خطابا للأمير محمد بن عائض جاء فيه " انك آمن بأمان الله ورسوله ، وانى قد قبلت جميع مطلبك الذى عرضت علينا بواسطة الشريف محمد بن عون ، وما عليك الا تسليم البلاد لرديف باشا ، وأموالك وخيولك وجميع أملاكك مع الحصن لا تمسها عساكرنا بسوء ، الا اذا لم تتبع أمرنا هذا السلطانى ، فلما اطلع محمد بن عائض على منطوق الفرمان كتب مختار باشا وكان محاصرا للقصر يقول فى مكتوبه : اننى دخلت تحت طاعة السلطان حسب الفرمان فقبل أحمد مختار باشا وتوجها الى رديف ليطلع على الفرمان ، وبينهما وبين رديف باشا ثلاث ساعات ، فلما وصلا اليه فى خيمته أمر فى الحال بقتل محمد ابن عائض . (١)

تفرغ بعد ذلك رديف باشا لتنظيم عسير ، فأخذ فى قتل العسيريين وتشريدهم ونفى كبارهم كوسيلة لتوطيد أركان الحكم العثمانى فى البلاد ، وأخذ فى القضاء على العراقيل التى تقف أمامه ، وكان قد نفى الى تركية فوق ستمائة رجل من رؤساء عسير ، وكان على رأسهم الشيخ العلامة رئيس قضاة عسير محمد بن عبد الخالق الحفظى ، وقام رديف باشا بتنسيق الادارة فى عسير ، متخذ من مدينة أبها مقرا

---

(١) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

للمتصرفية ،وجعل من مركز الشعبين مقرا لولاية رجال ألمع ،واتخذ من السقا وريدة قاعدة عسكرية لقواته ومن محائل نقطة انطلاق لجيشه الاحتياطي ،واتخذ النماص ولاية لبني شهر أما رغدان فجعلها ولاية لسراة غامد وزهران . وجعل ثغر القنفذة مرفأ لاقليم عسير، واتخذ من الشقيق نقطة اتصال للسواحل اليمنية ، وأخيرا جعل صبيا مركزا للمخلاف السليماني . (١)

وهكذا استطاع العثمانيون أن يسيطروا على عسير والمخلاف السليماني ، وضموها الى المنطقة الخاضعة لنفوذهم في تهامة ،واستولوا على كل مايملكه أمير عسيرمن خيل ونقود وأسلحة ومدافع وغير ذلك من الاحجار النفيسة . (٢)

وبعد أن فتح أحمد مختار باشا اليمن كما سنعرضه بعد في الفقرة التالية توجه الى عسير سنة ١٢٨٩هـ (١٨٧٣م) وتسلم دفة الحكم وظل مدة سنتين ثم وصل عثمان بك سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٥م) فأخذت الثورات القبلية تندلع ، وكان اشدها ثورة قبيلة قيس من رجال ألمع الذين امتنعوا عن دفع الضرائب ، فوقعت بين الطرفين مناوشات ،ازاءها جرد حملة عسكرية مجهزة بوسائل الحرب، فوقع قتال بينهم ،وفي أواخر سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٦م) تسلم حيدر بك متصرفية عسير لمدة ثلاثة أعوام وكانت الحالة هادئة نسبيا ،سوى أن هناك مناوشات من قبل

---

(١) النميص ،تاريخ عسير ،ص٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) الواسعي ،تاريخ اليمن ،ص ١٠٧ .

الاميرعلى بن محمد بن عائض فى بعض المراكز الواقعسة فى تهامة ، الا أن الوالى العثمانى استطاع أن يخمدها ، وبعدذلك تولى دفة الامارة احمد فيض باشا سنة ١٢٩٥هـ (١٨٧٩م) الذى اهتم بجمع الضرائب الباهظة للدولـة ، فأثار ذلك العسيريين ، الذين التفوا حول الاميرعلى بن محمد بن عائض ، وكان المحرك للثورة رجال ألمع الذين أشعلوا نار الثورة فى قرية شرمة ، وعلم الوالى فأسرع اليهم على رأس حملة عسكرية مجهزة بالمدافع والرشاشات ، فقابلوا الثوار فى سفوح الجبال ، وكانت المعارك دامية ، وأخيرا تقهقر الثوار الى قرية شرمـة فتعقبهم الجيش فى هجوم خاطف فأخذ يقذف القرية بنيران مدافعه فلاذ الثوار بالفرار ، ودخل الجيش العثمانى قرية شرمة ، وأخذ يتعقب الثوار حتى شتت شملهم ، وبعد ذلك وصل تحسين باشا الى الولاية سنة١٢٩٨هـ (١٨٨٢م) وباشر سلطته ، وكان عهده مثل عهد سلفه اذ كانت الغارات والاضطرابـات قائمة ، واستمر فى الولاية حتى سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٤م) فتولى الامارة رفعـت باشا ، وهدأت الاحوال فى عهده ، وبقى فى الحكم حتى سنة١٣٠٥هـ (١٨٨٩م) ثم تولى الامارة محمدأمين باشا الذى عرف بالحنكة والفراسة ، وقد انحصـرت جهوده فى صد هجمات المغيرين على المراكز العثمانية من القبائل العسيـرية وفى سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٣م) وصل يوسف باشا ، فأعاد للولاية هيبتها ، وأخـذ فى اختطاط وانشاء الدور للدوائر الحكومية ، ثم توجه أحمد امين باشا سنة١٣١٦ على رأس حملة عسكرية لاخضاع القبائل الثائرة فى اليمن على حكم الدولة فى أثناء ولاية احمد فيضى باشا بزعامة الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميدالديـن ،

عاد بعد ذلك محمد امين الى عسير وبقى حتى سنة ١٣١٧هـ (١٩٠٠م) ، وفى سنة ١٣١٨هـ (١٩٠١م) وصل موسى كاظم باشا ، وباشر سلطته ، الا أن الفوضى استمرت قائمة ، فاستبدل موسى باسماعيل حقى باشا سنة ١٣١٩هـ (١٩٠٢م) وهذا بدوره قضى على دواعى الفوضى ، فهدأت الحالة ابان ولايته ، وكان اسماعيل يتصف بالعدل والانصاف ، وفى سنة ١٣٢٢هـ (١٩٠٥م) أخذ الامير على بن محمد بن عائض فى الاستعداد لشن هجوم على الحامية العثمانية واتصل بزعماء القبائل التابعة للواء عسير محرضا على القيام بالثورة ، الا أن الحامية تمكنت من قطع خط الرجعة على من فى محلة مناظر ، فاستسلموا حيث وقعوا فى أيدى رجال الحامية ، وفشل هذا الهجوم من قبل الثوار ، واستمر حقى باشا حتى سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٧م) ، فوصل الى امارة عسير سليمان شفيق وباشر سلطته فى عسير ، وكان المخلاف السليمانى تابعا لمتصرفية عسير والأمن اذ ذاك مضطرب فى هذه الجهات بل فى لواء عسير بوجه عام ، فواجه الوالى العثمانى ظروفا عصيبة ، لاسيما عند اعلان الادريسى ثورته سنة ١٣٢٧هـ (١٩١٠م) (١) ، وكانت الحروب قائمة حتى بين القبائل ، اذ أشتعلت الحروب القبلية ونشب القتال بين أهل أبى عريش وأهل ضمد واستمرت حتى سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٣م) ، ثم بين المسارحة وأهل ابى عريش ، ومن الجانب الشرقى بين الحرث والمسارحة ، وفى الجنوب بين بنى شبيل والمسارحة ، وفى الجنوب الغربى بين الحكامية والحزم

---

(١) النميمى ، تاريخ عسير ، ص ٢١٧ - ٢٢٢ .

وفى الشمال بين أهل صبيا والجعافرة وظلت الفتن والحروب فى طول المخلاف وعرضه بين كل قبيلة والقبيلة المعاقبة لها ، وزاد الفتن والحروب ضراوة وقسوة ترخيص فرنسا بيع الأسلحة فى مستعمراتها ، ومن ميناء جيبوتى ، فنشطت تجارة الأسلحة فى تهامة وزادت مقاومتهم للعثمانيين ، وفى سنة ١٣١٩هـ (١٩٠٢م) ضرب الأسطول الايطالى موانئ البحر الاحمر العربية واستمرت الفوضى والفتن حتى سنة ١٣٢٧هـ (١٩١٠م) وقيام الادريسى (١) ، وكانت القوات العثمانية المرابطة فى هذه الفترة فى منطقة عسير ، ستة عشر طابورا فى محايل وثلاثة طوابير فى قوز أبوالعير وفى القنفذة ثلاثة طوابير وفى أبها عاصمة اللواء عشرة طوابير (٢) .

وهكذا يؤخذ من العرض السابق أن الدولة العثمانية استطاعت أن تفرض سلطتها على منطقة عسير والمخلاف السليمانى وساعدهم على ذلك افتتاح القناة ، كما تمكنت الحكومة العثمانية من أن تقف على مجريات الحوادث فى تلك المنطقة ، وقد قدمنا فى عرضنا هذا سرعة تغيير الولاة والمتصرفين على عكس الفترة السابقة ، وهذا يعود للحالة الجديدة التى أوجدتها قناة السويس بالنسبة لغربى شبه الجزيرة العربية .

---

(١) العقيلى ، تاريخ المخلاف السليمانى ، ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .

(٢) البركاتى ، الرحلة اليمانية ، ص ١٠٨ .

واستمرارا لسياسة الدولة من حيث بذل الجهد لتأمين الحجاز بعد افتتاح قناة السويس فقد رأت الدولة العثمانية أن تعود للسيطرة على اليمن خصوصا بعد أن رأت انجلترا قد وضعت قدميها فى عدن ، وأرسلت الدولة حملة سنة ١٨٤٩ احتلت الحديدة وبعض مناطق تهامة ، وقد مر بنا ذكر ذلك فى الفصل الاول ، وهذه الحملة كانت مرسلة عن طريق الوالى المصرى ، ووصلنا حتى تولى الامام على بن المهدى الامامة ، وكيف أنه أخرج العثمانيين من صنعاء ونعود الآن لتكملة الحالة التى كان عليها اليمن ، ففى سنة ١٢٧١ هـ تكاتفت قبيلة أرحب مع قبيلة بنى الحارث وهاجموا صنعاء ، ولما طالت الحرب والفتن بين صنعاء والقبائل الذين حول صنعاء ، اجتمع أعيان صنعاء ورؤساء بعض القبائل واتفقوا على خلع الامامين المتعارضين المتوكل على بن المهدى ، والمنصور محمد بن عبد الله الوزير ، وتنصيب السيد محسن بن أحمد الشهارى ولقبوه بالمتوكل الذى اتخذ من منطقة حدة مقرا له (١) ، واجتمع بعد ذلك الائمة المخلوعون وهم غالب بن محمد بن يحيى ، والعباس بن المتوكل ، واحمد بن عبد الله أبوطالب فى منطقة الروضة وأجمعوا رأيهم على تنصيب السيد غالب بن محمد ، ولقبوه بالهادى ، وتعهدوا بمساعدته ، وقام بالأمر غالب بن محمد ، وكان الأمر فى صنعاء للحاج احمد الحيمى ، وقامت الحرب بين الوزيرين الحيمى المذكور ، ووزير المتوكل الشهارى دامت شهرين ، وانتهت بالصلح ثم حدث اختلاف بين الامام الهادى

---

(١) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ٩١ - ٩٢ .

غالب بن محمد مع وزيره الحيمي ، مما حمل الحيمي على مراسلة الامام المخلوع علي بن المهدي الى دار سلم من سنحان ، احدى نواحي صنعاء ، وطلب وصوله الى صنعاء فلبى المهدي دعوته ، وعندما علم الهادي غالب بن محمد بذلك زحف بقبائله نحو صنعاء ، فأغلق الوزير الحيمي أبواب المدينة وتعذر على الامام الهادي الاستيلاء عليها ، ولكنه فرض الحصار واتجه الهادي الى خولان لجمع عددا آخر من القبائل ، الا أن المهدي خرج من صنعاء ، وأجمعت القبائل على خلعه مرة أخرى وحسم الخلاف بين الامام الهادي ونائبه الحيمي ودخل صنعاء ، وفي سنة ١٢٧٥هـ ، قام السيد حسين بن أحمد وتلقب بالهادي وذلك في بلاد الطويلة ، ودخل صنعاء سنة ١٢٧٥هـ الا أن أهالي صنعاء حاصروه في قصر الامارة ثم أخرجوه من صنعاء ، ونصبوا الشيخ محسن بن علي معيض شيخا على صنعاء ، وأعلن معيض ولاءه للمتوكل محسن بن أحمد الشهاري الذي كان مايزال مقيما في منتزه سنحان ، وبايعه ووصل اليه وانتقل معه الى حصن ذي مرمز من بني حشيش ، وأناب المتوكل عنه في صنعاء السيد محمد بن قاسم الحوثي ، الا أن الشيخ محسن معيض لم يلبث أن خرج عن طاعة الامام المتوكل الشهاري ، واستدعى الى صنعاء الامام الهادي حسين بن أحمد ، في حين تقدم الامام المتوكل محسن بقواته من القبائل ، وحاصر صنعاء ، واضطر الامام الهادي الى الخروج منها ، ثم تصالح مع الشيخ محسن معيض ، وكان من بنود الصلح أن تكون الخطبة له في صنعاء ، وأن يكون شيخ صنعاء وقاضيها منهم وصار الامام المتوكل يتنقل بين

سناع وحزيز وهط لا يبعدان عن صنعاء دون أن يدخلها (١) ، ومن خلال ذلك يتبين أن اليمن وصنعاء بالذات كانت تعيش فترة قلقة مشحونة بالاضطرابات والمنازعات بين الائمة المتنازعين فيما بينهم وبين القبائل الذين ظلوا يلعبون دورا ايجابيا فى زيادة البلبلة ، وعدم الاستقرار ، ثم لما عظمت الفتنة فى صنعاء وخارجها من فساد القبائل وعتوها ، كتب الامام على بن المهدى والامام غالب ابن محمد بن يحيى والسيد حسين بن المتوكل ومن العلماء والرؤساء الى السلطان عبد العزيز بواسطة شريف مكة ، حيث أن القبائل حول صنعاء قد شقوا عصا الطاعة واستبدوا بالبلاد وعاثوا فيها فسادا ، ورجوه أن يمدهم ببعض من العساكر (٢) ، وكانت قناة السويس قد شجعت الدولة العثمانية على اعادة النظر فى سياستها العربية بقصد تقوية نفوذها فى الجزيرة العربية فأرسل الباب العالى رؤوف باشا على رأس قوة حربية لضم اليمن الى الدولة ، وقد تمكنت القوات من النزول فى الحديدة ، الا أن رؤوف باشا مرض ، (٣) وكانت عسير كما مر بنا قد سقطت فى يد الدولة ، فزحفت القوات العثمانية بعد ذلك الى صنعاء حسب أوامر من الباب العالى وكانت بقيادة القائد احمد مختار الذى جهز بجيش كامل يعرف بالفيلق السابع ، (٤) ثم توجهت قوات احمد مختار من الحديدة الى صنعاء

---

(١) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ٩٢ - ١٠٦ .

(٢) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٠٨ .

(٣) جاد طه سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٢٠٩ ، ومصطفى سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص ٣٢ .

(٤) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥٠ .

حتى وصل الى عصمتارة الواقعة فى بلاد حراز فى الجانب الغربى من مناخة، حيث اصطدمت قواته مع أتباع الدعوة الباطنية ، الذين اتخذوا من عطارة مركزا لتجمعهم ، وقد منى أتباع الباطنية بالهزيمة أمام القوات العثمانية واستسلم زعيمهم (١) ، ثم التقى وفد الامام على بن المهدى بالقائد العثمانى أحمد مختار فى مناخة ودعوه الى دخول صنعاء" حسب أمر السلطان ليربى العصاة والمتمردين وبعد تربيتهم يرجع من حيث أتى فهز لهم رأسه ، وتكلم بكلمات تركية لا يفهمونها فظنوا أن الامر كما يريدون ، فلما وصلوا الى تقيل عصر غربى صنعاء بمسافة نصف ساعة خرج الامام على بن المهدى والامام غالب بن محمد ، وحسين بن المتوكل وغيرهم من الأشراف والعلماء والروءساء ، ثم طلب أحمد مختار باشا من الامام على بن المهدى وسائر الأشراف والعلماء بواسطة رئيس صنعاء الشيخ محسن معيض المعاقل المحيطة بصنعاء خصوصا القصر المسمى غمدان فسلموها وغفلوا عنها (٢) وكان وصول العثمانيين فى السادس عشر من شهر صفر سنة ١٢٨٩ هـ الموافق ٢٦ ابريل سنة ١٨٧٢م ثم انقسم الجنود قسمين قسم بقى فى مكان يقال له وهب جنوب صنعاء ، وقسم استولى على بقية المعاقل نحو قصر غمدان وأبواب صنعاء والتى كان عددها عشرة ، (٣) وكان من العوامل التى ساعدت الحملة العثمانية على دخول صنعاء ذلك أن أهلها ضاقوا ذرعا من المنازعات التى لا تنقضى بين الائمة الزيدية ، وبين منافسيهم على الامامة وكانوا فى الوقت نفسه

---

(١) فاروق اباظه ، الحكم العثمانى لليمن ، ص ٨٨ . (٢) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٠٩ . (٣) المصدر السابق ص ١١٠ .

يرغبون فى العيش فى سلام (١)، ثم لما تمكن أحمد مختار باشا من قبض المعاقل ووضع العسكر فيها طلب الدفاتر من الامام على بن المهدى ثم استشار الامام وزراءه وكتابه وسائر الاشراف، فأشاروا اليه بعدم تسليم ذلك، لأنه بعد تسليم الدفاتر وقبض المعاقل يحصل اختلال البلاد، اذ باطلاع الوالى على الدفاتر يعرف ادارة البلاد ومصادرها وايرادها، ومعرفة ذلك يكون سببا لملك البلاد بعد قبض المعاقل، وهذا خلاف ما كتبوا للسلطان، وأن طلب الامام والاشراف والمشايخ للأتراك انما هو لقمع الثائرين العصاة وقبض المعاقل والدفاتر خلاف المراد، ويفهم من هذا الغرض الاستيلاء على البلاد، ثم ان الشيخ محسن معيض أشار على الوالى قبل الاطلاع على الدفاتر أن يضرب الرجل الشقى المسمى المدفعى، وكان هذا يقيم فى شعوب شطال صنعاء بعشر دقائق، وقد لقى الناس من هذا الشقى أنواعا من العذاب نهبا وقتلا وفى ذمته نفوس كثيرة من الأشراف أو غيرهم، وأن الوالى العثمانى اذا أخذ هذا الشقى استجلب قلوب العامة والخاصة وتسلم اليه الدفاتر وبعد ذلك تكون البلاد جميعها تحت يديه ويشكل حكومة حسب رغبته، وكتب أحمد مختار للمدفعى، يدخل تحت الطاعة وظن ان تحصنه فى بيته يدفع عنه قوة الجنود والمدافع، ولم ينظروا ما حصل لأمير عسير، ولم ينفعه جمعه الكثير وما كان له من القوة، فلما عرف الوالى العثمانى تمنعه وعصيانه أخرج له شرذمة من العساكر، وأخذ المدفعى مع ماله فحصل للناس السرور، وبعد هلاك هذا الشقى رجفت القلوب هيبة للجنود السلطانية، وسار الامن فى جميع الربوع اليمانية، ثم بعد ذلك طلب الوالى الدفاتر لمعرفة العشور اليمانية وأن ليس له طمع فى ولاية اليمن، بل

---

(١) سيد رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية، ص ٨٥ .

لتربية العصاة المتمردين (١)، ثم تسلم الوالى الدفاتر وبعد تسلمها شكل حكومة، فى مدينة صنعاء لتسيير دفة الحكم فى ولاية اليمن التى أصبح مختار باشا واليا عليها من قبل السلطان العثمانى عبد العزيز سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢م) وحاول أحمد مختار أن يجذب اليه قلوب العامة من اليمنيين دون الخاصة حتى يحببهم فى النظام العثمانى الجديد، وقام بطرد الموظفين اليمنيين، وعين فى وظائفهم مأمورين من الأتراك حتى يكونوا أداة طيعة فى يده لتدعم الحكم العثمانى فى البلاد، أما بالنسبة للامام فقد عرف العثمانيون مكانته الروحية بين أتباعه الزيديين، ورأوا أن يسمحوا له بالاقامة فى صنعاء مع منحه معاشا شهريا بشرط أن يقتصر نشاطه على ممارسة نفوذه الروحى بين أتباعه بما لا يتعارض مع مصالح الحكومة العثمانية فى الولاية، (٢) ثم أخذ أحمد مختار فى توطيد الامن والقضاء على الخلافات وبعد انقضاء أربعة أشهر توجه من صنعاء موسى كاظم باشا وفضلى باشا على رأس قوة عسكرية عثمانية للسيطرة على كوكبان الواقعة فى شمال غرب صنعاء، وكان يحكمها الامام الزيدى أحمد بن محمد شرف الدين كما كان يحكم المنطقة الممتدة غرب كوكبان حتى حدود تهامة وقد أخذ الامير يدعم الحصون التابعة له فى جبل كوكبان، وذلك عندما سمع بهجوم العثمانيين الذين حاصروه سبعة أشهر وتمكنوا من السيطرة على المنطقة بأكملها بعد أن نشب

---

(١) الواسعى، تاريخ اليمن، ص ١١٠ - ١١١.

(٢) فاروق أباظه، الحكم العثمانى لليمن، ص ٩٥.

بين الجانبين معارك دامية استسلم فى نهايتها أمير كوكبان ، وقتل فيها أخوه وقائد جنده ، (١) وهكذا تمكن الحكم العثمانى من الوصول الى صنعاء والقضاء على الخلافات الناشبة فيها وما حولها ، ولكن أخفق الحكم العثمانى فى بسط نفوذه على الجهة الشمالية التى ظلت تحت حكم المتوكل المحسن بن أحمد الى أن توفى سنة ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) فخلفه الامام الهادى شرف الدين بن محمد (٢) كما أن السيطرة العثمانية لم تصل الى شرقى اليمن الأعلى ولا جنوب اليمن الاسفل حتى أن مأرب ، وصعدة ونجران وشهارة ، وقفلة عذر ، وما حولها من القبائل شديدة البأس مثل حاشد وبكيل وأرحب وذرحسين وأمثالها ظلت تحت الائمة والمشايخ المحليين (٣) ، ولقد تتابع الولاة العثمانيون على اليمن بعد أحمد مختار على النحو الآتى : أحمد أيوب ١٢٩٠-١٢٩٣هـ (١٨٧٣-١٨٧٦م) وفى عهده ثارت قبيلة خولان فخرجت من صنعاء فرقة استطاعت أن تخمد الثورة وتدخل القبيلة تحت الطاعة (٤) ، ثم يأتى مصطفى عاصم ١٢٩٣-١٢٩٥هـ ، ١٨٧٦-١٨٧٨م الذى اتخذ سياسة جديدة اتسمت بمزيد من الشدة والقسوة ومن ذلك أمر باعتقال عدد من كبار علماء صنعاء وسجنهم فى الحديدة ، ومن ضمنهم رئيس العلماء ، أحمد محمد الكبسى ، ومحمد بن قاسم الحوثى ، ومحمد

---

(١) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١١٢ .

(٢) احمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٥ .

(٣) فاروق أباظه ، الحكم العثمانى لليمن ، ص ٩٥ .

(٤) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١١٧ .

ابن اسماعيل ، وعلى الجديرى ، ومحمد المطاع ، ومحمد بن يحيى حميد الديـــن الذى مهد لثورة عارمة (١) ، والذى لقب بالامام المنصور ، وذلك بسبب ولائهم للامام المتوكل محسن بن أحمد الشهارى ، ثم يأتى حافظ اسماعيل حقى ١٢٩٥ - ١٢٩٩ هـ (١٨٧٨ - ١٨٨٢ م) الذى اتصف بالعدل والاستقامة ، ومن أهـــم أعماله انشاء أربعة طوابير أو ألوية فى الجيش من اليمنيين ودربهم أحسن تدريب عسكرى ، ولكن الحكومة العثمانية ألغت هذه الطوابير ، وعزلت الوالى لأن ذلـــك فى اعتقادها يساعد على تقوية مركز اليمنيين (٢) . أما سعيد عزه باشـــا ١٢٩٩ - ١٣٠٢ هـ (١٨٨٢ - ١٨٨٥ م) فقد سعى الى التقريب بين الاتراك واليمنيين ، الا أنه لم يستطع أن يضع حدا لنضال اليمنيين ضد العثمانييـــن وتوفى بعد ذلك فتولى الولاية أحمد فيضى باشا ، ولكنه لم يستمر فى الولاية سوى سنة واحدة اذ استعمل القسوة فى معاملته للناس ، وكان قبل ذلك متصرفا فى عسيـــر ، ويذكر الواسعى أنه أرسل الجنود الى همدان وأمرهم بالهجوم على كل بيت فيـــه حبوب ، وذلك بسبب المجاعة التى مرت ببلاد اليمن ، وأخيرا أرسل أحمد فيضـــى الى مكة قومندان (٣) ، وعين عزيز باشا ١٣٠٣ - ١٣٠٥ هـ (١٨٨٦ - ١٨٨٨ م) الذى أزال الجور عن الناس ومنع الرشوة بين الموظفين العثمانيين وحارب الامام

---

(١) أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٥ .

(٢) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥١ .

(٣) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ١٢١ .

الهادى شرف الدين بن محمد فى معركة قامت بينهم فى جبال عيال يزيد ، واستطاع اليمنيون أن يسجلوا انتصارا ، وقد أرجع العثمانيون أسباب الهزيمة الى عدم اخلاص عبد الله بن أحمد الضلعى الذى يعرف بعبد الله باشا ، وكان عضوا فى المجلس الحاكم فى اليمن ، ثم يأتى عثمان باشا ١٣٠٥ -١٣٠٧هـ (١٨٨٨ - ١٨٩٠م) الذى انتهج سياسة الارهاب وأشاع أخذ الرشوة ، واعتقل عبد الله الضلعى الآنف الذكر وأرسله الى مدينة عكا فى فلسطين ، كما اعتقل القاضى يحيى بن أحمد المجاهد صاحب تعز ، الا أن هناك أوامر سلطانية صدرت بالافراج عنه ، ثم يأتى عثمان نورى باشا سنة ١٣٠٧هـ (١٨٩٠م) الذى وصف بالاستقامة والتواضع ولقب بالفقيه ، ولكن كبار موظفى العثمانيين فى اليمن عملوا ضده فعزل من منصبه فى نفس العام (١) ، وسوف نكمل ذكر الولاة الذين فى عهدهم قامت الثورة اليمنية ضد الحكم العثمانى فى فصل لاحق .

وهكذا وبصفة عامة فان الائمة فى صنعاء لم يشعروا قط بالهدوء والسكينة منذ أن أعيد تثبيت الحكم العثمانى لليمن سنة ١٨٧٢م ، اذ وجد الائمة الزيدية فى فترة من الفترات أنه من السياسة والحكمة احترام السلطان الخليفة على الرغم من الاختلافات المذهبية فيما بينهم ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا تماما معاشرة الموظفين العثمانيين الذين يرسلون الى بلادهم أو مشاركتهم (٢) ، كما

---

(١) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥٢ .

(٢) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ١٢٠ .

نلاحظ أن الولاة العثمانيين لم يسيروا فى حكمهم على وتيرة واحدة ، بل نجدهم يديرون البلاد على حسب الحالة الموجودة ، لذلك نلاحظ اختلاف المعاملة بين الولاة واليمنيين ، كما نلاحظ أيضا سرعة تغيير الولاة فى بعض الاحيان ، كل ذلك التحكم يعود لأثر قناة السويس التى ساعدت الدولة فى فرض السيطرة على هذا الاقليم ، وانصرف العثمانيون الى تنظيم شئون اليمن ، فقسموها الى أربعة ألوية وهى صنعاء والحديدة وعسير وتعز ويمثل الجدول الآتى عدد الأقضية والقرى التابعة لكل ولاية من الولايات السابقة :-

اللواء	قرى	نواح	قبائل	عزب	قرى
صنعاء	٨	٢٦	-	١٠٣	٣٦٧٢
الحديدة	٨	١٦	٣٨	١٧٣	-
تعز	٥	-	-	-	٢٦٦٧
عسير	٦	-	٣٤٣	-	-
المجموع	٢٧	٥٤	٣٨١	٢٧٦	٦٣٣٩

(١)

واتخذ العثمانيون من مدينة صنعاء مقرا للوالى العثمانى (٢) ، ويصدر

(١) ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ٨٦ .

بتعيينه فرمان من الباب العالى الذى لا يحدد مدة ولايته ، ويتبع هذا الوالى ألوية اليمن الأربعة ، والمتصرف يمثل الوالى فى حدود اللواء الذى يحكمه ويرجع اليه فى مختلف الأمور وكان يتبع المتصرفين قائمقامون للأقضية التى كانت تنقسم اليها الالوية ، ويلى هؤلاء المديرون الذين يبسطون نفوذهم على مناطق محدودة داخل الأقضية ولم يكن النفوذ العثمانى ممثلا فى المناطق اليمنية التى لا يمكنه فيها حماية ممثليه العثمانيين ، حتى أن كثيرا من الأتراك المكلفين بمهام ادارية أو دبلوماسية فى المناطق النائية داخل الولاية كانوا يتعرضون لصعاب جمة ، وقد اشتمل كل لواء من ألوية اليمن الاربعة على عدد من المدن الهامة ، فلواء صنعاء كان يضم حراز ، وحجة وذمار ، ويريم ، ورداع ، وعمران ، بينما يضم لواء الحديدة : زبيد ، واللحية ، زالزيدية ، وريمة ، وبيت الفقيه ، وباجل وأبى عريش ، واشتمل لواء عسير على أبها والقنفذة ، وكان لواء تعز يضم أب ، والحجرية ، ومخا ، وقعطبة ، (١) ومن ذلك يتضح أن الدولة العثمانية حاولت تطبيق نظام الولايات الصادر سنة ١٨٦٤م فى اليمن ، الا أنها لم تطبقه بالكامل لأن لليمن ظروف خاصة اتضحت من عرضنا حتى الآن ، وأرادت الدولة العثمانية أن تدخل كثيرا من وجوه الاصلاح ولكن نفوذ الامام وعناصر المحافظين كانت تقف حجر عثرة أمامهم ، وزاد ذلك من سوء الموقف الداخلى ، اذ أخذ الائمة يثيرون القبائل على حكم العثمانيين ، حتى اتصف حكمهم بالحروب وقمع الثورات ، واستخدام القوة فى كثير من الاحيان ، وزاد الحالة سوءا ان كثيرا من الولاة العثمانيين كانوا

---

(١) فاروق أباظه ، الحكم العثمانى لليمن ، ص ١٠٥ .

يعتبرون تعيينهم فى اليمن نفيا لهم ، فكانوا لا يأبهون لصالح البلاد ، كما كان بعضهم يقضى وقته فى جمع المال أو فى الانصراف الى الملذات ، ومع ذلك فهناك ولاة قاموا بأعمال جليلة ، واتصفوا بالعدل والحب للشعب اليمنى واهتموا بشأنه ، ومع ذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أن الدولة حرصت على ادخال الاصلاحات الحديثة بانشاء المدارس والمستشفيات وأقاموا المساجد كما أدخلوا نظام التلغراف (١) ، وأقاموا بعض الثكنات العسكرية ، ثم بدأوا ببناء سكة حديد من شمال الحديدة فى اتجاه صنعاء ، ولكنهم أوقفوا العمل فيه عند باجل . وعلى بعد بضعة كيلومترات (٢) كان بعض أولئك المصلحين يريدون دفع البلاد الى الامام لتسير مع الزمن ، ولكنهم كانوا اذا فعلوا ذلك وجدوا من يتهمهم من أهل اليمن بخروجهم عن الدين . (٣)

وهكذا يتضح من العرض السابق للحالة التى كان عليها اليمن بعد افتتاح قناة السويس ، اذ أعيد تثبيت الحكم العثمانى وعاد لليمن الهدوء والسكينة ، وأصبحت الدولة على اطلاع دائم بأحوال اليمن الداخلية ، واستطاعت أن تعين الولاة على حسب الحالة التى كانت عليها البلاد ، وحاولت كذلك أن تطبق نوعا

---

(١) احمد فخرى ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٦٤ .

(٣) احمد فخرى ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٦٠ .

من نظام الولايات ، وهذا يعود لقناة السويس التي سهلت الاتصال السريع بتلك المناطق ، بالاضافة الى خطوط التلغراف ، وجاء تثبيت نفوذ الدولة في عسير ثم في اليمن بمثابة خطوط تأمين للحجاز ، أو بمعنى آخر تأمين لمركز الدولة في الاماكن المقدسة الاسلامية .

بعد استيلاء القوات العثمانية بقيادة احمد مختار باشا على صنعاء وعمران وكوكبان ، بالاضافة الى منطقة الجنوب ريمة وتعز ، اتبع احمد مختار القسوة فى معاملة اليمنيين ، وذلك بقصد القضاء على المقاومة ودعم النفوذ العثمانى ، واستتب الامر بالفعل للعثمانيين فى اليمن فترة من الزمن ، وأراد العثمانيون أن يستغلوا فترة الهدوء السائدة فى اليمن فى ذلك الوقت ، وأن يتجهوا نحو الجنوب ، اذ طمعوا فى جحاف الهضبة الجميلة التى تكثر فيها المحاصيل ، ويوجد بها نحو ٣٦٠ بئرا ، وارتفاعها عن سطح البحر يقارب ثمانية آلاف قدم ، وتطل على نجد الضالع من جهة الشرق ، وفى المدى المقابل تظهر فى الأفق مرتفعات جبل حرير الشاهقة والمماثلة ، بينما يطل الشمال على أصقاع حصبة ، ومن خلفها تقف سلاسل جبال صفا وراء صف ، والى الجهة اليسرى من الناحية الامامية تداعب الرياح سطح المياه الفضية التى تعكس ضوء الشمس من نهر تيبان الخصيب الذى وصل ذات يوم الى البحر مارا بالشيخ عثمان (١) ، ومن أجل ذلك رأت الدولة ضرورة احتلال تلك المناطق بالاضافة الى انهاء الوجود البريطانى فى تلك المنطقة ، ومع بداية يناير طفق التدخل العثمانى فى جنوب الجزيرة العربية يزداد تبلورا ، وقلق سلطان لحج من احتمال هجوم كبير يجرى على أراضيه ، واعتبرت الحكومة البريطانية أن هذا الاجراء اذا ما حدث

---

(١) هارولد .ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ٩٣ .

فسوف تعتبره خطرا على مصالحها فى عدن (١) ، وكان ايرال جرانفيل Granville وزير الخارجية البريطانى يعتقد أن الباب العالى لن يقوم بأية اجراءات عدوانية ضد سلطان لحج الا بعد الاتصال بالحكومة البريطانية ، وطلب جرانفيل من السير اليوت Elliot السفيرالبريطانى فى الاستانة أن يبلغ الباب العالى " أنه من الخطورة بمكان حدوث أى تدخل من جانب السلطات التركية فى هذه المنطقة ضد حكام أصدقاء بريطانيا العظمى وحكومة صاحبة الجلالة تكره أى حدث يزعج المنطقة . (٢) وبناء على تلك التعليمات اجتمع السير اليوت Elliot بخليل باشا وزير خارجية الدولة العثمانية الذى أكد له بأنه لن تحدث أى عملية توسعية بجوار عدن دون تعليمات من الباب العالى الذى لن يعطى مثل هذه التعليمات دون الرجوع الى الحكومة البريطانية ، وأشار خليل باشا من ناحية أخرى الى أن الباب العالى يعتبر لحج جزءا من الاراضى اليمنية التى كانت فى ذلك الوقت خاضعة تماما لسيادة السلطان وأضاف خليل باشا أن التفاصيل سوف تبلغ بها حكومة جلالة الملكة التى على أية حال يجب أن تلاحظ مراعاة الدولة العثمانية للادعاءات البريطانية (٣) ، ويلاحظ أن لهجة الباشا كانت

---

1. C.R.T.P. No:1 Earl Granville to Sir Elliot Jan 1,1873.
2. C.R.T.P. No:2 Earl Granville to Sir Elliot Jan 23, 1873.
3. C.R.T.P. No:3 H.Elliot to Earl Granville Jan 3, 1873.

حازمة ، وشملت التعهد بعدم القيام بأية عمليات توسعية فى منطقة جنوب الجزيرة العربية دون الاتصال السابق بالحكومة البريطانية ، وليس من الحكمة افتراض ادعاء الباشا أحقية الباب العالى فى استدعاء رؤساء المنطقة لتقديم ولائهم له ، لأن أرض اليمن تابعة لسلطة الباب العالى ، ثم أكد جرانفيل للسير اليوت Elliot بأن يوضح للباب العالى بأن الحكومة البريطانية سوف تنظر بعدم الارتياح لأية عمليات تقوم بها السلطات التركية فى اليمن من شأنها ازعاج المناطق المجاورة لعدن .

وكان نتيجة للهجة خليل باشا ضرورة اخطار الحكومة التركية بأن المشكلة ليست مشكلة تلك الاراضى التى تحتلها الحكومة البريطانية فى عدن ، وأن ليست هذه الحكومة فى حاجة الى تأكيد احترامها من جانب الباب العالى ، بل ان المسألة هى وجوب منع السلطات التركية فى اليمن من التدخل فى شئون سلطان لحج والرؤساء العرب الآخرين فى المنطقة الذين بينهم وبين الحكومة البريطانية علاقات ودية بزعم أن اليمن تابعة للباب العالى ، وأن هؤلاء الرؤساء يعيشون فى أرض تابعة لولاية اليمن ، وهم بذلك يعتبرون رعايا للباب العالى ، واستمر جرانفيل Granville يوضح وجهة نظر الحكومة البريطانية فى التعليمات المرسلة للسير اليوت Elliot " وأيا كانت حقوق الباب العالى فى السيادة على اليمن فانه من المعروف أن اليمن منذ سنة ١٦٣٣م كانت تحت حكم رؤساء عرب مستقلين عن الباب العالى و حكومة جلالة الملكة لا ترغب فى مناقشة هذه

المسالة بصفة عامة ولكنها تود أن يحاط الباب العالى علما بأن حكومة جلالة الملكة ترغب فى احترام استقلال الرؤساء الوطنيين المقيمين بجوار عدن وأن حكومة جلالة الملكة لن تقف مكتوفة الايدى اذا ما حدثت أية محاولة للانتقاص من سيادتهم" (١) .ونفذ السيراليوت Elliot التعليمات الصادرة اليه من وزراء الخارجية البريطانية وأعد مذكرة للاتصال بالباب العالى ومناقشته بخصوص العلاقات بين سلطان لحج وحكومة عدن (٢) ،وقد جاء فى تلك المذكرة أن لحج التى تقع داخل خمسة عشر ميلا من نطاق نقط الحدود العسكرية لعدن وهى المدينة الرئيسية التى تسيطر على البلد كلها ومنها تأخذ عدن جميع امداداتها من الحبوب والعلف والماء وغير ذلك ،وأن سلطانها يتقاضى راتبا شهريا من الحكومة البريطانية نظير قيامه هو وشعبه بامداد عدن وجعل الطريق مفتوحة بين سلطنته والمناطق المجاورة لها وأن سلطان لحج هذا لم يكن أبدا تحت سلطة الباب العالى ،وقد حدث منذ عدة شهور ، وبعد أن ترأس المشير أحمد مختار حكم مدينة صنعاء التى تبعد مالا يقل عن ١٠٠ ميلا ،دعا سلطان لحج ليحضر اليه ،ثم أعد بعد ذلك العدة ليهاجم هنتاش التى تقع أسفل عدن ولقد أجاب سلطان لحج حاكم صنعاء بأن ولاءه للحكومة البريطانية حيث يتقاضى منها راتبا شهريا ،هذا ولم تكن هناك اجابة أو اهتمام

---

1. C.R.T.P. No.4 Earl Granville to Sir H.Elliot Jan 30,1873.
2. C,R.T.P. No.5 Sir H.Elliot to Earl Granville Jan 24,1873.

من الباشا حاكم صنعاء ،كتعقيب على رد سلطان لحج ،ولكى يكون واضحا فانه لم يكن هناك أى ظل للسلطة على أى من هذه الجهات للدولة العثمانية ومن ثم فانه لم يكن يوجد أى مبرر لمحاولة الباشا اعادة السيطرة على المناطق التى تحيط بعدن (١) ، ولكنه يبدو أن سياسة الدولة بعد افتتاح القناة هى محاولة للقضاء على النفوذ البريطانى ،وقد وافق جرانفيل Granville على مذكرة أعدها السير اليوت Elliot لتقديمها للباب العالى (٢) ،وفى ٣ فبراير أبلغ السير اليوت Elliot الصدر الاعظم بامتنانه لتأكيدات خليل باشا بعدم القيام بأية اجراءات ضد سلطان لحج قبل الرجوع والتفاهم فى ذلك مع الحكومة البريطانية ،فأجاب الصدر الاعظم بأنه قد فوض وزير الخارجية التركية تفويضا كاملا بالنسبة لهذا الموضوع ،ولكى يزيد الامر تأكيدا اتخذ مجلس الوزراء التركى قرارا بذلك ووضع تحت تصرف السلطان وقد أبدى السير اليوت Elliot عند مقابلته لخليل باشا شكره الجزيل لما قاله الصدر الاعظم الا أن خليل باشا علق على ذلك بأن مجلس الوزراء قد فوضه فعلا بالنسبة لهذا الموضوع ،الا أن مجلس الوزراء قرر فى نفس الوقت أن يبذل وزير الخارجية جهده للحصول على موافقة الحكومة البريطانية بأن يقدم سلطان لحج خضوعه الاسمى

---

1. C.R.T.P.,Enclosure 5.Memarrdum Jan 24, 1873.
2. C.R.T.P. No.6 Earl Granville to Sir H.Elliot Feb.15,1873.

للسلطان دون أن يلتزم بدفع أية ضريبة لخزانة الدولة العثمانية أو تقديم أية خدمة لها ، وأجاب اليوت على ذلك بأنه يأمل ان لا يقدم هذا الاقتـــراح للحكومة البريطانية لأنه متأكد تماما بأنه ليس هناك احتمال لقبوله ،كما أشار اليوت Elliot الى أن مشكلة الارض المتنازع عليها ليست أمرا جديـــدا ، فمنذ سنة ١٨٣٩م عندما كان والى مصر مسيطرا على اليمن فانه اعترف بـــأن الجبال الواقعة شمالى سهل لحج تشكل حدود اليمن ،وأضاف اليوت Elliot أن " حكومة جلالة الملكة لن تقف مكتوفة الايدى أمام أى ضغط على القبائـــل المستقلة والتى تقطن المنطقة الواقعة قرب برزخ باب المندب " ويبدو أن الباب العالى لم يكن يود أن تسود العلاقات بينه وبين الحكومة البريطانية ، وفى نفس الوقت كان راغبا فى اختيار أفضل وسيلة للتراجع بعد الموقف الذى وضعتـــه فيه الاجراءات التهديدية لوالى صنعاء " . ولا ريب أن هناك خوف من أن أى تنازل من جانب السلطان قد يكون مظهرا من مظاهر الضعف وانتقاص سلطته على الاقاليم المعترف له فيها بالسلطة" (١) ،ويبدو أن هذه الاجراءات كان لهـا أثرها اذ وضع الباب العالى سياسة على أساس عدم القيام بأية عملية عدائيـــة ضد الرؤساء العرب فى المنطقة المجاورة لعدن (٢) ،كما أبلغ الصدر الاعظم السير اليوت Elliot أنه أصدر أمرا للحاكم العام لليمن بأن يكف عن التدخل

---

1. C.R.T.P. No.4 Sir H.Elliot to Earl Granville Feb.12,1873.
2. C.R.T.P. No.8 Sir H.Elliot to Earl Granville Feb.12,1873.

فى شئون حاكم لحج أو مضايقته ، وأن يترك الأمور تسير فى المنطقة المجاورة لعدن كما كانت فى السابق (١) ، وكان الباب قد تذرع للسير اليوت Elliot بأن سلطان لحج هو الذى حاول الاتصال بحكومة السلطان دون أن يطلب منه ذلك . (٢)

تطورت الأمور تطورا جديدا مع بداية شهر مايو سنة ١٨٧٣م اذ وصلت أنباء الحاكم الهند العام بأن الوالى العثمانى فى تعز أرسل الى الوكيل التركى فى عدن بأن المشير فى صنعاء أمر بمنح سلطان الحوشبى راتبا شهريا قدره ٥٠ ريالا ، كما أصدر تعليماته بأن تتقدم قوة عثمانية الى بلاد سلطان الحوشبى لحماية بلاده ، واذا كان ذلك قد حدث فعلا فانه يكون معارضا لتأكيدات خليل باشا . (٣) وقد تساءل الحاكم العام للهند عن أحقية الحكومة البريطانية فى وضع تلك الاقاليم التى هى تحت حمايتها ، وما يجب أن تقوم به حكومته بالنسبة لادعاء الحكومة العثمانية ، وكذلك بالنسبة للاقاليم نفسهما . وكان الحاكم العام للهند يرى أن الحكومة البريطانية تبنى احقيتها فى وضع رؤساء هذه الاقاليم على أنها مستقلة عن السيطرة والنفوذ التركى منذ القرن الماضى ، وأن الحكومة البريطانية قد دخلت فى علاقات وطيدة مع هذه الاقاليم

---

1. C.R.T.P.No.10 Sir H. Elliot to Earl Granville Feb.14,1873.
2. C.R.T.P.No.12 Sir H. Elliot to Earl Granville Feb.14,1873.
3. C.R.T.P. Enclosure in No.13, The Victory to the Duck, May 19, 1873.

بدون الرجوع الى الدولة العثمانية أو أية قوة أجنبية أخرى ويمكن القول أن هناك ارتباطات حديثة يمكن أن تتخذ ذريعة لتسويغ ذلك ، ومن ناحية أخرى فقد كان الحاكم العام للهند يرى الاجراءات الحالية التى يتخذها المسئولون الاتراك تعتبر ضارة للمصالح البريطانية ولهذا يمكن أن تكون هناك أرضية جيدة لمثل هذه الارتباطات من قبل الحكومة البريطانية مع حكام هذه الاقاليم، وتمسكنا بهذه الارتباطات هو لصالح الامن والسلام ، ولن يكون هناك بعد ذلك أى اعتراضات يمكن أن تقدم تجاه احتلالنا لتلك المناطق " ومما يذكر أن العبدلى حاكم أهم وأكبر اقليم فى هذه المنطقة قد طلب المساعدة والحماية البريطانية .

ومع أن حكام تلك الاقاليم قد حققوا أنواعا من الاستقلال ، فانهم ليسوا تحت سيطرة الحكومة البريطانية ولكن الحكومة البريطانية منحتهم منذ بضع سنين رواتب ، وكانت تتدخل فى فض النزاع الداخلى بين تلك الاقاليم ، ولقد كانوا ينظرون لحاكم عدن على أنه صديق وناصح أمين فى جميع قضاياهم ، ومشاكلهم أما بالنسبة للظاهرة الثانية والتى تتمثل فى حق الحكومة البريطانية فى تلك الاقاليم تجاه حكام الاقاليم أنفسهم يمكن أن يلاحظ أنه بينما نعتبر أنفسنا أحرارا فى عدم فرض اجراءات نحو هؤلاء الحكام العرب ، فاننا نرى أنه من الضرورى ، ولصالح ممتلكاتنا فى عدن أن نكون بعيدين تماما من فرض أية اجراءات قهرية ، ويمكننا أن نقول أن حماية مصالحنا وأهدافنا تتطابق مع وجهة نظرنا مع مصالح وأهداف حكام الاقاليم العرب وأشار الحاكم العام للهند الى أنه يجب مد الحماية

البريطانية لتشمل مناطق العبدلى والفضيلى والعقربى ، والحوشى والعلوى والاميرى والصبيحى واليافعى والعولقى التى عقدت معها معاهدات فى أوقات مختلفة (١) ، وقد اعتمد وزير الخارجية البريطانى جرانفيل Granville على مذكرة حاكم الهند الاخيرة عند ارساله تعليماته للسير اليوت Elliot فى ١٥ مايو سنة ١٨٧٣م فقد طلب جرانفيل Granville بأن يكرر اليوت Elliot تأكيداته بخصوص تمسك حكومة جلالة الملكة فيما يختص باليمن وأشار الى أنه يجب التمسك بهذه الآراء وذلك بالنسبة للتدخل العثمانى فى شوءون القبائل العربية التى حددها الحاكم العام للهند عند المناقشات مع الباب العالى (٢) . الا أن الأمور تطورت بسرعة ، فقد وردت تقارير من عدن تفيد بأن مجموعات من الجنود العثمانيين وموءنهم تتمركز فى أراضى الحوشى فى لحج (٣) وبدأت بالفعل تحركات للجنود العثمانيين بالقرب من المناطق المجاورة لعدن ، وهذا لا يتطابق مع التأكيدات التى سبق أن أعطاها الباب العالى ، ثم طلب جرانفيل من السير اليوت أن لا يضيع الوقت فى ابلاغ ذلك الأمر الى الحكومة العثمانية ، وأن يطلب اصدار تعليمات سريعة لسلطاتها فى اليمن لسحب القوات العثمانية الموجودة فى المنطقة ، والكف عن القيام بأية أعمال مقلقة للقبائل التى

---

1. C.R.T.P. Enclosure 2 in No.13. The Governer Gennd of India in counsil to the Duck of Arglly, April 11, 1873.
2. C.R.T.P. No.13 Earl Granville to Sir Elliot May 15,1873.
3. C.R.T.P. No.14 Earl Granville to Sir Elliot May 23,1873.

التى بينها وبين عدن علاقات ودية، ولا بد من احترام التأكيدات التى أعطيت لحكومة جلالة الملكة بهذا الصدد (١)، وقد اتصل السير اليوت بالباب العالى وطالبهم باصدار أوامر فى الحال بانسحاب القوات العثمانية التى دخلت فى أراضى سلطان الحوشبى، كما أوضح وجهات النظر البريطانية، مع اتخاذ لهجة يشوبها التهديد حين قال : " ... ان الاجراءات التى اتخذتها السلطات العثمانية مست المصالح البريطانية فى عدن، وان حكومة جلالة الملكة تضع فى اعتبارها اتخاذ ترتيبات قد تراها ضرورية للمحافظة على سمعتها وأمن المستعمرة البريطانية، وان مسئولية اتخاذ هذه الاجراءات تقع على أولئك الذين فضلوا اثارة القلاقل فى منطقة ظلت مستعمرة مدة طويلة .

وأجاب رشيد باشا أنه على الرغم من عدم ادراكه صدق ما ادعاه من تأثر المصالح البريطانية فى حالة اعتراف الرؤساء العرب فى المنطقة بسلطة الباب العالى، فانه - أى رشيد باشا - يؤكد بأنه لن يتخذ بعد ذلك أية أجراءات من شأنها أن تدهور العلاقات مع الحكومة البريطانية (٢) . وصدرت بعد ذلك أوامر من الباب العالى للوالى باليمن تقضى بسحب المجموعات العسكرية التى دخلت أراضى الحوشبى (٣) ثم بدأ التدخل واضحا فى بلاد الاميرى،

1.C.R.T.P. No.15 Earl Granville to Sir Elliot June 5,1873.
2.C.R.T.P. No.16 Earl Granville to Sir Elliot May 30,1873.
3. C.R.T.P.No.17 Earl Granville to Sir Elliot June 1,1873.

واضطرب الموقف على الحدود الجنوبية لليمن ، اذ كان الشيوخ المتحالفين مع بريطانيا بموجب معاهدات وارتباطات يواجهون مصاعب وتهديدات ضخمة من خلال تصرفات العثمانيين ، ولاح أن موقف البريطانيين سوف يستمر مزعزعا فى عدن الى أن تصدر التعليمات الى السلطات العثمانية بالاقلاع عن التدخل فى شئون هؤلاء الرؤساء (١) ، وفى الخامس من يونيوسنة ١٨٧٣م توجه أحمد أيوب باشا الوالى الجديد لليمن ومعه تعليمات مشددة بسحب القوات العسكرية التى عسكرت فى قصر الحوشبى ، وأن يظل بعيدا عن التدخل بأية طريقة فى شؤون الاقاليم التى تربطها علاقات صداقة مع حكومة جلالة الملكة (٢) ، وفى ٢٧ يونيوسنة ١٨٧٣م وصلت قوة مكونة من مائتين من الجنود العثمانيين وفيلق قوامه مائتين من الجنود العرب غير النظاميين من قعطبة الى الراحة عاصمة الحوشبى ، وهناك خمسمائة من الجنود العثمانيين وصلوا الى مورساد الصبيحى ، وسوف تتقابل المجموعات التى فى الراحة ومورساد فى منطقة زائدة ، ويبدو أن تعليمات الباب العالى القاضية بسحب القوات الموجودة فى أرض الحوشبى لم تصل بعد الى صنعاء (٣) ، واستفسر السير اليوت عن هدف

1.C.R.T.P Enclosure -2 in No.19 regadier General Schneider to Mr. Gonne May 12, 1873.

2.C.R.T.P No.20 Sir H.Elliot to Earl Granville June 10,1873.

3.C.R.T.P No.21 Schneider to Duck of Argyll June 27,1873.

الحوادث الاخيرة بالاضافة الى الاجراءات التى اتخذتها السلطات العثمانية ضد القبائل الواقعة بجوار عدن فى الشحر والمكلا ، فأجاب رشيد باشا بأنه قد صدرت تعليمات بالفعل تقضى بانسحاب العثمانيين من أراضى سلطنة الحوشبى ، وقد اتصفت الاجابة بالتبرم بسبب اصدار هذا الامر ، واسترسل رشيد باشا فى اجابته للسير اليوت "... ليس فى الوقت الحاضر هو المناسب لمناقشة استقلال الولايات التسع لمقاطعة لحج ، والذى تنادى به الحكومة البريطانية وكذلك بالنسبة لاقليم حضرموت ، ولا نريد مناقشة شرعية المعاهدات التى أبرمتها الحكومة البريطانية مع الاقاليم السابقة الذكر ." . واستمر رشيد باشا يوضح وجهة النظر العثمانية للسير اليوت بالنسبة لوجود قوات عثمانية على أراضى الحوشبى "... وهى الحادثة الوحيدة التى يمكن للحكومة البريطانية التحدث عنها ، ولا تعتبر كافية لكى يوصف بها الموقف ككل ، وعلاوة على ذلك فان الحكومة العثمانية بدأت تعطى أوامرها بسحب قواتها من أراضى الحوشبى فورا ، أما بالنسبة لوجود مسئولين عثمانيين فى شكا والمكلا وكذلك الاقاليم التسع التى يربطها تحالف مع الحكومة البريطانية فلم يجد تفسيرا لذلك الا أنه أشار الى السفن التى تحمل العلم العثمانى والتى تتردد على حضرموت فانها تمر بغرض ازدهار التجارة وسد حاجيات السكان المتزايدة كنتيجة حتمية للتطور والحضارة ، وذلك يبرهن على ازدياد التجارة وتقدم الحضارة ، الشىء الذى ترضى عنه بريطانيا ، وأضاف رشيد باشا أن السياسة العثمانية فى اليمن تهدف الى المحافظة على حسن الجوار ، والعمل على التقدم التجارى مع الاحترام الكامل

لعادات وتقاليد السكان فى المناطق المجاورة وأضاف قائلا " ... ونحن نلاحظ بكل سرور أن تلك الاقاليم المجاورة لعدن تحتفظ بعلاقات ودية مع السلطات البريطانية ، ونحن مسرورين أيضا من أن هؤلاء السكان يستفيدون من وجود سوق رابحة لمنتجاتهم فى أسواق عدن ، وأن ليس من هدفنا تغيير مثل هذه الاوضاع..." واختتم رشيد باشا كلماته باعرابه عن أمله واعتقاده بأن تكون هذه التفسيرات الصريحة نهاية للاجراءات التى تقوم بها بريطانيا وتزيل الشك للحادث المؤسف له والخاص بأراضى الحوشبى (١) ، وعلى الرغم من كل التأكيدات فان الوالى الجديد لليمن أحمد أيوب باشا والذى قيل بأن معه تعليمات تقضى بسحب الجنود العثمانيين من أراضى الحوشبى لم يقم بسحب الجنود العثمانيين من شكا ، بل وصلت ثلاثين فرقة من الجنود غيرالنظاميين لدعم القوة الموجودة هناك ، وكان ذلك فى ٢٦ يوليو سنة١٨٧٣م (٢) ، وفسر رشيد الاحداث الأخيرة بقوله " .. انه يجب على حكومة جلالة الملكة أن تتأكد من التعليمات الواضحة التى أعطيت للوالى العثمانى الجديد لليمن كى يبتعد عن التدخل فى شئون الاقاليم المجاورة لليمن ، والتى يربطها تحالف مع الحكومة البريطانية (٣) وأبرق رشيد باشا لتأكيد ذلك عن طريق والى مصر الى الوالى الجديد لليمن

---

1. C.R.T.P Enclosure No.23 Raschid Pasha to Sir H. Elliot July 15, 1873.

2. C.R.T.P Enclosure in No.24 General Schneider to the Duck of Argyll July 30, 1873.

3. C.R.T.P Enclosure in No.25 Sir H.Elliot to Earl Granville August 5, 1873.

بأن يسحب القوات العسكرية فى المناطق التى جاءت فى التعليمات المرسلة أخيرا (١) ، وأرسل أحمد أيوب باشا خطابا على الرغم من تعليمات حكومته بسحب قواته من أراضى الحوشبى الى سلطان لحج باسم الشيخ فضل بن محسن وجاء فى هذا الخطاب أن الاجابة التى سبق أن أرسلها سلطان لحج الى الوالى السابق لليمن أحمد مختار بتاريخ يوليو قد وصلته وأنه استخلص منها أن السلطان فضل قد سلم خطاب أحمد مختار باشا الى الجنرال شنيدر Chneider المقيم السامى فى عدن ، وأضاف أحمد أيوب أنه : " ... يجب أن يكون مفهوما أن الحكومة العثمانية لن تتخلى عن حقها فى سيادتها التى يجب أن تحرسها وتحميها ، ومن تسول له نفسه أن لا يقدم ولاءه ، فان الحكومة العثمانية سوف تعاقب أولئك فى طريق الضلال (٢) " ، واعتبرت الحكومة البريطانية هذا الخطاب مخالفة صريحة للتأكيدات التى سبق أن قدمها الباب العالى للحكومة البريطانية (٣) ، واقترح بعد ذلك الجنرال شنيدر Chneider المقيم السياسى فى عدن ارسال خطاب الى أحمد أيوب باشا لكى يعلم أن المقيم يعلم بالتعليمات والأوامر المعطاة له من الحكومة العثمانية ، وجاء فى خطابه قوله : " ... اننا نضع أمام فخامتكم أن الكتائب العثمانية سواء النظامية أوغير النظامية ، والتى

1.C.R.T.P No.26 Sir H.Elliot to Earl Granville Sep.8,1873.

2.C.R.T.P Enclosure 3 in No.27 Ahmed Ayot to Fadhl Bin Mohsin July 27, 1873.

3.C.R.T.P Enclosure 3 in No.27 General Chneider to Gonne August 21,1873.

أرسلت بواسطة سلفك أحمد مختار باشا الى شكا فى اقليم الحوشبى لـم تنسحب حتى الآن ،ولقد تلقينا منذ فترة من الحكومة البريطانية أن فخامتكم قد أرسلت من استانبول بتعليمات من حكومة الباب العالى بسحب القوات السابق ذكرها من أراضى الحوشبى ،ونحن نثق فى سعادتكم بأنك سوف تنفذ ما جاء فى التعليمات ،وأن تسمحوا بعودة الأمور الى ما كانت عليه فى حالتها الطبيعية ،وذلك بعدم التدخل فى شئون الرؤساء الذين تربطهم معاهدات مع الحكومة البريطانية أو يتقاضون رواتب منها" (١) الا أن الجنود العثمانيين ظلوا مرابطين فى شكا ورفضوا الانسحاب منها ، (٢) كما أن والى اليمن أحمد أيوب باشا اجاب على خطاب المقيم السياسى شنيدر Chneider السابق والخاص بسحب القوات العثمانية من شكا طبقا للتعليمات الموجهة له من الباب العالى ،وتجاهل هذه الاوامر والتعليمات ،وأوضح أن اقليم الحوشبى ألحق بتعز (٣) ،ونقلت هذه المعلومات الى وزارة الخارجية البريطانية ،واتصل جرانفيل بالسير اليوت ،وأبلغه بضرورة الاتصال برشيد باشا كى يصدر تعليمات وأوامر أكثر صرامة لوالى اليمن أحمد أيوب باشا (٤) ،وقد

1.C.R.T.P Enclosure 2 in No.27 General Chneider to Gonne August 21,1873.

2.C.R.T.P No.28 John Koye to Lord Tenteden Oct.10,1873.

3.C.R.T.P Enclosure in No.28 Chneider to the Duck of Argyll October 10,1873.

4.C.R.T.P Granville to Sir H.Elliot October 17,1873.

وضح أحمد أيوب باشا وجهة نظره فى تقرير جاء فيه " ... يوجد بين هذه الاقاليم اقليم يسمى الصبيحى ، وبعض الاماكن على الساحل والتى تعتمد على البن ، وهم فى حالة هدوء ، وهؤلاء رغبة منهم ، وبتوجيه من شيوخهم قرروا أن يكونوا تحت ظلال الباب العالى ، لذلك ليس من الضرورى ارسال قوة عسكرية ... " أما بالنسبة لسكان الحوشبى فقد وافقوا بمحض رغبتهم أن يكونوا خاضعين للباب العالى ، وأن الوالى عين لحكمهم المشير على مانى أفندى ، وهم فى حالة هدوء وطاعة ، ولا يستلزم الأمر ارسال قوات عسكرية ، ولرغبة هؤلاء السكان الملحة فى أن يصبحوا رعايا عثمانيين ، فان فضل محسن شيخ لحج أصبح عدوا لهم ، لذلك أخذ يضطهدهم ، ويتعدى على حقوقهم وتبعا لذلك فانهم طلبوا الحماية ، وتمشيا مع هدف المحافظة على حقوق الباب العالى والهدوء فى تلك المناطق فانه يجب ارسال قوة عسكرية اذا دعت الضرورة لذلك ، كما أشار أحمد أيوب الى أن السلطان فضل بن محسن أخذ يتدخل فى شئون سكان المناطق المجاورة ، والتى هى تحت حكم المشير على مانى ، وهى مقر الحكومة المحلية ، كما ازدادت شكاوى وهمسات الناس تجاه هذه الافعال ، وأمر الوالى بأن يخبر السلطان فضل بأنه اذا كانت له ممتلكات فى هذه المنطقة فسوف يسمح له بالمحافظة عليها شريطة أن لا يتعدى على حقوق الآخرين ، وأن يخضع لتعليمات الحكومة العثمانية والا فسوف تضطره السلطات العثمانية الى ترك تلك المنطقة . (١)

---

1. C.R.T.P Enclosure 3 in No.35 the Governer General of the Yemen to the Grand Vizier August 6, 1873.

واتخذ التدخل العثمانى شكلا آخر بالنسبة لسلطنة لحج ففى ٢٥ أغسطس زار السلطان فضل سلطان لحج المقيم السياسى البريطانى فى عدن ، وقدم شكوى فى تصرف اخوانه عبد الله وعبد الكريم ، وابنه فضل بن عبد الكريم الذى أرسل الى تعز ، وصنعاء بدون اذن من السلطان ، وذلك بغرض تقديم فروض الولاء والطاعة للسلطات العثمانية نيابة عن أشقاء السلطان عبد الله وعبد الكريم ، وحمل فضل بن عبد الكريم عند عودته رسائل من الباشا كان القصد منها اضعاف موقف السلطان فى سلطنته لحج ، والذى كان يخشى من محاسبة سوء تصرف اخوانه الذين يعيشون فى منزل حصين ، وأى تصرف منه يؤدى الى حدوث صدام دموى ، واقترح السلطان فضل على المقيم السياسى فى عدن بايقاف مرتبات أخويه ، ومنع أى شخص يريد أن يزرع فى الاراضى التابعة له ، وذلك عقابا لأخويه ، الا أن المقيم السياسى وافق على ايقاف المرتبات ولم يوافق على منع الزراعة فى أراضيهم ، واعتبر ذلك عقابا ضمنيا للزراع ، كما أرسل المقيم السياسى فى عدن تحذيرا باسم الحكومة البريطانية للاخوان عبد الله وعبد الكريم بأنهم اذا استمروا فى أعمالهم المعارضة لرغبات وتعليمات السلطة الحاكمة فى لحج ، فان الحكومة البريطانية لن تتردد فى طردهم من البلد (١) وتطورت الامور بعد ذلك اذ هاجم أتباع عبد الله أخ السلطان فضل فى ٢٠ أكتوبر

1.C.R.T.P Enclosure 2 in No.34 General Chneider to Mr. Gonne August 26,1873.

سنة ١٨٧٣م سوقا فى لحج ، الا أن السلطان فضل استطاع القضاء على هذه الحركة بعد أن قتل اثنان وجرح عشرة من الجانبين ، وتوسط الشيوخ بين السلطان فضل وشقيقه عبد الله الذى أعطى للسلطان ولده وولد عبد الكريم كرهائن دليلا على حسن النية ، الا أنه بعد ذلك قامت مجموعة مسلحة من الجنود العثمانيين وعددها ٢٥ جندى جاءت من شكا واحتلت منزل عبد الله المحصن فى لحج ، وطلب قائدها من السلطان اعطاء الرهائن لأن عبد الله وأخاه عبد الكريم قاموا بمهمتهم ، وأصبحوا رعايا عثمانيين ولكن السلطان رفض تسليم الرهائن ، واتصل من الناحية الاخرى المقيم السياسى بقائد المجموعة ، وطلب منهم مغادرة لحج والا فسوف يصبح مسئولا عن النتائج كما أوصى المقيم البريطانى سلطان لحج بعدم الاحتكاك بالجنود العثمانيين الذين نزلوا فى منزل أخيه عبد الله ، لأن ذلك سيعقد الامور ، وكانت وجهة نظر البريطانيين فى حالة عدم انسحاب القوات العثمانية من لحج أنه يجب ارسال مجموعة عسكرية الى هناك (١) ، الا أن قائد المجموعة العثمانية تلكأ فى الانسحاب بقواته من لحج ، وذكر أنه فى لحج بموجب تعليمات من قائده ، وأنه يمثل حاكم تعز ، وذكر أنه مسئول تماما عن حماية عبد الله على اعتبار أنه من رعايا العثمانيين (٢)

---

1. C.R.T.P Enclosure 1 No.31 General Schneider to Duck of Argyll October 20,1873.
2. C.R.T.P Enclosure 5 No.36 General Schneider to Duck of Argyll October 27,1873.

وبذلك يكون العثمانيون قد استغلوا الصراع الناشب بين أفراد الأسرة الحاكمة في لحج وكانوا على استعداد لمواصلة خطتهم في استرجاع عدن وتأكيد سيادتهم عليها ، واتخذ الموقف بعد ذلك طابعا خطيرا ، وأمر نائب الملك في الهند المقيم السياسي في عدن بارسال قوات بريطانية لحماية سلطان لحج على أن لا يهاجم القوات العثمانية (١) ، واتصل جرانفيل بالسير اليوت لمناقشة الوضع مع الباب العالي وقام اليوت Elliot باتصالات جديدة حددت بموجبها الحكومة العثمانية تعليماتها لوالي اليمن بعدم التدخل في شئون القبائل المستقلة ، وحذر السير اليوت رشيد باشا بأنه" اذا لم تحترم الحكومة العثمانية الوعد الذي أعطته لحكومة جلالة الملكة بخصوص هذا الصدد ، فان ذلك سيؤدي الى عواقب وخيمة ، وأجابه رشيد باشا " بأن الأوامر التي صدرت للوالي كافية ، وأنه لا يتوقع عدم احترامها ، ومقتنع بأن تكرار هذه الاوامر سوف يكون لها تأثير " (٢) ، ودعمت الحكومة البريطانية نتيجة للتدخل العثماني في الاراضي المجاورة لعدن قاعدتها في لحج بمجموعة عسكرية مكونة من مدفعية ومشاة من البريطانيين ومهندسين عسكريين و رجال من العرب الموالين للبريطانيين ، وذلك تحت قيادة الكولونيل ماكنزي Mackenzie ، وذلك

1.C.R.T.P Enclosure 3 No.31 the Victory of India to the Duck of Argyll October 22,1873.

2.C.R.T.P No.33 Sir H.Elliot to Earl Granville Oct.14,1873.

لمعاونة سلطان لحج ،كما أن هناك مجموعة أخرى مكونة من ٥٠ رجلا من حاملى السيوف بقيادة هنتر Hanter توجهوا الى لحج ،وكان الغرض من هذه القوات مواجهة التدخل العثمانى المتزايد فى المنطقة بدليل أنه عندما قام سلطان لحج بزيارة المقيم السياسى للمرة الثانية وطلب مساعدته فى القبض على أخويه فأجاب شنيدر Chneider بأن السلطان هو الحاكم لبلاده ويجب عليه أن يكون قادرا على أداء واجبه الأمنى " وان تدخل الحكومة فى مثل هذه الحالة سوف يضعف سلطته بين الناس ،وانني متأكد أن الحكومة لا توافق على الاشتراك فى اتخاذ أية اجراءات ضد أشقائه ."(١)

وفى ٧ نوفمبر سنة ١٨٧٣م تقابل السير اليوت Elliot مع رشيد باشا موضحا خطورة السياسة التى رسمتها السلطات العثمانية فى اليمن بالنسبة للأراضى العربية والتى تربطها بحكومة جلالة الملكة معاهدات ،وأن اجراءاتهم تتعارض كثيرا مع التأكيدات التى سبق أن قدمها الباب العالى للحكومة البريطانية فى مناسبات كثيرة ،وتماطل رشيد باشا فى اجابته وتساءل هل تحدث السير اليوت مع الصدر الاعظم بخصوص هذا الموضوع ،فأجابه اليوت بأنه أبلغه بها وكذلك حثه على اتخاذ اجراءات سريعة لتدارك الموقف ،ثم أبلغه رشيد باشا

1.C.R.T.P Enclosure 5 in No136 Schneider to Mr. Gonne October 20,1873.

بأنه قرر ارسال كامل باشا الحاكم العام للقدس الى اليمن بوصفه مندوب عن الحكومة لتقصى الحقائق ، لتكون الحكومة على علم بالموقف السياسى ، ووعد بان الأوامر الى الحاكم العام لن تقلق القبائل ، وأجابه السير اليوت على ذلك بأنه " مما يدعو للسرور اعطاء هذا الوعد ، الا أنه مما يبطل قيمته أنه قد أعطى قبل ذلك أكثر من مرة دون أية نتيجة " (١) ، وفى ١٦ نوفمبر وصل عزول باشا ومعه بعض المسئولين العثمانيين لحج ، حاملين خطابا من والى اليمن يطلب فيه المساعدة فى احلال السلام بين السلطان وأخيه عبد الله ، الا أن المقيم البريطانى أخبر الباشا أن الحكومة البريطانية تنتظر انسحاب القوات العثمانية من لحج والحوشبى طبقا للأوامر والتأكيدات التى أعطيت من قبل الحكومة العثمانية ، كذلك ان سلطان لحج لا يرغب فى أن يتدخل العثمانيون فى حل المسألة بينه وبين أخيه عبد الله ويجب أن يكون خضوع عبد الله بلا قيد ولا شرط للسلطان فضل ، وأجاب عزول باشا بأن عبد الله تحت حماية العثمانيين لهذا فان القوات العثمانية جاءت لكى تحميه من السلطان - سلطان لحج - وذكر عزول بأنه لم يتسلم أوامر بخصوص الحوشبى أو بقية الرؤساء الذين تربطهم معاهدات بالحكومة البريطانية (٢) ، وتسلم سلطان لحج خطابا من قائد

1.C.R.T.P No.41 Sir Elliot to Earl Granville Nov.7,1873.

القوات فى تعز قال فيه " أن شهرا يقترب وأن القوات العثمانية فى شكا تعانى من الازدحام لذلك يطلب السماح له بايواء بعض منهم فى زائدة حيث يملك سلطان لحج قلعة صغيرة وحامية عسكرية ، وأشار المقيم السياسى على السلطان أن يرفض السماح بذلك وان يذكر سلطان لحج فى اجابته على القائد بأنه قد علم أن الحكومة العثمانية قد أصدرت أوامر بانسحاب القوات العسكرية من مقاطعة الحوشبى ، كما أشار المقيم أيضا بعدم ارجاع الرهائن ، وأن يتجنب السلطان أى هجوم ضد القوات العثمانية ، كما أرسل المقيم السياسى خطابين الى المتصرف العثمانى فى تعز ، والى قائد الكتيبة العثمانية التى فى منزل عبد الله بخصوص اتخاذهم اجراءات تخالف تماما للأوامر والتعليمات التى صدرت من قبل الحكومة العثمانية ، كما أن الكابتن هنتر Hanter أرسل الى لحج ليساعد السلطان ، ويشرح للقائد العثمانى سخف الموقف الذى اتخذ من قبل المسئولين وذلك فى حالة عدم انسحاب القوات العثمانية . (١)

لم تنسحب القوات العثمانية من لحج والحوشبى وتعقدت الأمور ، وازدادت حدة النزاع بين السلطان واخوته ، وذلك بسبب وجود القوات العثمانية ، لأن سلطان لحج لا يرغب فى تدخل العثمانيين الموجودين للدفاع عن عبد الله الذى كان تحت الحماية العثمانية ، (٢) وانتقلت المحادثات مرة أخرى الى استانبول ،

1.C.R.T.P Enclosure 3 in No.42 Schneider to Mr. Gonne October 22,1873.

2.C.R.T.P No.43 Earl Granville to Sir H.Elliot Nov.19,1873.

حيث اجتمع السفير البريطانى السيسر اليوت بالباب العالى ورشيد باشا ، وتحدث معهما بشأن استمرار احتلال اقليم الحوشبى من قبل القوات العثمانية مبينا اهتمام حكومة جلالة الملكة بهذه المسألة ، وفى ١٤ نوفمبر أخبر رشيد باشا السير اليوت بأنه يجب ارسال برقية فى الحال الى والى اليمن وتساءل اليوت عن الضمان الذى يمكن تقديمه لحكومة جلالة الملكة ، فأجاب أن القرار قد اتخذ من مجلس الوزراء العثمانى ولا يمكن اهماله (١) ، وأرسل الصدر الأعظم برقية الى والى اليمن فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٣م " ... اننى فهمت من خطابك الاخير بأن لحج ليست لها علاقة مع اقليم الحوشبى ، وبناء على طلب بعض شيوخ الاقليم أرسلت اليها بعض القوات العسكرية ، وفى رأيى أنك فعلت هذا العمل تحت تأثير سوء الفهم عندما أرسلت القوات الى تلك المنطقة لذلك يجب عليك سحب تلك القوات والضباط فى الحال ، كذلك أية قوات تكون قد أرسلتها الى أى مكان آخر فى لحج ، ويجب عليك أن ترسل لى تقريرا عما تم عمله طبقا لهذه الأوامر ، الا أن العثمانيين قلقوا من وجود قوات بريطانية فى لحج فاتصل موسورس باشا Musures السفير العثمانى فى لندن ، بوزير الخارجية البريطانى جرانفيل Granville وسلمه خطابا من رشيد باشا جاء فيه " ان ارسال فرقة من خمسمائة جندى من عدن لمنع احتلال لحج بواسطة

1.C.R.T.P No.45 Sir H.Elliot to Granville Nov.14,1873.

القوات العثمانية بعد اجراءا راجعا الى سوء الفهم الناتج عن حادثة شيخ لحج ومن المحتمل أن وجود بعض الجنود العثمانيين فى أراضى لحج جذب أنظار السلطات البريطانية التى أثارتها التقارير المبالغ ، ولكن السير اليوت قد تأكد سابقا بأن الحكومة العثمانية ليست لديها نوايا للاحتلال ، وهذه ا حقيقة لأن حكومة الباب العالى لم تدخر جهدا عندما وصلت اليها التفسيرات غير المتفقة مع ما يعنيه حادث سلطان لحج ، فأرسلت تعليمات سريعة للذين يمثلون السلطات العثمانية ، كذلك على القوات العثمانية أن تتجنب أى عمل ممكن أن يظهر للواقع هذه التفسيرات التى وضعت من قبل الحكومة البريطانية لحادث سلطان لحج ، واعتقد انه كان كافيا اخبار لورد جرانفيل بما جاء سابقا واعطاء تأكيدات رسمية بحسن نوايانا ، والبرهنة بأن المقياس الذى اتخذ كذريعة من قبل الحكومة البريطانية لا يمثل الحقيقة (١) . وعلق وزير الخارجية البريطانى Granville للسفير العثمانى فى لندن عن موقف بريطانيا بعد سحب القوات العثمانية من لحج والحيوشبى " . . . انه بعد حل المسألة تماما ، فأننا لا أتصور ان هناك أى غرض لوجود القوات البريطانية" ، (٢) ولازالة الشكوك ، ولتجنب سوء الفهم فى المستقبل ، فقد اتصل السير اليوت برشيد باشا للتأكد من أن التعليمات الحالية تكون قد فهمت بحيث تطبق على كل الاقاليم التى تربطها

1.C.R.T.P No.46 Rachid Pasha to Musures Pacha Nov.27,1873.
2.C.R.T.P No.50 Sir H.Elliot to Earl Granville Nov.21,1873.

معاهدات مع الحكومة ، والذى وعد الباب العالى بعدم ازعاجها ، فأجاب رشيد باشا بأن ذلك ما تعنيه التعليمات التى أصدرها" (١) ، ويبدو من خلال ذلك نجاح الدبلوماسية البريطانية ، وعدم رغبة الدولة العثمانية الدخول فى صدام مكشوف مع القوات البريطانية ، لذلك انسحب الاتراك فى السادس من ديسمبر سنة ١٨٧٣م من لحج وشكا (٢) ، كما خلت المنطقة بين لحج وتعز من القوات العثمانية وأن شقيقى سلطان لحج استسلما للمندوب السامى فى عدن ، الذى أرسلهم الى سجن الدولة فى عدن وكانت الحكومة البريطانية غير واثقة من تأكيدات الباب العالى ، لذلك أرسل السير اليوت السفير البريطانى فى استانبول مذكرة الى رشيد باشا أشار فيها أن لغة التعليمات المرسلة لوالى اليمن لم تكن واضحة بحيث يمكن تطبيقها على جميع أنحاء البلاد التى بينها وبين بريطانيا معاهدات والذى تعهد الباب العالى فى يوليه الماضى بعدم ازعاجها ، واسترسل اليوت فى مذكرته " ... وعلى الرغم من توضيحى لفخامتكم ما جاء فى البرقية ، فانك أكدت لى أن الاوامر سوف تفهم بحيث تطبق على جميع انحاء البلاد التى ارتبط حكامها مع بريطانيا بمعاهدات ، لذلك فليس من الضرورى العودة لعدم الفهم، والذى يمكن أن تقوله فخامتكم مستقبلا ، وانى آتمنى ارسال تعليمات اضافية لوالى اليمن لقطع الشك عنده ، وتوضيح الامور بخصوص الموضوع ..." (٣)

---

1. C.R.T.P No.47 Earl Granville to Sir Elliot Nov.27,1873.
2. C.R.T.P No.53 Earl Granville to Sir Elliot Dec.9,1873.
3. C.R.T.P Enclosure in No.56 Sir H. Elliot to Racshid Pasha Nov.13,1873.

ووعد رشيد باشا بأن التعليمات سوف ترسل حالا لوالى اليمن ، كما كرر القول بأن الباب العالى ملتزم بالحل الذى أعلنه بخصوص الاقاليم التى جاءت فى الموضوع ويأمل أن تسحب حكومة جلالة الملكة القوات التى أرسلت الى عدن وأجاب السير اليوت على ذلك بأنه لا يملك أية معلومات بخصوص تلك القوات لكن حذره بأنه فى حالة عدم تنفيذ القادة العثمانيين للوعود التى أصدرها الباب العالى ، فان حكومة جلالة الملكة ربما تفكر أنه من الضرورى اتخاذ بعض الاعمال لحماية المقاطعات التى شملها التهديد من قبل القوات العثمانية (١) وهكذا انتهت المفاوضات الدبلوماسية بين الحكومتين البريطانية والعثمانية بأن استخلص السفير البريطانى فى استانبول تأكيدا خاصا من الحكومة العثمانية فى اليمن تنص على عدم التدخل فى شئون الرؤساء المرتبطين بعلاقات مع حكومة جلالة الملكة ، وكان هذا هو الموقف العام الذى ساد المنطقة سنة ١٨٧٣م .

وبعد انسحاب العثمانيين من أراضى الحوشبى والعبدلى ، لم ينسحبوا من امارة وثينة التى تقع فى أراضى الاميرى ، شمال أراضى الحوشبى ، وكان من الطبيعى أن يستولى العثمانيون على هذه الامارة عند تقدمهم الى أراضى الحوشبى ولحج ، كذلك فانه من وجهة النظر البريطانية يجب أن يتبع انسحابهم

1.C.R.T.P No.56 Sir H.Elliot to Earl Granville Dec.2,1873.

من أراضى الحوشبى والعبدلى انسحابهم من أراضى الاميرى ، وفى يونيو سنة ١٨٧٥م أرسل السفير البريطانى فى الاستانة مذكرة الى الباب العالى أشار فيها الى استمرار والى اليمن العثمانى فى عدم اطاعة تعليمات الحكومة العثمانية بشأن سحب قواتها ، وطالب بارسال أوامر سريعة تقضى بسحب أية قوة عثمانية قد تكون فى أراضى القبائل التسع ، وخصوصا لحج ، وأجابت الحكومة العثمانية أنها أمرت بالفعل بسحب قواتها ، ونتيجة لضغط الحكومة البريطانية على الباب العالى انسحبت القوات العثمانية النظامية من د ثينة وبقيت بعض القوات غير النظامية وموظفون عثمانيون ، الا أن المقيم السياسى البريطانى عبر عن تخوفه من استمرار التدخل العثمانى فى د ثينة وذلك فى مذكرة بعث بها الى الحكومة البريطانية ، ونتيجة لهذه المذكرة بعث السير اليوت Elliot بمذكرة شديدة اللهجة فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦م الى وزير الخارجية العثمانى أشار فيها الى أن تأكيدات حكومة الدولة العثمانية لم تنفذ وأن هناك محاولات لضم جزء من أراضى الاميرى الى الممتلكات العثمانية ، وأن الحكومة البريطانية لا يمكنها الاستمرار الى أجل غير محدود ، وتجددت الاحتجاجات التى لا يلتفت اليها ، وأن حكومته كانت تتوقع ارسال تعليمات محددة بسحب كل المسئولين العثمانيين ، وأن يمتنع المسؤولون العثمانيون عن التدخل فى أراضى الاميرى ، وفى غضون ذلك الوقت كان للاحتجاجات البريطانية بعض الأثر ، فانسحب العثمانيون من بعض مناطق د ثينة ، الا أنهم

لم ينسحبوا من كل الاقاليم (١) ، ولكن الخلاف ظل قائما بين الحكومتين العثمانية والبريطانية بشأن دثينة ، وهل هى واقعة داخل منطقة النفوذ العثمانية أم البريطانية ، وفى محاولة لازالة ذلك الغموض صدرت تعليمات الى المقيم السياسى فى عدن فى مارس سنة ١٨٧٧ بأن يتفاوض مع والى اليمن لتنظيم الحدود بين الممتلكات العثمانية والقبائل التسع المتعاقدة مع الحكومة البريطانية ، وظل الامر معلقا حتى سنة ١٨٨٠م حينما أرسل الكولونيل ستيفنس Stevens بغرض تحديد الحدود الفعلية لأراضى الاميرى التى تقع فيها امارة دثينة (٢) ، وكانت بريطانيا قد أرسلت قوات من الهند لتهديد الثائرين والعثمانيين المجاورين للمحميات ، واستمر هذا النضال السياسى حتى سنة ١٨٧٨م عندما تم للبريطانيين شراء الاراضى المشرفة على خليج عدن ، المعروفة باسم أراضى الشيخ عثمان ، وذلك لتأمين منطقة عدن ضد أى هجوم قد يقوم به العثمانيون أوالشيوخ الآخرون ، (٣) أما بالنسبة لرؤساء القبائل المعترف بهم من السلطات البريطانية ، فقد كانوا يواجهون صعوبات متفاوتة الدرجات فى فرض سيطرتهم على القبائل المتمردة أحيانا ، والناقمون ، والمغامرون ، والمعادون لبريطانيا ، والذين يجدون لهم فى اليمن دائما عونا وملجأ ، وأسلحة وذخائر فى

---

(١) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٢٨٧ - ٢٩١ .

(٢) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٣٠٠ .

(٣) محمد الشرقاوى ، الاستعمار البريطانى فى جنوب اليمن ، ص ١٥ .

بعض الاحيان تشجيعا للثورة (١) ، وليس غريبا فى أن تكون هذه المساعدات من قبل الائمة الزيود أو العثمانيين .

ويتضح من العرض السابق أن افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م ساعد الدولة العثمانية على اقامة حكم فعال فى منطقة عسير والمخلاف السليمانى ، التى ارتبطت ارتباطا مباشرا بالدولة مما سهل عليها التحكم فى شئون تلك المناطق ، وبعد ذلك اتجهت الدولة بكل ثقة الى اليمن فأعادت الهدوء والسكينة اليها بعد صراع طويل ومرير بين الائمة الزيدية ، كما استطاعت الدولة أن تطبق نوعا من نظام الولايات كما أسلفنا القول ، ولحماية ذلك أوجدت الدولة جيشا كبيرا فى المنطقة عرف بالجيش السابع ، وتثبيت سلطة الدولة العثمانية فى تلك المناطق ، عسير والمخلاف السليمانى ثم اليمن كان بمثابة خطوة دفاعية لتأمين الحجاز ، أو بمعنى آخر لتأمين مركز الدولة فى الاماكن المقدسة ، وكان فتح قناة السويس للملاحة البحرية فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩م ، هو الذى أدى الى زيادة اهتمام العثمانيين بالبحر الاحمر الذى أصبح أهم طريق للمواصلات الدولية بين الشرق والغرب ، وبسواحل الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر ، وخاصة الساحل اليمنى الذى أصبح البريطانيون يسيطرون على جانبه الجنوبى
العثمانيون
المتحكم فى باب المندب ، وذلك بسيطرتهم على عدن سنة ١٨٣٩م ، وقد رأى /

---

(١) جان جاك بيربى ، جزيرة العرب ، ص ١٨٢ .

بعد افتتاح قناة السويس ضرورة اعادة فرض سيطرتهم الفعلية على عدن بعد أن تضاعفت أهمية موقعها وخطورتها فى تهديد القوات العثمانية فى اليمن ، لذلك أرادت الدولة مد سيطرتها الفعلية على عدن ليكون لها مركز ممتاز فيها ، ولتستعيد احترام العالم الاسلامى وعلى الاخص العالم العربى . وكانت الدولة تهدف الى جمع الشعور العربى فى المنطقة ضد بريطانيا ، الا أن الدولة أرغمت على الانسحاب ، وخلاصة القول أن فتح القناة قد أضاف آفاقا جديدة أمام الدولة العثمانية ، جعلها تعيد تقييم سياستها فى تلك المناطق ، واعادة السيطرة عليها ، لأن افتتاح قناة السويس للملاحة كان معناه سهولة ارسال الحملات والامدادات من عاصمة الدولة الى غربى الجزيرة العربية مباشرة مرورا بمصر التى هى احدى ولايات الدولة العثمانية ، هذا بالاضافة الى سرعة وصول المكاتبات والانباء والتقارير من غربى الجزيرة الى عاصمة الدولة العثمانية ومن ثم كانت محاولات الدولة المتعددة التى أشرنا اليها فى هذا الفصل والتى انتهت الى النتائج التى أوضحناها فى هذا الفصل أيضا .

الفصل الرابع

عوائق استكمال نفوذ الدولة العثمانية على الساحل الغربي للجزيرة العربية

أ - احتلال انجلترا لمصر وسيطرتها على القناة

ب - النفوذ البريطاني في عدن .

جـ - ثورة اليمن .

مع بداية القرن الثامن عشر أخذت الدول الاوروبية الكبرى تفكر فى الطريقة التى تقتسم بها ممتلكات الدولة العثمانية ، وفى احياء الطريق القديم للتجارة - طريق مصر - واذا نظرنا الى خريطة العالم فاننا نرى مصر ذات موقع استراتيجى اذ تقع فى ملتقى القارات الثلاث أوربا ، وآسيا ، وافريقيا ، وأنها بموقعها الجغرافى الممتاز هذا أقرب وأيسر طريق بين الشرق والغرب ، وانه ليس من المستحيل وصل البحرين الابيض المتوسط والاحمر بطريق برى أو بطريق بحرى ، ولا سيما أنه وجد الطريقان فى القديم وفى العصور الوسطى ، فقام التنافس بين انجلترا وفرنسا اللتين اهتمتا بأمور مصر ومستقبلها نتيجة لاهتمامها بفتح الطريق القديم ، ففرنسا كانت وجهة نظرها أن فتح الطريق سيجلب لها متاجر الشرق ، ويلحق بتجارة أعدائها الانجليز ضررا كبيرا ، فيرون من ناحيتهم أن فتح هذا الطريق يعد مغنما كبيرا لتجارتهم واختصارا للوقت والنفقات (١) ، وبدأ التنافس يشتد بين انجلترا وفرنسا على الاستئثار بالنفوذ الأعلى فى مصر ، وكانت فرنسا فى السنوات الأخيرة من حكم محمد على قد صارت صاحبة نفوذ كبير فى مصر ، وخشى عباس " ١٨٤٨ - ١٨٥٤م " اذا استمر النفوذ الفرنسى يتزايد بواسطة الذين درسوا فى فرنسا وتأثروا بمساعى فرنسا التى تعمل لكسب ودّهم ، وكان يتزعم هؤلاء عمه محمد سعيد ، خشى عباس أن تتدهور الباشوية المصرية (٢) ، وتصبح

---

(١) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٩٢٧ .

(٢) محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، ص ٣٠ .

مجرد بلاد خاضعة للحماية الفرنسية ، فعمل على مكافحة النفوذ الفرنسى ، (٢) لذلك صمم على الاستعانة بالنفوذ الانجليزى ، وكان القنصل الانجليزى فى مصر شارل ميرى C.Mery له كلمة مسموعة لدى عباس ، واتجهت هنا السياسة الانجليزية لكسب مركز فى مصر ، وذلك بتيسير طرق المواصلات البرى بين الاسكندرية والقاهرة ، وبين القاهرة والسويس عن طريق بناء السكك الحديدية (٢) ، كما توصل عباس مع شارل ميرى فى ١٦ فبراير سنة ١٨٥١ م على أصول اتفاق بينه وبين الحكومة الانجليزية : أن تتدخل انجلترا لدى الباب العالى للمحافظة على حقوق عباس ، كما جاء فى فرمانات الوراثة ، وأن يتفاوض عباس مع المهندس الانجليزى السير روبرت استفنسون Sir Stephenson لمد الخط الحديدى وان يعمل عباس على تشجيع التجارة الانجليزية وتأمين المواصلات للهند ، وعارضت فرنسا ذلك المشروع معارضة شديدة ، واستغلت فى سبيل ذلك مالها من نفوذ فى مصر والدولة العثمانية ، ولكن المشروع الانجليزى نجح ، ودخل فى دور التنفيذ وفى أثناء انشاء السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية توفى عباس ، واعتلى سعيد باشا منصة الحكم فى مصر (٣) ، الذى اتجه لفرنسا ، وكان من أبرز الامتيازات التى حصلت عليها فرنسا فى مصر ، أخذ امتياز حفر قناة السويس الذى ناله فردناند دى لسبس ، وتسبب سعيد باشا فى اغضاب بريطانيا التى قاومت

---

(١) د . شوقى عطاالله الجمل ، البحر الاحمر فى سياسة مصر ، ص ٨ .

(٢) محمد فؤاد شكرى ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ٧ .

(٣) أحمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٧ .

مشروع قناة السويس (١) ، ورأينا ذلك فى الفصل الثانى ، ولا شك أن تصرفات سعيد السابقة تعارض المصالح الانجليزية فى مصر ، والتى كانت سياستها تجاه مصر منذ معاهدة سنة ١٨٤٠م تعمل على الابقاء على مصر تحت السيادة العثمانية وفقا للفرمانات الصادرة .

واهتمت بريطانيا بمصر ، عندما أصبح لها فى الهند قاعدة لامبراطورية عندها أخذت ترمق مصر كطريق حيوى لا تعيش بدونه ، وأخذ حرصها يزداد بقدر ما كان يثير تخوفها على ضياع هذا الطريق ، ولا سيما بعد فتح قناة السويس وقد وجدت أن أفضل طريق لذلك هو الاكتفاء موءقتا بالمحافظة على علاقة مصر بالدولة العثمانية فى حدود الفرمانات الصادرة (٢) ، كما أن انتشار التجارة الانجليزية فى أسواق الشرق يتبعه اهتمام خاص متزايد ، لذلك تخشى انجلترا أن تشاركها قوة أخرى ، ولذا كان من الطبيعى أن حكومة بالمرستون تحارب مشروع القناة ، وتعارض مجهودات دى لسبس . (٣)

ومما لا شك فيه أن الدولة العثمانية كانت تدرك أهمية مصر وبالتالى الحجاز ويدل على ذلك اهتمام السلطان العثمانى بمصر والخديوى والامتيازات التى منحت لهما من خلال الفرمانات ، ففى سنة ١٢٨٣هـ الموافق ١٨٦٦م تحصل الوالى

---

(١) محمد فوءاد شكرى ، مصر والسودان ، ص ٤٥ .

(٢) عبد العزيز رفاعى ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ٧ .

(٣) احمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٧ .

اسماعيل على فرمان سلطانى غير بموجبه طريقة التوارث فى منصب الخديوية المصرية ، فبعد أن كانت لأكبر أبناء محمد على باشا انحصرت بهذا الفرمان فى ذرية اسماعيل ، وصارت لأكبر أولاد الجالس على منصب الخديوية (١) ، كما حصل الوالى اسماعيل باشا فى ٨ يناير سنة ١٨٦٧م (٥ صفر سنة ١٢٨٤هـ) على فرمان جديد يخوله وخلفاءه لقب خديوى ، وبعد ان كان واليا ، ارتقى بهذا اللقب السامى الى مرتبة قريبة من مراتب الملوك والسلاطين ، كما أقر هذا الفرمان حق الحكومة المصرية واستقلالها فى ادارة شئونها الداخلية والمالية ، وحقها فى عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب فى داخلية البلاد ، وشؤون الضبط للجاليات الأجنبية ، كل هذه الفرمانات لم تأت عفوا من قبل الدولة العثمانية بل ببذل اسماعيل المال من الخزانة المصرية ، (٢) والتى تنفق على رجال الطبين الهاميونى ، وكان بينهم عدة وزراء أغدق عليهم اسماعيل الأموال على شكل هدايا فاخرة ليساعدوه فى الوصول الى مقاصده ، (٣) وكان من نتيجة بذل اسماعيل هذه الاموال أن استدانت مصر ، ونشأت أزمة مالية أدت الى تدخل أجنبى واحتلال بريطانيا مصر ، الا أن العلاقات بين مصر والدولة العثمانية فترت ، ولم تكن كما كانت عليه فى السابق ، وذلك لشعور الدولة بزيادة انسلاخ مصر عن جسم الدولة العثمانية وذلك بسبب

---

(١) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٧١٥ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، جـ ١ ، ص ٨٤ .

(٣) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٧١٥ .

الفرمانات السابقة والممنوحة للخديوى اسماعيل والذى زاد شعوره بالاستقلال عن الدولة العثمانية ، فدعا فى حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م ملوك أوربا ورؤساء حكوماتها الى حضور تلك الاحتفالات دون وساطة الدولة العثمانية ، واعتبر السلطان العثمانى هذه الدعوة اغفالا لواجب الولاء نحوه واحتج لدى الدول على مسلك الخديوى ، فلم يكترث اسماعيل لهذا الاحتجاج بل مضى فى دعوته ، وأقام حفلات القناة برئاسته ، وحضرها ملوك أوربا وامراؤها وقيل أنه كان معتزما اعلان استقلال مصر التام فى تلك الاحتفالات ، ولكن الحكومات الاوربية لم توافقه على تلك الرغبات ، ونصحته أن يعدل عن عزمه ، وانتهت احتفالات القناة (١) وبلغت تكاليف انشاء القناة ، ومصاريف احتفالات الافتتاح مبلغ ٤٠٠ مليون فرنك ، مما أدى الى افلاس مصر ، وفقر خزانتها فاضطرت مصر أن تلجأ الى بنوك أجنبية طالبة مساعدة مالية ، وانتهزت انجلترا تلك الفرصة ، وشرعت فى تنفيذ مشاريعها الاستعمارية ، وسارعت البنوك الانجليزية بتقديم القروض الى الحكومة المصرية بشروط قاسية ، واستخدم الانجليز جميع المناورات التى زادت من مصاعب الحكومة المصرية ، وبدأت بريطانيا تتحدث علنا عن عطفها على شركة قناة السويس ، وبدأت تكشف عن اهتمامها بالقناة ، وسارعت الى مكافأة فرديناندى لسبس الذى سبق أن وصفته بالاحتيال ، ومنحته الحكومة البريطانية عدة أوسمة رفيعة ، وأسبغت عليه لقب مواطن لندن وكان ذلك

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، جـ ١ ، ص ٨٤ .

ضمن خطة رسمتها بريطانيا للاستيلاء على القناة (١)، فهى بذلك - أى انجلترا - تريد بهذا العمل أن تحاول ارضاء فرنسا عن طريق أحد مؤسسى المشروع، وبالتالى تكسب ود الشركة المؤسسة تمهيدا للسيطرة عليها فى المستقبل، فى حين أغفلت الدولة العثمانية شؤون مصر نتيجة لسوء العلاقة بينها وبين الخديوى اسماعيل، حيث تجاهل السلطان ولم يدعه لحفلة افتتاح القناة واهماله جانب الولاء له، لذلك أصدرت الدولة فرمانا فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩م والموافق ٢٤ شعبان سنة ١٢٨٦هـ جاء به رسول من الباب العالى الى مصر عقب انتهاء حفلات القناة، وبهذا الفرمان قيد السلطان العثمانى حقوق الخديوى، فجاء فيه: انه لا يجوز للخديوى اسماعيل أن يقترض قروضا جديدة دون أن يبين وجه الحاجة اليها، ويحصل على اذن من السلطان، ويبدو لنا أن السبب لهذا التقييد للخديوى غيرة الباب العالى على مصر واستياءه من تورط اسماعيل فى الديون الباهظة مما يؤدى الى تدخل الدول الاجنبية، وهذا الذى تتلافاه الدولة العثمانية لانقاذ مصر، وبالتالى انقاذ القناة، واعلان الدولة العثمانية لذلك الفرمان جاء ليؤكد للعالم تبعية مصر والقناة لها، ولتصرف الدول الاوربية عن مطامعها فيها، الا أن اسماعيل أخذ فى تحسين علاقاته بالدولة العثمانية، عندما رأى أنه فى حاجة الى مساندتها، بعد أن خذلته الدول الاوربية، واشتدت ورطته المالية، فقصد

---

(١) جاليتنا نيكتينا، قناة السويس، ص ٢٢.

الاستانة ، فى صيف سنة ١٨٧٢م يصحبه اسماعيل صديق باشا وزير المالية ، ونوبار باشا وزير الخارجية ، ليسعوا فى اعادة العلاقات الودية بينهم وبين السلطان ، وبذلوا كثيرا من مظاهر الولاء ، بالاضافة للمال والهدايا حتى عادت علاقات الود بين الخديوى والحكومة العثمانية ، فنال فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٢م (٧ رجب سنة ١٢٨٩هـ) فرمانا يثبت الامتياز السابق منحه اياه وينسخ القيود الواردة فى فرمان سنة ١٨٦٩م ، كما نال فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢م (٢٢ رجب سنة ١٢٨٩هـ) خطا شريفا يؤكد فيه مزايا فرمان ١٠ سبتمبر ويخوله صراحة حق الاستدانة من الخارج دون قيد ولا شرط (١) ، وبموجب هذا الفرمان عادت الامتيازات الاولى ، وكان ذلك رغبة السلطان فى ارضاء الخديوى للمحافظة على سيادته على مصر ، الا أن تلك الفرمانات أتت بنتائجها السلبية على الدولة ، اذ عاد الانسلاخ من جديد عن الدولة ، هذا ويعتبر بداية شق قناة السويس الدليل الواضح على تدخل الاموال الاجنبية فى مصر ، اذ قيل عن فتح القناة انه يعادل فى تأثيره الاستعمارى بالنسبة للمسألة المصرية غزوة نابليون بونابرت ، اذ أنها أخذت شكلا آخر ، ودخلت دورا جديدا بعد فتح القناة (٢) ، على أننا لا نريد فصل المسألة المصرية عن الدولة العثمانية ، وذلك على اعتبار ارتباطها بالدولة العثمانية صاحبة النفوذ على

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) احمد رشدى صالح ، قناة السويس ، ص ١٩ .

مصر ، كما يعتبر تدخل الاموال الاجنبية فى مصر هو تدخل أيضا لها فى الدولة العثمانية .

وعلى الصعيد الدولى كان ضعف النفوذ الفرنسى على اثر انتصار المانيا فى الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠م على فرنسا قد مهد لانجلترا الطريق لتكون صاحبة الكلمة العليا فى المسألة المصرية ، واستطاعت أن تنفرد بالتدخل فى شوؤن مصر ، ونحن لا ننسى كما مر بنا أن التنافس بين الدولتين قد اشتد خاصة فى عهد انشاء قناة السويس ، ولكن تكافوء القوتين حال دون سيطرة احداهما على مصير البلاد ، ومن الملاحظ أن صوت فرنسا فى المسألة المصرية أخذ يضعف فى نهاية سنة ١٨٧٠م بسبب هزيمتها فى الحرب السبعينية فانتهزت انجلترا الفرصة لتنفيذ سياستها فى وادى النيل ، فمنذ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م بدأت انجلترا فى العمل على تثبيت مركزها فى مصر تمهيدا لاحتلالها ، وفى سنة ١٨٧٠م عهد الخديوى الى شركة انجليزية تدعى شركة جرانفليد Granvilled انفاذ مشروع توسيع ميناء الاسكندرية ، والقيام بأعمال الاصلاح فيها مقابل عدة ملايين من الجنيهات (١) وفى سنة ١٨٧٥م أخذ معين المال ينضب من بين يدى اسماعيل خديوى مصر ، بعد القروض الباهظة التى استدانها ، والاعباء الجسيمة التى ناءت بها الخزينة ، وذلك مقابل صرفها للمشاريع الاصلاحية التى قامت فى مصر ، ففكر فى بيع أسهم مصر فى القناة ، وعرضها

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٩١ - ٩٢ .

على فرنسا ، فترددت فى الامر ، ولكن الحكومة الانجليزية ما ان علمت بالمسألة حتى بادرت بشرائها ، لأنها وجدت فى هذه الصفقة فرصة سانحة لوضع يدها على القناة (١) ، وكان لهذه الصفقة صدى كبير فى كل أرجاء اوروبا ، اذ أنها أصبحت دليلا على أن انجلترا تركت نهائيا السياسة السلبية التى اتبعها جلادستون (Gladston) فى وزارته الاولى ، وأنها أصبحت الآن تتبع سياسة خارجية نشيطة ، وبدأ ديزرايلى Disraeli سياسة التسلط الاستعمارى التى قد بلغت أوجها فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى وذلك باحتلال الانجليز مصر ، وتصميمهم على البقاء فيها ، وتقسيم افريقيا والاشراف على مناطق كبيرة فى آسيا ، (٢) وكان أيضا من نتائج هذه الصفقة ، أن استطاعت انجلترا اتخاذ سياسة مالية خاصة ، واعتبرت مصر من بين مناطق النفوذ التى يجب أن تحرص عليها ، أما من جانب السياسة المصرية فان بيع حصة مصر فى أسهم قناة السويس كان مقدمة للتدخل الفعلى فى مالية مصر ، اذ لم تمض ثلاثة أيام على بيع الاسهم حتى أجاب طلب الخديوى الجنرال ستانتون Stanton قنصل انجلترا العام بالقاهرة بأن تعين انجلترا موظفين انجليزيين يستعان بهما فى ادارة شؤونه المالية وردت الحكومة الانجليزية على ذلك فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٧٥م بأن ألفت بعثة من خمسة أفراد من كبار موظفى الحكومة تحت رئاسة كيف

---

(١) مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج ١ ، ص ٣٧٤ .

(٢) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٥٤ - ٥٥ .

رئيس الصيارفة ووجهت اليها تعليمات بان تفاوض الخديوى وحكومته فى ادارة مصر ومركزها المالى ، وأن تقف على حقيقة الاضطراب المالى وتسدى النصيحة الى الخديوى (١) ، اذ أن هناك ارتباطا شديدا بين شراء أسهم قناة السويس وبين ارسال بعثة كيف Caiv ، بل هناك فرصة سياسية اغتنمتها انجلترا ، لأنها كانت تشعر أن مصر قد أوشكت على الانهيار وأنه لابد لها أن تتدخل فى شوءونها تدخلا مباشرا حتى تكسب بذلك مركزا سياسيا . وفى ربيع سنة ١٨٧٦م وحدت الديون الحديدة التى استدانتها اسماعيل فأصبحت دينا عاما يبلغ ٩١ مليون جنيه ، وكان هذا الاجراء قد اتخذ بغرض تنظيم حالة الفوضى التى وصلت اليها البلاد ، ثم وضعت أمور الدخل والخرج فى مصر تحت مراقبة ثنائية بين انجلترا وفرنسا . (٢)

لم تقف انجلترا عند ذلك الحد من التدخل فى شوءون مصر ، بل تطور الامر على مر السنين ، ففى سنة ١٨٧٧م أوعزت انجلترا الى الخديوى أن يعين غوردون باشا حاكما عاما للسودان ، ويعتبر هذا المنصب من أكبر مناصب الدولة العثمانية وأعظمها خطرا ، ويتم التعيين لهذا المنصب من قبل الباب العالى ، وهى المرة الاولى فى تاريخ مصر يسند فيها هذا المنصب السامى الى أجنبى . الاأن العلاقات الودية توثقت فى هذه الفترة ، بعد افتتاح القناة -

---

(١) شونفليد ، هيو ، ج ، قناة السويس ، ص ٩٠ - ٩١ .
(٢) رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٧٦ ، وانظر شونفليد هيو ج قناة السويس ، ص ٥٦ .

بين الخديوى وانجلترا ، وتعددت مظاهرها ، ففى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ م عقدت معاهدة بين الخديوى وانجلترا للتعاون على ابطال الرقيق ، وأخذت انجلترا بعد ذلك تسعى لامتداد سلطة مصر على الساحل الغربى لافريقيا لترث ذلك فيما بعد ، ففى ٧ سبتمير سنة ١٨٧٧م اعترفت انجلترا بسلطة مصر فى بلاد الصومال الشمالية ، فكانت هذه المعاهدة مظهرا من مظاهر العلاقات الودية بين مصر وانجلترا (١) فى وقت لم تعر فيه انجلترا أى اهتمام للدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر ، وسياسة الود هذه أتت بعد ضعف فرنسا ، اذ اتجه اسماعيل صوب انجلترا وذلك بقصد الحصول على نوع من الاستقلال الذاتى ، والتى كانت تشجعه انجلترا لتزيد من انسلاخ مصر عن جسم الدولة العثمانية ، الا أن التنافس بين فرنسا وانجلترا ظل قائما حتى هذا الوقت ولكن لم ترغب انجلترا فى اغضاب الحكومة الفرنسية بدليل موافقة انجلترا على اقتراح فرنسا بالا تدخل المسألة فى مناقشات موئتمر برلين سنة ١٨٧٨م ورأت استبقاء لصداقة فرنسا عدم احتلال مصر واستعاض سولسبرى Salisbury عن ذلك ، أى عن احتلال مصر وقناة السويس باحتلال جزيرة قبرص ، التى تشرف على آسيا الصغرى ، ومدخل القناة معا ، وذلك تمهيدا لاحتلالها مصر (٢) . وكانت انجلترا قد استطاعت أن تعقد اتفاقا مع الدولة العثمانية تعهدت فيه

---

(١) عبدالرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٠ ، ٦١ .

انجلترا بمساعدة الدولة العثمانية ضد أى عدوان يوجه الى ممتلكاتها الآسيوية ، فى مقابل استيلائها على جزيرة قبرص ، وادارة أمورها (١) ، وجزيرة قبرص تعتبرها الاستراتيجية الانجليزية قاعدة هجوم حين ترغب فى احتلال قناة السويس وتعتبر أيضا قاعدة دفاع عن القناة بعد احتلالها ضد الخطر الروسى فى الشمال ، واذا كانت الدولة العثمانية قد تنازلت للحكومة الانجليزية عن جزيرة قبرص ثمنا لمعاهدة دفاع مشترك فلم تكن الدولة العثمانية تدرك أن هذه الجزيرة سوف تكون قاعدة هجوم على أهم ولاياتها وهى مصر ، كما أن الاستراتيجية الانجليزية بدأت تفكر فى احتلال قناة السويس احتلالا عسكريا ، بعد أن تمكنت من احتلال جزيرة قبرص (٢) ، وكانت انجلترا تسير بموجب خطة لتأمين الطرق المؤدية الى الهند ، فباحتلال رأس الرجاء الصالح فى طرف افريقيا الجنوبى أصبحت آمنة على هذا الطريق ، لكن لما كانت مصر والسويس أقصر الطرق الموصلة الى الهند ، استطاعت انجلترا أن تحتل النقاط الاستراتيجية الموجودة على هذا الطريق ، فاحتلت قبرص ، ومضاز جبل طارق ، وجزيرة مالطة وباحتلالها هذه النقط فى البحر المتوسط أصبح ذلك البحر انجليزيا اذ أضحت لها سيادة عليه فى جميع أطرافه . (٣)

---

(١) د . مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٢) عبد الرؤوف احمد عمرو ، قناة السويس فى العلاقات الدولية ، ص ٥٨ .

(٣) محمد فريد بك المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

ونعود مرة أخرى الى مصر، فقد تعقدت المسألة المصرية فى أواخر عهد الخديوى اسماعيل ، حيث بدأت قوى المعارضة المصرية تظهر، وذلك نتيجة للتدخل المالى والسياسى الاوروبى فى شوءون مصر ، مما أثار مخاوف انجلترا وفرنسا فرتبتا مع الباب العالى عزل الخديوى اسماعيل (١) ففى ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩م تولى توفيق باشا حكم مصر الذى كان مركزها الدولى حينذاك غير محدد ، فلا هى دولة مستقلة ولا هى ولاية تابعة للدولة العثمانية ، وانما تبعا لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠م تعتبر جزءاً من أملاك الدولة العثمانية ، وقد اعترفت بهذه التبعية دول أوربا الكبرى انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا والمجر ، والخديوى فى مصر ، وان كان يتولى الحكم بطريق الارث لأنه من سلالة محمد على فانه لم تكن له الحرية التامة فى التصرف فى شوءون مصر الداخلية والخارجية (٢) ، وظلت فرنسا وانجلترا فى تعاون متواصل لاقتسام مصر بينهما وقد استهل حكمه بصدور فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩م مقيداً سلطة الخديوية ، ومن ثم أخذ سند الخديوية يتجه نحو الضعف وبدت كفة النفوذ الاوربى راجحة . (٣)

أما عن موقف الدولة العثمانية تجاه عزل الخديوى اسماعيل ، فقد رحب السلطان عبدالحميد - الذى تولى العرش العثمانى منذ سنة ١٨٧٦م - بعزل

---

(١) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٢ .

(٢) جمال الدين الشيال ، قصة الاحتلال ، ص ١١ .

(٣) عبدالعزيز الرفاعى ، قضية الجلاء عن مصر ، ص ١١ .

اسماعيل أملا فى أن يتخذ من هذا العزل ذريعة للتدخل فى شؤون مصر واسترداد الامتيازات التى نالتها هذه البلاد فى فرمانات ١٨٤١ - ١٨٧٣م اذ كانت قد أعطيت تلك الامتيازات ارضاء للخديوى حتى لا ينسلخ عن جسم الدولة العثمانية ، وشعوره الدائم بالولاء للباب العالى ، بعد أن رأت الدولة العثمانية أهمية مصر التى زادت بعد افتتاح قناة السويس لأنها ربطت اجزاء الدولة بالعاصمة استانبول ، ولكن السلطان عبد الحميد عجز عن نيل مراده أمام اصرار انجلترا وفرنسا على أن تحتفظ الخديوية المصرية بكافة الحقوق التى اكتسبتها فى عصر اسماعيل ، وكان من نتيجة ذلك أن تدعم النفوذ الاوروبى فى مصر فى عصر توفيق ، ولا غرو فقد شعر الخديوى الجديد بنفوذ الدول الاوروبية ممثلا فى عزل والده عن العرش ، ثم رأى أن الفضل فى ابعاد النفوذ والتدخل العثمانى فى شؤون مصر ، يرجع الى فرنسا وانجلترا اللتين وقفتا أمام محاولة عبد الحميد سحب فرمان ٩ يونية سنة ١٨٧٣ الذى منح مصر استقلالها الداخلى ، وأكد نظام الوراثة ، (١) وتوالت أحداث القرن التاسع عشر ، فزادت مصر انسلاخا عن الدولة العثمانية ، وتكونت لها شخصيتها كأمة عربية وذلك بانتعاش الثقافة العربية فى المدارس والمعاهد والصحف (٢) ، مما أثار الوطنية المصرية وأبرز معالمها ، وحينما أدرك المصريون المدى الذى بلغه

---

(١) حسن أحمد محمود ، محمد أنيس ، رجب حراز ، مصر فى العصور الوسطى والحديثة ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) شونفليد هيو ج ، قناة السويس ، ص ٥٦ .

الأجانب فى ادارة بلادهم ، وتيسير شؤونها عندها ثارت العاطفة الوطنية ، وظهر السخط واضحا (١) ، وأخذ المصريون يتطلعون الى قيادة منهم تحقق آمالهم فى الحرية والاستقلال ، وسار المصريون بخطى سريعة فى طريق الثورة ضد حكومة الخديوى الضعيفة والمستسلمة للنفوذ الاجنبى ، وبدأ دور الجيش فى الحركة الوطنية بما يعرف بالثورة العرابية ، نسبة الى أحمد عرابى الذى اختير لتزعم الامة فى ثورتها على السلطة الخديوية المتهمة بالاستسلام،(٢) رأى الباب العالى فى ضياع سلطة الخديوى بعد حوادث سبتمبر سنة ١٨٨١م (حوادث قصر عابدين) فرصة مواتية لتدبير احتلال مصر بجيش عثمانى ، لاسترداد النفوذ فى مصر ضمانا للقناة التى تسهل الامدادات للحجاز ضمانا للسيطرة عليها ، وابعاد الخطر الاجنبى عنها ، لكن فرنسا وانجلترا وقفتا موقف المعارضة من أى تدخل حربى يقوم به السلطان العثمانى فى مصر ، فاكتفى عبد الحميد بايفاد بعثة الى مصر لتحقيق أسباب العصيان العسكرى ، وعندئذ أرسلت الدولتان سفنهما الحربية الى مياه الاسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية ، الأمر الذى أرغم البعثة العثمانية على مغادرة مصر فى ٨ أكتوبر سنة ١٨٨١م(٣)

وتطورت الأمور فى مصر اذ سرعان ما انقلبت الحركة الوطنية السابقة الى ثورة

---

(١) محمد بديع شريف الدين وآخرون ، النهضة العربية الحديثة ، ص ٥٤٧ .

(٢) سيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٨١ .

(٣) حسين أحمد محمود ، محمد أنيس ، رجب حراز ، مصر فى العصور الوسطى والحديثة ، ص ٢٣٥ .

ضد سلطة الخديوى ، وأصبح من اللازم أن تقوم انجلترا وفرنسا بتدخل مشترك لحماية مصالحها ، ونشبت فتنة الاسكندرية فى ١١ يونية سنة ١٨٨٢م قتل فيها خمسون أوروبيا ، (١) الأمر الذى من أجله انعقد مؤتمر القسطنطينية فى ٢٣ يونيه سنة ١٨٨٢م ليبحث فى المسألة المصرية ، وانتهى المؤتمر فى ٦ يوليه سنة ١٨٨٢م ، وتقرر تسوية المسألة المصرية عن طريق التدخل العثمانى ، ويتضمن دعوة الباب العالى الى ارسال قوة الى مصر لاقرار النظام وفق (شروط محددة) ، غير أن السلطان رفض استجابة هذه الدعوة الى وقت متأخر لمعارضة فكرة التدخل العثمانى لتقيده بشروط اعتبرها مهينة له ، لا تتفق وحقوق سيادته على هذه البلاد ، ولأنه لم يكن يريد أن يظهر بمظهر من يخضع لسلطة الدول الاجنبية فى مسألة داخلية ، كما أنه لا يريد اثارة الشعور الاسلامى ضده بهذا العمل وقد انتهزت انجلترا هذه الفرصة وعزمت على التدخل فى مصر قبل أن تعتمد الدول المشاركة فى المؤتمر ، وتقدمها للباب العالى بعد أن توفرت العوامل لانفرادها بالتدخل المسلح وايقاف المؤتمر أمام الامر الواقع ، (٢) وكانت الشروط التى فرضها المؤتمر على الدولة العثمانية للتدخل المسلح فى مصر واعتبرها السلطان مهينة ، كان قد حددها جرانفيل Granville وزير خارجية انجلترا ، وهى أن تكون القوات العثمانية تحت قيادة الخديوى وأن لا تبقى بمصر أكثر من ثلاثة شهور ، وأن يتعهد السلطان بعدم المساس بامتيازات الخديوية وتعهداتها الدولية ، ومن ناحية اخرى كان تردد فرنسا من العوامل التى أدت

---

(١) شونفليد هيوج ، قناة السويس ص٥٦ (٢) عبد العزيز رفاعى .

الى انفراد انجلترا بالتدخل ، فقد اعتبر فريستيه M.de.Frey Cinet رئيس وزراء فرنسا أن الاستنجاد بالجنود العثمانيين ليس له مبرر بعد استقالة وزارة البارودى وفضل انتظار ما قد تتمخض عنه الحوادث فى مصر (١) ، وحينما وجد عرابى أنه مهدد بالغزو بدأ بتقوية حصون الاسكندرية ، وأرسل اليه أمير الاسطولين الانجليزى والفرنسى أن يوقف هذه التحصينات ، ولكن من غير جدوى ثم فضلت فرنسا ألا تمضى الى مدى أبعد من هذا الاحتجاج الرسمى ، وتلاشت بذلك سياسيا واختفت من المسرح المصرى (٢) ، وفى الساعة السابعة من صباح ١١ يوليه سنة ١٨٨٢م أمر القائد الاميرال سيمور Seymour بضرب الاسكندرية ، وأرسلت السفينة الكسندر أول قذيفة ، ثم تبعتها بقية البوارج والسفن ، ولكن الطوابى المصرية لم تجاوب الضرب الا بعد الطلقة العاشرة ثم بدأت المعركة ، ولم تكن بشهادة كل من كتب عنها معركة متكافئة ، فقد كانت مدافع الاسطول البريطانى أحدث وأقوى ، وكانت قذائفها أثقل وزنا وأبعد مرمى (٣) ودافع المصريون عن الاسكندرية دفاعا مشهودا ، حتى اضطروا الى اتخاذ قاعدة جديدة فى كفر الدوار ، حيث صمدوا هناك صمودا امتنع به تقدم الانجليز الى القاهرة ، فتحولوا الى الميدان الشرقى تجاه القناة ، (٤) وكانت انجلترا قد سعت بالطرق الدبلوماسية فى وضع خطة غزو قناة السويس ، اذ بعثت

---

(١) حسين احمد محمود ، ومحمد انيس ، ورجب حراز ، مصر فى العصور الوسطى والحديثة ، ص ٢٤٠ . (٢) شونفليد هيو ج ، قناة السويس ، ص ٥٦ .

(٣) جمال الدين الشيال ، قصة الاحتلال ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(٤) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٥ .

فى ٣٠ يوليو سنة ١٨٨٢م انذارا الى الباب العالى ذكرت فيه أنها - أى انجلترا - تعتبر نفسها مكلفة باقرار النظام فى مصر، وأنها ستمنع القوات العثمانية من النزول الى مصر، الا اذا أعلنت الدولة العثمانية اعتبار عرابى ثائرا، فأصدر الباب العالى ذلك الاعلان فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢م، واستغلت انجلترا ذلك المنشور ضد العرابيين أسوأ استغلال، كما حاولت انجلترا أن تعطى نفسها صفة قانونية فى احتلال القناة والحصول على تفويض من الخديوى يجيز لها هذا الاحتلال، فأبرق اللورد جرانفيل Granvill الى الاميرال سيمور Seymour فى ٢٤ يولية طالبا منه أن يحصل من الخديوى على السلطات التى تخوله حق احتلال قناة السويس، وقد كتب الخديوى التصريح المطلوب فى ٣١ يوليه، وهذا نصه " منحناكم التصريح باحتلال جميع النقط التى ترونها فى برزخ السويس، لضمان حرية الملاحة فى القناة، ولحماية المدن المجاورة لها، ومن فيها من الاهالى، وللقضاء على كل قوة لا تعترف بسلطانى" (١)، وكانت الخطة الانجليزية لاحتلال مصر قامت على أساس اتمام احتلال منطقة القناة قبل التفرغ لمقاتلة الجيش المصرى (٢) فصرحت انجلترا لقائدها البحرى فى بورسعيد أن يحتل من أجزاء القناة مايراه ضروريا لاتخاذ القناة قاعدة حربية، واذا ما احتلت انجلترا قناة السويس

---

(١) مصطفى الحفناوى، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة، ج ٢، ص ١٠٥

(٢) الدراسات الثقافية، قناة السويس ماضيها وحاضرها، ص ٢٦.

فانه من السهولة عليها السيطرة على بقية الاقاليم ، كما أن احتلال القناة هو كل ماترغب فيه انجلترا ، اذ أن القناة هي الشريان الحيوى لانجلترا وأنه فى الوقت الذى أرسلت فيه انجلترا الحملة على الاسكندرية أرسلت حملة أخـرى لتسير بطريق القناة ، وتنضم اليها قوة قادمة من الهند ، كما تنضم اليهـا الحامية الموجودة فى الاسكندرية ويقوم بوشمب سيمور Beauchamp Seymour قائد القوات البحرية بمعاونة هذه الحملة ، وأرسلت تعليمات الى الاسطول بمقتضاها يقوم بحماية القناة ، وأن تتخذ الحملة الانجليزية القناة قاعدة لها ، وخرجت السفن الانجليزية خلسة من الاسكندرية فى ظلام الليل واحتلـت بورسعيد فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٨٢م ، واتخذت من مبانى شركة قناة السويس بالمدينة مركزا لأعمالها الحربية ، (١) وأوقفت انجلترا مرور السفن عبر القناة واعترضت شركة القناة على هذا التصرف ، وطلبت من الدول أن ترسل كل منهـا سفينة حربية لمنطقة القناة لحماية حيادها ، وأرسل مجلس ادارة الشركة احتجاجا الى الدول جاء فيه " ان الخديوى لا يملك تقييد النصوص الصريحة فى صـك الامتياز وأن الشركة لا تقبل الاعتداء على حياد القناة ، وتعلن معارضتها للاعمال التى تستند الى ادعاءات سياسية غير مشروعة" (٢) وكانت الحكـومة الانجليزيـة

---

(١) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) د . مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .

تخشى من جانبها أن يقوم المصريون بردم القناة أو احتلالها أو اتلافها ، وكانت تقارير ممثلى انجلترا متشائمة ، وتنذر كما يقول الانجليز بالخطر الشديد على هذا الطريق البحرى الهام (١) ، وقد عبر الجنرال ولسلى (Wolsely) عن ذلك بقوله " لو أن عرابى قد أفلح فى سد القناة كما أراد ، لكنا مازلنا الى الآن فى البحار البعيدة نحاول محاصرة مصر ، ان تأخره أربعا وعشرين ساعة قد أنقذنا (٢) وبعد احتلال الانجليز قناة السويس ، كان على قادة الثورة العرابية أن ينشئوا على عجل الاستحكامات فى التل الكبير ، وقرر عرابى أن ينقل مركز قيادته من الجبهة الغربية الى الجبهة الشرقية فكان أول التحام بين المصريين والانجليز فى نفيشة وفى ١٤ سبتمبر اشتبك الفريقان فى موقعة التل الكبير وكانت موقعة فاصلة ، انهزم فيها المصريون ، وفى ١٥ سبتمبر احتل الانجليز القاهرة ، (٣) ، وهكذا استطاعت انجلترا احتلال مصر وقناة السويس بمفردها ، لأن سياستها كانت سائرة بخطة محكمة ، وكانت قناة السويس هى عماد انجلترا فى احتلالها مصر فلولا القناة ، ولولا تخاذل الدولة العثمانية ، وتردد فرنسا لما استطاع الانجليز أن يحققوا حلمهم فى مصر ، وتعتبر سيطرة انجلترا على قناة السويس تحكما فى حوض النيل كله ، بل فى آسيا وافريقيا حيث أمكنها أن تتوسع فيهما استعماريا الى غير حد ، كما أن احتلال انجلترا مصر معناه انتهاء السيادة الفعلية عليها ،

---

(١) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ٦٩ .

(٢) شونفليد . هيو . ج ، قناة السويس ، ص ٥٧ .

(٣) ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٦٥ .

مما يترتب عليه عدم تحكم الدولة العثمانية فى القناة والتى كانت قد سهلت لها السيطرة الفعلية على غرب الجزيرة العربية وعلى الاخص اقليم الحجاز ، وأصبح لازما على الدولة العثمانية أن تجد طريقا آخر غير القناة لتحافظ على سيادتها لغرب الجزيرة . وهكذا نشأت فكرة بناء سكة حديد الحجاز ، والذى سوف أتحدث عنه فى الفصل التالى ، بعد أن أخذت انجلترا على نفسها توطيد سيادتها على مصر على النحو التالى . كانت انجلترا تخشى أن يقوى الشعور الاسلامى ضدها بعد احتلالها مصر ، فحصلت من الخديوى على رسالة شكر يعرب فيها عن امتنانه للمساعدة الثمينة التى قام بها الجنود الانجليز لاعادة الامن الى بلاده . بذلك أظهرت انجلترا أعمالها على شكل تنفيذ ارادة السلطان العثمانى كما ذكرت سابقا ، وتلبية لرغبة الخديوى المصرى ، (١) كما سعت انجلترا فى دعم سلطة الخديوى ، واعادة العلاقات بين مصر والدولة العثمانية فى حدود الفرمانات وسعت أيضا لايجاد رجل يقوم محل المعتمد البريطانى ، فوقع اختيارها على كرومر Croomer الذى ظهرت خبراته فى الادارة ولحرصه على المصالح الاستعمارية للامبراطورية ، ليكون قنصلا عاما لها ، وفهم كرومر الاحتلال ومشاكله ، ووجهه توجيها لتوطيد أركانه ، وسعى فى القضاء على فكرة الجلاء بين الساسة الانجليز ، وكذلك فى داخل مصر ، ووجه الاحتلال الذى قام على أساس الايهام الذى أحاط به حتى بقى الامر فى يديه زهاء ربع قرن انتصر

---

(١) ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٦٥ .

فيه فى الميدان المصرى ، وكان كما قيل عنه" ... أنه يوفق بين آراء الاستعماريين فى البقاء ، وآراء جلادستون Gladston فى الجلاء ، فكان عليه أن يقنع بلاده بمبادئه وأن يسير الاحتلال وفق خطة معينة (١) ، وكانت انجلترا قد أرسلت الى دول العالم فى ٣ يناير سنة ١٨٨٣م مذكرة توضح فيها خطتها السياسية وتبرز احتلالها فتقول " ان حكومة جلالة الملكة بالرغم من وجود قوات بريطانية فى مصر مؤقتا ، لترغب فى سحب هذه القوات بمجرد ما تسمح بذلك حالة البلاد وما تتطلبه من الوسائل التى تكفل سلطة الخديوى وترى الحكومة أن واجبها الآن ازاء الخديوى يقضى عليها بوجوب اسداء النصيحة حتى تتضمن بقاء الاصلاحات التى يراد وضعها وتطبيقها" (٢) وكانت هذه النصيحة كما تعنيها بالنسبة لمصر لا تخرج عن المعنى الذى أرادته فى مذكرتها الى معتمدها الجديد السير آفلين بارنج بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٨٤م وهو "يجب عند البحث فى المسائل المهمة الخاصة بسلامة مصر أو ادارتها أن تتبع نصائح حكومة جلالة الملكة ما دام الاحتلال المؤقت مستمرا ، وعلى الوزراء والمديرين تنفيذ هذه النصائح ، والا أقيلوا من وظائفهم .." (٣)

وكانت انجلترا بعد احتلالها لمصر قد أخذت تستخدم المناورات وبذل

---

(١) عبد العزيز رفاعى ، قضية الجلاء عن مصر ، ص٥٠ ، ٥١ .

(٢) حسين فوزى النجار ، السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط ، ج ١ ، ص ٢١٤

(٣) جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٢٧ .

الوعود ، واستطاعت أن تؤجل النظر فى مسألة القناة مدة سنتين كاملتين ، وفى سنة ١٨٨٥م سعت الى فكرة عقد مؤتمر دولى ، وبدأ انعقاد ذلك المؤتمر فى شهر مارس سنة ١٨٨٥م بباريس واشتركت فيه الدول الكبرى والدولة العثمانية واسبانيا وهولندا ، ودعيت اليه مصر بصفة استشارية ، وفى خلال المؤتمر بذلت انجلترا جهودا عظيمة للابقاء على سيطرتها على قناة السويس بينما حاولت الدول المنافسة لها اضعاف ذلك النفوذ وضمان مصالحها الذاتية وكان من نتيجة الخلافات التى ثارت بين أعضاء البلدان المشاركة فى المؤتمر، أن عجزت عن الوصول الى نتيجة ، على الرغم من أنه استغرق شهرين ونصف الشهر(١) ، الا أن انجلترا استطاعت أن تؤكد حقوق الحكومة المصرية عندما وجدت محاولات مندوب الدولة العثمانية تسجيل حقوق العثمانيين ونفوذ السلطان العثمانى على مصر ، وليس غريبا على مندوب الدولة أن يبذل تلك المحاولات ، ليضمن السيطرة على ذلك الاقليم الحيوى ، والذى يساعد فى ربط غرب الجزيرة بالعاصمة استانبول ، وبالرغم من أن هذه الاتفاقية قد قررت مبدأ المساواة بين الدول وأكدته كما أقرت عدم انفراد أية دولة بنفوذ متفوق فى منطقة القناة ، الا أن الانجليز بحكم احتلالهم العسكرى للبلاد ومركزهم الممتاز فيها قد أصبح لهم بالفعل من الناحية العملية نفوذ متفوق فى القناة وكانت انجلترا قد اتهمت أثناء انعقاد المؤتمر السابق سياسة التحدث عن

---

(١) محمد مصطفى صفوت ، انجلترا وقناة السويس ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

الحق لصد أطماع الدول الاخرى عن مصر ، والانفراد بمركز ممتاز فيها ، كما استفادت من النصوص الناقصة والخاصة باستخدام القناة لأغراض عسكرية في الاتفاقية ، مما قلل فعلا من قيمة مبادئ الحياد والتجريد من السلاح . ان الاتفاقية تقضي بمنع انزال القوات العسكرية والاسلحة والمواد والمعدات الحربية في منطقة القناة أو عند مدخليها ، ولكنها قصرت هذا المنع على زمن الحرب فقط ، فتمكنت انجلترا من استكمال واعداد قواتها العسكرية وقواعدها الاستراتيجية ومخازن تموينها في منطقة القناة ، مما كان له أهمية كبيرة للانجليز ، وان حشد قوات عسكرية كبيرة واقامة قواعد قوية في وقت السلم أتاح لانجلترا أن تحافظ على سيطرتها في منطقة القناة ، وأعطاها مزايا على العدو في حالة الحرب ، كما أتاح لها أن تستخدم القناة لأغراض عدوانية حتى في الحالات التي لم تشترك أثناءها رسميا في نزاع مسلح (١) ، الا أن الباب العالي عندما رأى التوسع الانجليزي طالب بالجلاء ، لأن ذلك يخالف تصريحات الحكومة الانجليزية ، وتخشى الدولة العثمانية في حالة التوسع الانجليزي من أن تفقد مركزها في مصر ، وان كان اسميا ، وبالتالي تفقد مركزها في القناة ، مما ينتج عنه صعوبة الاتصال والحركة بالنسبة لغرب الجزيرة العربية وعلى الاخص الحجاز فعرضت انجلترا على الباب العالي سنة ١٨٨٧م الدخول في مفاوضات لتحديد تاريخ الجلاء عن مصر ، وشروطه ، وكانت حكومة المحافظين برئاسة سولسبري

---

(١) جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ٣٠ .

التى خلفت حكومة الاحرار فى الحكم راغبة فى ازالة ما تركه الاحتلال الانجليزى من توتر علاقات انجلترا بالدولة العثمانية وبفرنسا ، ولعلها كانت ترجو أن تصحح مركزها فى مصر ، وتضفى عليه صفة شرعية ولو ضحت باحتلالها للبلاد ، فأرسلت بعثة درومند ولف لمفاوضة الباب العالى فى هذا الشأن ، وقد اتفق المفاوضون على توقيع اتفاقية ، عرفت باتفاقية الأستانة وتضمنت النص على جلاء القوات الانجليزية عن مصر فى مدى ثلاث سنوات من ابرام الاتفاق أى فى سنة ١٨٩٠م، الا اذا قام خطر داخلى أوخارجى يقتضى تأجيل موعد الجلاء حتى يزول هذا الخطر (١) ، الا أن السلطان العثمانى رفض ذلك الاتفاق من أساسه ، على اعتبار أنه يتعارض مع حقوق السيادة العثمانية على مصر ، كذلك أدرك الباب العالى أن انجلترا تماطل فى موضوع الجلاء ، ولا تريد فعلا الانسحاب . وأحست انجلترا بموقف الدول من احتلالها لمصر وسياستها فى وادى النيل ، فرأت اهمال موضوع الجلاء ، واستمرت تسير فى سياستها التى تمليها عليها مصالحها الاستعمارية ، وخاصة بعد أن تولى روزبرى Rosbury وزارة الخارجية البريطانية ، الذى كان من عتاة الاستعماريين الانجليز وهو الذى ثنى جلادستون Gladston عن فكرته فى الجلاء عن مصر (٢) وكانت

---

(١) مصطفى الحفناوى ، قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، ص ١٥٩ .

(٢) حسين فوزى النجار ، السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط ، ج ١ ، ص ٢١٧ ، ٢١٩ .

انجلترا فى هذه الفترة تسلك سياسة استعمارية توسعية ، وتعترف بها علنا ، وذلك لأسباب اقتصادية ، لأن انجلترا تخشى أن تغلق البلاد المستعمرة أبوابها فى وجه التجارة الانجليزية فى حالة تركها للمستعمرات (١) ، وهكذا يتم بالاحتلال الانجليزى لمصر السيطرة الكاملة على الاحوال الداخلية وضياع مركز الدولة العثمانية وتصبح مصر تحت الحماية الانجليزية فى كل شىء الا فى الناحية الشكلية ، ونتجت من كل هذه الحوادث ثلاث نتائج تتصل بالقناة ، أولها أن انجلترا نالت قسطا كبيرا فى ادارة القناة ، فقد كان لها ثلاثة مقاعد من بين أربعة وعشرين مقعدا فى مجلس ادارة الشركة ، وذلك بعد أن اشترت أسهم الخديوى سنة ١٨٧٥ م ، ولكن زادت تلك المقاعد الى سبعة منذ الاحتلال الانجليزى ، ومنحت هذه المقاعد الزائدة لمندوبى المصالح التجارية الانجليزية ، وزاد مجموع المقاعد فى الوقت نفسه الى اثنين وثلاثين ، وهو العدد الذى قدر لمجلس الادارة فى الاصل ، الثانية : أن الدول قد اعترفت بأن انجلترا قد أصبحت حارسة للقناة ، وأنها تقوم فى مصر برعاية البرزخ الثالثة ، أن انجلترا كانت حريصة على أن تتفق مع الدول الاخرى بما يحفظ للدول حرية مرور سفنها فى كل الظروف والاحوال ، لكنها أرادت أن تحتفظ لنفسها بحق الدفاع عن القناة اذا أريد الاعتداء على مصر (٢) ، هذا وفى

---

(١) بيير رونوفن ، تاريخ القرن العشرين ، ص ٢٧ .

(٢) شونفليد هيوج ، قناة السويس ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

خلال سنوات السيطرة الانجليزية تحولت قناة السويس الى قاعدة عسكرية انجليزية ذات أهمية فى الشرق الأدنى والاوسط ، وأصبحت القناة حلقة فى سلسلة القواعد العسكرية البحرية التى أقامتها انجلترا من الجزر البريطانية الى الهند واستراليا مارة بجبل طارق وفاما جوستا بقبرص وبورسعيد والسويس وعدن وجزر موريس فى المحيط الهندى وسنغافورة ، وقد أقام الانجليز سلسلة من الاستحكامات الاستراتيجية والمطارات والمنشآت العسكرية الاخرى على طول القناة ، وخاصة حول البحيرات المرة ، وخرقوا بذلك الوضع الدولى للقناة والذى نصت عليه اتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨م بشأن قناة السويس ، وهى الاتفاقية التى تحظر اقامة أى منشآت عسكرية على طول القناة ، واتخذت القوات الانجليزية مقرا رئيسيا لقيادتها فى فايد بمنطقة القناة ، كما اتخذت من أبوسلطان قاعدة خزنت فيه أضخم كمية من الذخائر فى الشرق الادنى وأقامت فى أبوصير مطارا عسكريا على مساحة من الارض تبلغ عشرة كيلومترات ، وأنشأت القواعد العسكرية ، (١) ونتيجة لكل الاعمال الانجليزية فى المنطقة فان الدولة العثمانية فقدت جزءا هاما من أقاليمها المترامية الاطراف ، ولكن اسميا كانت مصر تابعة للدولة العثمانية ، لذلك استطاع الباب العالى أن يثير موضوع المسألة المصرية عند ما عين الخديوى عباس الثانى سنة ١٨٩٢م ، فوجد الباب العالى فرصة لاقتطاع شبه جزيرة سيناء من مصر ، وضمها الى مناطق

---

(١) جالينا نيكتينا ، قناة السويس ، ص ١٠ - ١١ .

السيادة العثمانية فى سوريا والحجاز وساعد فى ذلك ميول الخديوى الجديد نحو الدولة العثمانية ، وكان هذا تشجيعا للباب العالى لتحقيق خطته فى اعادة السيطرة على الضفة الشرقية للقناة ولم يلق هذا الاتجاه معارضة من الخديوى الجديد ، وكانت حجة الدولة العثمانية فى ذلك تقوم على أن هذه المنطقة فى الاصل تابعة لولاية الحجاز ، فأعادتها الدولة للخديوى اسماعيل بقصد وضع حاميات من الجند فى الوجه ، والمويلح وضبا ، وسيناء لتأمين قوافل الحج التى تسلك الطريق البرى الى الحجاز ، ثم استعادت الدولة الوجه وضبا والمويلح وتريد أن تستعيد ما بقى من الاقاليم لولاية الحجاز ، وثارت انجلترا ، وتراجع الباب العالى ، وصدر فرمان بأن تكون سيناء داخل الحدود المصرية ، وتضم العقبة لولاية الحجاز ، (١) وبذلك تكون الدولة العثمانية فقدت مصر ، هذا الاقليم الحيوى الذى كان يمد خزانة الدولة بأموال الضرائب المفروضة على ذلك الاقليم ، بالاضافة الى أن الخديوى كان يمد الجنود العثمانيين بالمؤن اللازمة للحملات المرسلة للحجاز أو لليمن كما أن السلطان العثمانى كان يعتمد قبل فتح القناة على الخديوى فى ارسال الحملات لاخضاع المناطق الثائرة فى غرب الجزيرة العربية ، والدولة العثمانية لم تفقد مصر فقط ، بل ومعها الامتيازات السابقة ، فضلا على ذلك الشريان الحيوى الذى يربط غرب الجزيرة بعاصمة الدولة

---

(١) حسين فوزى النجار ، السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، ٢٢٠ .

الاستانة ، مما سهل على الدولة أن ترسل حملاتها التأديبية رأسا من العاصمة الى الحجاز ومنها لمناطق اليمن ، كذلك فقدت الدولة سيادتها على القناة تلك السيادة التى تخول لها فرض ما تشاء من رسوم المرور بالاضافة الى فقدانها تلك الرسوم ، وأصبحت انجلترا هى المسيطرة على مصر ، وبذلك يكون فقدانها عائق لاستكمال نفوذ الدولة العثمانية فى غربى الجزيرة العربية وعليها أن تبحث عن بديل لذلك الطريق لتيسير الاتصال بين العاصمة الاستانة والحجاز ، فكان ذلك الطريق هو سكة حديد الحجاز الذى سأتحدث عنه فى الفصل الخامس.

أدى افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩م الى زيادة اهتمام الدولة العثمانية بالبحر الاحمر الذى أصبح أهم طريق للمواصلات الدولية بين الشرق والغرب، وبسواحل الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر، وخاصة الساحل اليمنى الذى أصبح الانجليز يسيطرون على جانبه الجنوبى المتحكم فى باب المندب، وذلك بسيطرتهم الفعلية على عدن وما جاورها، بعد أن تضاعفت أهمية موقعها وخطورته بتحول التجارة العالمية الى طريق البحر الاحمر، وقد أشرت الى ذلك بالتفصيل فى الفصل الثالث، والذى انتقلت فيه بعد ذلك الى الاتصالات التى قامت بين المسئولين فى جهاز الحكومة الانجليزية من جهة، وبين المسئولين فى حكومة الدولة العثمانية من جهة أخرى، الأمر الذى انتهى بانسحاب الدولة العثمانية من المناطق المجاورة لعدن، الا أنه منذ بداية التدخل العثمانى فى منطقة جنوبى الجزيرة العربية - كما سبق ذكره - صار النفوذ الانجليزى مهددا تهديدا خطيرا، وبدا واضحا أهمية الانتقال من دور الولاء والعطاء المتمثلين فى المعاهدات التى عقدتها مع شيوخ المناطق الى دور جديد يؤمن النفوذ الانجليزى، ويدعم بقاءه، ولم يكن هذا الدور الجديد سوى الحماية التى تمت مع الرؤساء العرب بموجب معاهدات عقدت بينهم وبين الحكومة الانجليزية وسأذكر ذلك فى الصفحات التالية، ففتح القناة قد سهل للدولة العثمانية نقل القوات من العاصمة الاستانة الى اليمن، أو الى الحجاز ومنها لليمن، واختلفت الحالة عما كانت عليه قبل فتح القناة .

ويجدر بنا أن نتبين معالم السياسة التى أتبعها البريطانيون لمواجهة خطر التوسع العثمانى فى المنطقة المحيطة بعدن ، والذى هدد الوجـــود البريطانى ، وذلك من خلال ما ابداه الماجور هنتر Hunter مساعد المقيـم السياسى فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٧٥م فقد قال (" ان التفاهم الحالى مع الباب العالى بخصوص القبائل المجاورة لعدن كان على أساس احترام استقلالهـا ، لأنها متحالفة وتتقاضى اعانات مالية من جلالة الملكة . . . وعلاقتنا مع القبائل لا تتضمن (بطبيعة المعاهدات المبرمة معها) استقلالها ، الا أن الاتفاقيات تنص على أنه بموجب دفع مبالغ معينة يتعهد الرؤساء بالمحافظة على فتح الطرق ، وعلى صداقة الحكومة البريطانية ، فاذا ما حاول الباب العالى أن يغرى أحدا من الذين يتقاضون رواتب شهرية منا بتحويل اتجاهه عنا فليس لدينا أسانيد دبلوماسية قوية ترتكز على حقوقنا تكفلها معاهدات ، يمكننا أن نعتمد عليها ، وحلفاؤنا قد يتخلون عنا مادمنا على غير اتصال بالمناطق الداخلية وهم يملكون القوة التى تمكنهم من قبول سلطة الباب العالى ، واذا ما عقدت معاهدات مع قبائل العبدلى والفضلى والعقربى يتم بمقتضاها وضع تلك القبائل تحت الحماية البريطانية ، فانه من الصعب على العثمانيين التدخل فى شؤون هؤلاء الرؤساء") . واسترسل هنتر يوضح خطورة امتداد النفوذ العثمانى بالنسبة للمصالح البريطانية " . . . وان غالبية - ان لم تكن كل القبائل التـى انضوت تحت الحكم العثمانى خلال السنوات القليلة الماضية ، تفضل أن تظل عثمانية . . " وكان رأى هنتر توثيقا وضمانا لربط القبائل المذكورة عقد معاهدات

جديدة أقوى وأشط مع العقربى والعبدلى والفضلى تضع أراضى تلك القبائل تحت الحماية البريطانية وأن مثل هذه المعاهدات يمكن عقدها بسهولة وذلك استبقاء لولائهم وربطهم بالحكومة البريطانية ، وتبقى حجة قوة يصعب من خلالها اتصال العثمانيين بهم ، كما كان يرى أيضا عقد اتفاقات أخرى مع قبيلة الحوشبى والعلوى ويافع السفلى تتعهد بمقتضاها هذه القبائل بعدم التنازل أو السماح باحتلال أو قبول أى سلطة أخرى عدا بريطانيا ، واقترح هنتر أيضا تفويض المقيم السياسى فى عدن فى اتخاذ أفضل سياسة تجاه القمطى والقبائل الاخرى الواقعة شرقى الطريق التجارى الممتد من عدن الى المناطق الداخلية وأنه بتنفيذ تلك المقترحات يمكن للاقامة فى عدن الوقوف فى وجه التقدم العثمانى فى الاتجاه الشرقى ، كما أيد الجنرال شنيدر Schneider والذى يشغل منصب مقيم سياسى فى عدن (١٨٧٢ - ١٨٧٨م) وجهة نظر هنتر التى تقول فى أن فرض الحماية سوف يوقف التدخل العثمانى فى شؤونها (١) ووافقت حكومة الهند البريطانية على توصيات هنتر ومقترحاته ، وذهبت الى أبعد من ذلك ، وأوصت بمد رقعة الحماية لتضم قبائل العوالق السفلى ، ودثينة والمهرة ، والقميطى ولم تقتصر حكومة الهند على ذلك ، بل انها أرادت أن تمتد حماية البريطانيين على أجزاء من ساحل حضرموت فى الاتجاه الشمالى الشرقى بين أراضى عدن ومسقط حتى لو تتطلب ذلك بذل بعض الاموال لترغيب

---

(١) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

شيوخ المناطق ،للدخول تحت الحماية البريطانية ،لتتجنب أى تدخل أجنبى آخر ،ولأنهاء الخلاف مع العثمانيين أراد الانجليز الاتفاق معهم على تحديد الحدود بين الاراضى الخاضعة للحماية البريطانية وبين تلك التابعة للحكم العثمانى ،وذلك لكى لا تثار بين الجانبين مشاكل جديدة تتعلق بمناطق النفوذ (١)، الا أن الدولة العثمانية لم تعر لذلك اهتماما لأنها تعتبر المناطق المجاورة لعدن هى فى الأساس تابعة للحكومة العثمانية ،والتدخل البريطانى جاء اعتباطا ،فاقترح اللورد دافرين Dufferun نتيجة لذلك فى أغسطس سنة ١٨٨٦م أنه " ... اذا لم يوافق العثمانيون على تحديد الحدود ،فانه يمكن تحديدها دون موافقتهم واجبارهم على احترامها ،على أى حال ،لم يستمر النزاع طويلا بين البريطانيين والدولة العثمانية بالنسبة لعملية تحديد الحدود بين منطقة نفوذ كل منهما ،ولم يكن ذلك بسبب تحقيق نصر عسكرى، أو لنجاح دبلوماسى لاحدى الدولتين ،بل ان المسألة قضى فيها على صعيد اليمن نفسه ،وبعيدا عن خطوط الحدود المقترحة ،فان العثمانيين الذين اتخذوا من اليمن كله ،بل من الجزيرة العربية عمقا لهم وظهيرا أثناء مواجهتهم للانجليز فى الجنوب . واجهوا فى اليمن ثورات كبيرة مسلحة ،سأتحدث عنها فيما بعد -أدت الى تأرجح موقف العثمانيين فى اليمن ،وبالتالى الى انحسار المد العثمانى (٢) الذى كان يسعى لاستعادة النفوذ الفعلى والسيطرة على تلك

---

(١) فاروق أباظه ،عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر، ص ٤٢٠ .

(٢) جاد طه سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن، ص ٣٠٣ - ٣٢٩ .

الاقاليم المجاورة لاقليم عدن التى أصبحت تحت دائرة النفوذ البريطانى وكان الذى أثار قلق الانجليز ودفعهم لعقد معاهدات الحماية مع رؤساء القبائل المجاورة لعدن هو قيام الدولة العثمانية سنة ١٨٧٥م بتنفيذ مشروع مد خط برقى عثمانى من تعز وحتى عدن ، وبطبيعة الحال سوف تمر بأراضى تلك القبائل التى ترتبط مع بريطانيا بمعاهدات صداقة ، وكانت الدولة العثمانية فى هذه الفترة متمسكة باستعادة نفوذها الفعلى على شبه الجزيرة العربية بأكملها ، وقد قام الوكيل العثمانى فى عدن باخطار السلطات البريطانية بأن عشائر لحج تحول دون مد الخط البرقى من تعز الى عدن وأن الباب العالى سوف يضطر الى استخدام القوة ضد هذه القبائل ، وقد عارضت بريطانيا هذا الاتجاه الخاص باستخدام القوة خشية أن يحقق ذلك كسبا جديدا للنفوذ العثمانى ، وأصرت السلطات البريطانية على أنه اذا أراد السلطان العثمانى مد خط برقى الى عدن فيمكن أن يتم ذلك عن طريق تقديم طلب الى الحكومة البريطانية للوصول الى اتفاق معها ، على ألا يصحب ذلك وجود قوة عثمانية فى تلك المناطق . (١)

والجدير بالذكر أنه منذ أن استولت بريطانيا على قبرص سنة ١٨٧٨م ، وكذلك بعد الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢م ساءت العلاقات بين بريطانيا والدولة العثمانية وازدادت توترا ، لذلك وجدت السلطات البريطانية فى الهند أنه من المرغوب فيه وضعانا لبقاء ولاء تلك المناطق لهم عقد معاهدات حماية مع

---

(١) فاروق أباظه ، عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ، ص ٤٢٠ .

رؤساء القبائل العربية المجاورة لعدن تحسبا لأى مفاجأة . وقد شجع التدخل العثمانى فى شؤون بعض هذه القبائل سنة ١٨٨٠م وضع الترتيبات الفعلية لعقد هذه المعاهدات ، (١) التى كانت على التالى : فى ٢ اكتوبر سنة ١٨٨٠م عقدت بريطانيا معاهدة حماية مع أمير الضالع ، وفى ٣ مارس سنة ١٨٨١م عقد معاهدة بين الفضلى وبعض القبائل المجاورة بشأن أراض متنازع عليها ، وقد لعبت بريطانيا دور الوسيط فى هذه المعاهدة ، وفى أول مايو سنة ١٨٨١م عقدت معاهدة حماية مع سلطة القعيطى (٢) ، كما أصبحت سلطنة لحج محمية بريطانية ، وذلك بموجب معاهدة عقدت فى ٥ مايو سنة ١٨٨١م تعهد فيها السلطان فضل بن على بن محسن بأن يكون مسئولا عن كل تعهد يحدث من رجال القبائل ، وألا يعقد أى معاهدة مع دولة أخرى ولا تشيد قلاع ولا عمارات على ساحل البحر الا باذن حاكم عدن ، ولا يجوز للسلطان أن يستورد أو يصدر سلاحا أو ذخائر أو عبيدا أرقاء أى أى نوع من التجارة أو المسكرات أو المكيفات من أى جهة من الساحل الى داخل البلاد الا بعد التصريح له من حاكم عدن ، وفى مقابل ذلك تعهد الانجليز بدفع راتب شهرى للسلطان ، وفى حالة قدومه لعدن تضرب له مدفعية حامية عدن احدى وعشرين طلقة (٣) ، وفى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢م عقد تبريطانيا

---

(١) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ١٨١ .

(٢) محمود كامل اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٤٢ .

(٣) أحمد فخرى ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٦٣ .

معاهدة مع سلطنة لحج ، اشترت بمقتضاها قطعة أرض فى منطقة الشيخ عثمان مساحتها خمسة وثلاثون ميلا كانت تابعة لسلطان لحج ، وانتقلت ملكية قناة المياه بين تلك المنطقة وعدن الى بريطانيا فى مقابل خمسة وعشرين ألف ريال وزيادة الاتاوة الشهرية التى تدفع للسلطان الى ألف ريال ، وفى ٢ يونيو سنة ١٨٨٢م عقدت معاهدة حماية مع سلطان العوالق السفلى ، وفى ٢٦ يوليو سنة ١٨٨٣م عقدت بريطانيا معاهدة مماثلة مع الشحر والمكلا (سلطنة القعيطى) ، وفى ٢٣ ابريل سنة ١٨٨٦م عقدت معاهدة حماية بين بريطانيا وسلطنة المهرة (قشن وسقطرة) وفى أول مارس سنة ١٨٨٨م عقدت معاهدة مماثلة مع سلطنة القعيطى ، وفى ٢٧ ابريل من نفس العام عقدت معاهدة مماثلة مع شيخ عرقة وفى اليوم التالى عقدت معاهدة مماثلة مع شيخ حورة ، ولم يكن لتلك المشيختين كيان سياسى ، وانما هما مدينتان صغيرتان على شاطىء المحيط الهندى تقعان فى سلطنة الواحدى ، وفى أول يونيو سنة ١٨٨٨م عقدت معاهدة مماثلة مع العوالق السفلى ، وفى ١٥ يوليو عقدت معاهدة مع شيوخ العقربى ، اذ باع بمقتضاها قطعة من أرض الشاطىء لتكملة انشاء مستعمرة عدن مقابل ألفى روبية ، ووضعت العقربى تحت الحماية البريطانية ، وفى ٤ أغسطس عقد اتفاق بين الفضلى والعبدلى "لحج" لتعيين الحدود فلعبت انجلترا فيه دور الوسيط ، ووضعت الفضلى تحت الحماية البريطانية . وخطت السياسة الاستعمارية خطوة تالية فى صلاتها بجنوب شبه الجزيرة العربية ، اذ مدت سلسلة معاهدات الحماية ، ففى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٨٩م عقدت

معاهدة مع الصبيحة ، وفى ٢٥ مارس سنة ١٨٩٥م عقدت بريطانيا معاهدة حماية مع سلطنة الواحدى ، وفى ١٦ يوليو من نفس العام عقدت معاهدة حماية مع يافع السفلى ، وفى ١٦ أغسطس سنة ١٨٩٦م عقدت بريطانيا معاهدة حماية مع الحوشبى ، وفى ٧ يناير سنة ١٩٠٢ عقدت بريطانيا معاهدة حماية مع عرقة فى جنوبى شبه الجزيرة أيدت ما جاء فى معاهدة ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٨م ، وفى ٧ ابريل سنة ١٩٠٢ عقدت معاهدة مماثلة مع شيخ حورة أيدت ما جاء فى معاهدة ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٨م ، وفى ١١ مارس و ٣ يوليو ، و ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٠٣ عقدت معاهدات صداقة مع قبائل تابعة ليافع العليا ، وفى ٢١ أكتوبر من العام نفسه عقدت معاهدة مماثلة مع سلطان يافع العليا ، وفى ٢٩ ديسمبر من العام نفسه عقدت معاهدة مماثلة مع أحمد محسن العقبى شريف بيحان (١)

وهكذا استطاعت بريطانيا بتلك المعاهدات التى عقدتها مع شيوخ القبائل المجاورة لعدن أن تتحكم فى المنطقة بأكملها لتتجنب الصدام مع الدولة العثمانية ، ولتكون عائقا أمام الدولة لتكملة نفوذها على شبه الجزيرة ، وكانت بريطانيا فى أثناء تلك المدة حريصة كل الحرص على المنطقة ادراكا منها باهميتها الحيوية ، وتحفظا مع طمع الدولة العثمانية ، ومن الملاحظ أن المعاهدات السابقة التى فرضتها بريطانيا على زعماء القبائل اليمنية فى جنوب اليمن تميزت بتشابهها ، بل انها تكون صورة مكررة لبنود محددة ، كان أهمها تعهد

---

(١) محمود كامل ، اليمن شماله وجنوبه ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ .

السلاطين والامراء اليمنيين فى مقابل تمتعهم بالحماية البريطانية بعدم الاتصال أو الاتفاق أو التعاقد مع أية قوى أو دول أجنبية الا بعد موافقة الحكومة البريطانية ، كما أنهم تعهدوا أيضا بعدم التنازل أو بيع أو رهن أو تأجير أية أرض من أراضيهم لأية دولة أجنبية فيما عدا الحكومة البريطانية على أنه لم تمض سنة ١٨٩٦ الا وكانت هذه المعاهدات قد تم عقدها بين الحكومة البريطانية وسبعة عشر حاكما من الحكام العشرين فى المنطقة المحيطة بعدن . (١)

وهكذا انتقلت السياسة البريطانية فى عدن من طور المعاهدات الولائية والتى ذكرناها فى الفصل الاول الى طور المعاهدات الخاصة بالحماية مع القبائل المحيطة بعدن ، وذلك بمرونة ودهاء تميزت بها السياسة البريطانية على وجه الخصوص والذى عبر عنه أحد أعمدة الساسة فى بريطانيا اذ قال : " ان المبدأ المرن فى السياسة هو أصلح المبادىء لحل المشاكل الخارجية أو الاستعمارية" (٢) . وكانت أبعاد السياسة البريطانية التى اتبعت مع سلطنات ومشيخات المنطقة المجاورة لعدن بجنوبى اليمن ، كانت تتغير من حين لآخر تبعا لتغير المقيمين السياسيين البريطانيين المسؤلين عن السلطنة فى عدن (٣) ، وعلى هذا النحو أخضعت بريطانيا صغار الامراء المحليين

(١) فاروق اباظه ، عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ، ص ٤٢٢ .

(٢) أمين الريحانى ، ملوك العرب ، ص ٣٧٢ .

(٣) فاروق اباظه ، عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ، ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

لسلطتها ، وقد ضمنت لهم المحافظة على الاستقلال الذاتى ضمن حقوق السيادة لسلطات الحمية ، وقد ترك لحكومة الهند أمر ادارة المنطقة حيث الرقابة غير المباشرة ، والتى كانت تتم عن طريق سلطات عدن وهذه السلطات الاخيرة لم تسمح ولم تعمل على السيطرة على النزاعات القبلية ، بل ذهبت الى حد اعطاء زعماء القبائل صفة الامارة والسلطنة والمشيخة ، ووضعهم على رأس دويلات مصطنعة ، لذلك قامت فى ظل السيطرة البريطانية مجموعة من المحميات تتكاثر كلما عقدت معاهدات جديدة للحماية مع زعماء آخرين (١) ، على أن الانجليز هم المستفيدون من نظام الحماية ، وهم أيضا قد زادوا من اشتعال المنافسات المحلية ، بارسال كمية من الاسلحة من جيبوتى Djibouti الى شبه الجزيرة العربية وكان هذا السلاح من نوع البنادق التى يحملها الفرسان ، وهى تشبه البارودة أو بندقية الششخان الصغيرة

والعرب قادرون على تعبئة الخراطيش ، وفشكات الذخيرة فى البيوت ، وقد اعتاد رجال قبيلة الصبيحية انزال الاسلحة والذخيرة الحربية فى منطقة رأى العرى التى تقع غرب عدن . واستمر ذلك حتى وضع السلطان حراسا فى ذلك الخليج ، وفى سنة ١٨٨٣م أمرت الحكومة الهندية بوجوب منع الأسلحة الفتاكة من من دخول المحميات ، ولكن العربى يتوق الى البندقية ، ويجد الطريق للحصول عليها ، وأخيرا منع استعمال البنادق الفرنسية واستبدلت ببنادق انجليزية

---

(١) محمد عمر الحبشى ، اليمن الجنوبى ، ص١٧ .

من نوع Martini Henny Riffe (١) .

وكنتيجة حتمية لفرض الحماية على النواحي التسع والتي عرفت فيما بعد باسم محمية عدن الغربية ، فقد سعى السياسيون البريطانيون لفرض الحماية على حضرموت والمهرة ، تحسبا من تدخل نفوذ آخر، وعلى الأخص الدولة العثمانية ، بسبب ادعائها الأحقية في الجزيرة العربية بأكملها ، وقد استعمل البريطانيون الطرق الملتوية ، والقائمة على أساس الخداع واستغلال الخلافات وتطبيق الانتهازية السياسية ، والطرق اللاخلقية ، في استمالة رجـال القبائل وزعماء العشار وذلك بدفع الاموال لهم ، وبذلك تم للبريطانييـن اخضاع النواحي التسع بالاضافة الى السلطنة القعيطية والسلطنة الكثيريـة وسلطنة المهرة وقشن ، وحضرموت الى محمية بريطانية عرفت باسم محمية عدن الشرقية (٢) ، وفي خلال هذه المرحلة كانت الادارة تابعة لحكومة بومبـي التي كانت ممثلة في بعض المشاهرات البسيطة للأمراء والشيوخ استطاعـوا المحافظة على وجودهم في عدن وجنوب اليمن ، فلولا نظام الحماية لكانوا قد احتاجوا الى صرف مبالغ طائلة لتوفير القوات اللازمة التي يمكنها أن تحافظ على وجودهم هناك وتدرأ عنهم خطر هجوم القبائل اليمنية على قواتهم من الداخل .

---

(١) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ١٠٧ .

(٢) محمد حسن العويلي ، اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربي ، ص ١٦ .

ويشير أمين الريحانى الى أن البريطانيين "... تجار لا يبارون ، كما أنهم ساسة محنكون ، فاذا خيروا بين نفقات الجيش والمشاهرات يختارون الثانية ولا غرو ، واذا اعتبرنا مصالحة انجلترا أولا ثم العالم الذى تهمه محطة المواصلات البرقية والبخارية لصفقة غانمة ، أما اذا اعتبرنا مصلحة العرب فيحتوينا الأسف والغم لأنهم الخاسرون فى كل حال ، الخاسرون وان تضاعفت الأموال "(١) ومن المؤكد أن نظام الحماية السابق الذكر لم يكن مجديا لليمنيين على الاطلاق لأنه لم يوفر لقبائل المنطقة المحماية من الغزو الخارجى ومن اشتعال نيران الحرب داخليا فيما بينهم ، ولا أدل على ذلك مما أوضحه اللورد بلهافن Lord Belhaven الذى عمل مساعدا للمقيم السياسى البريطانى فى عدن ، عندما أكد أن نظام الحماية وما استتبعه من اهداء البنادق والاسلحة المختلفة لشيوخ القبائل اليمنية قد عمق الخلافات بين أبناء الوطن الواحد ، وزاد من حدة الحرب الاهلية وتفاقمها ، وأشعل لهيب القتال بين القبائل (٢) ، ومن ذلك أن سلطان لحج تعود على مهاجمة قبائل الصبيحى الذين وصفهم أحد الكتاب بأنهم (فرسان قطاع طرق) ، وكان سلطان لحج شخصا غير موثوق به من قبل العثمانيين الذين ارتابوا فى انه يستورد الاسلحة التى كانت ترسل الى الامام ، وكان المقيم

---

(١) أمين الريحانى ، ملوك العرب ، ص ٣٨٥ .

(٢) فاروق أباظه ، عدن والسياسة البريطانية فى ملوك العرب ، ص ١٠٧ .

البريطانى فى عدن يتمتع بامتيازات واسعة ، فقد كان فى الوقت نفسه حاكما مدنيا وقائدا أعلى للقطاعات المتمركزة ، وكان يساعده ثلاثة أو اربعة من كبار موظفى مصلحة الادارة السياسية للهند ، ومصلحة المستعمرات وكان يضاف الى هذا العدد المحدود قاض وقائد للشرطة ورئيس لادارة المرفأ ، واستمرت الادارة على ذلك مايقارب نصف قرن ، لم تتغير الا بعد أن طرأت تحـولات سياسية على الهند بعد الحرب العالمية الاولى . (١)

وهكذا نلاحظ ماسبق ذكره ، أنه نتج عن افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م عودة الدولة العثمانية لفرض سيطرتها على اليمن ، ومن هناك رأت الدولة أن تمد سيطرتها على المناطق المجاورة لعدن ، لأنها رأت فى نفسها صاحبة الحق على تلك المناطق ، ولها سيادتها على كل أنحاء الجزيرة العربية ولكن بريطانيا كما رأينا عقدت معاهدات الصداقة مع شيوخ القبائل المجاورة لعدن ، وكلما رأت بريطانيا خطة الدولة العثمانية فى محاولات لاعادة السيطرة العثمانية على تلك المناطق قام البريطانيون بتطوير سياستهم مع القبائل المحيطة بعدن ، فعقدت مع شيوخ القبائل معاهدات حماية حتـى تقطع كل أمل فى اتصال الدولة العثمانية بهؤلاء الشيوخ ، وذهبت بريطانيا الى أبعد من ذلك اذ استطاعت أن تعقد معاهداتها مع سبع عشر مشيخـة

---

(١) محمد عمر الحبشى ، اليمن الجنوبى ، ص ١٨ .

من بين عشرين ، كما مدت معاهداتها مع القبائل الموجودة فى حضرموت وعلى الاخص تلك المحيطة بالساحل المطل على المحيط الهندى ، على أن هذه السياسة البريطانية كانت تهدف الى المحافظة على انفراد بريطانيا بالنفوذ المطلق فى عدن ، وفى المنطقة المحيطة بها ، وابعاد أى نفوذ آخر يهدد مصالحها ، وبالفعل نجحت تلك السياسة وكانت بمثابة حجر عثرة أمام الدولة العثمانية فى محاولاتها لاستكمال نفوذها على شبه الجزيرة العربية بوجه عام ، وعلى منطقة اليمن بوجه خاص خصوصا وقد فقدت السيطرة على قناة السويس التى شجعتها فى محاولتها لاستعادة هذه السيطرة اذ كانت الطريق الذى تعبر منه القوات العثمانية ، كما سهل عملية الامدادات ، أما الآن وقد فقدت القناة ، فعليها أن تبحث عن البديل فكان ذلك هو سكة حديد الحجاز ، الذى سأتحدث عنه فى الفصل اللاحق .

عندما خضع اليمن لسلطة الدولة العثمانية ترك العثمانيون بصورة اجمالية للعرب ادارة شئونهم بأنفسهم مع وجود حد أدنى من التدخل طالما كانوا يدفعون خراجا سنويا ، والذى كان عبارة عن الجباية التى كان يلتزم بها بعض الأشخاص وتدفع من دخل الفلاحين (١) ، وذلك حتى يتمكن المسؤلون العثمانيون من تغطية نفقات الحامية العثمانية الموجودة فى اليمن وأن ينفذوا بعض المشروعات هناك ، الا أن غالبية الولاة والمتصرفين العثمانيين استغلوا جمع الضرائب لمصلحتهم الشخصية واستبدوا فى تحصيلها ، واستعملوا شتى الطرق وأعنف الوسائل لجمعها ، مما أثار حقد اليمنيين ، وأشعل نار الثورة ضد الحكم العثمانى ، (٢) وقد ذكر الواسعى ذلك " ... كان القائمقام أو غيره من المأمورين اذا خرج لأى قضاء أو ناحية لأخذ الأعشار أخذ ما قدر على تحصيله لنفسه ولم يساعد على كتب سند ما أخذ منهم ، ثم يرجع للحكومة ويقول لم يدفعوا شيئا ، ثم تأمر الحكومة بنهبهم وخراب بيوتهم واحراقها ويتظاهر المأمورون بأن أهل اليمن أشقياء ومذهبهم زيدية ... " (٣) لذلك ازدادت الكراهية بين العرب عامة والترك فى غضون القرن التاسع عشر نتيجة لانتشار الفوضى فى الاطراف النائية من الدولة ، وقد حاولت الدولة علاج ذلك عن طريق التنظيمات التى شرعت الدولة فى تنفيذها منذ منتصف القرن التاسع عشر

---

(١) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص٧٩ .

(٢) جاد طه ، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، ص ٣٠٧ .

(٣) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص١٤٠ .

والتى اتصفت بالصفة المركزية ، فقد حاولت الدولة أن تتخلص من نظام الالتزام فى جميع الضرائب ، وأن تستعيض عنه بنظام آخر للجباية أكثر ملاءمة لمصالح السكان ، وبنظام آخر لادارة الولايات بتقسيم الدولة الى وحدات ادارية مرتبطة بالحكومة المركزية المباشرة ، (١) وقد أشرنا من قبل الى قانون الولايات الذى أصدرته الدولة سنة ١٨٦٤م .

على أن الحكم العثمانى لم يكن ثابتا فى اليمن ، وذلك بسبب استمرار الثورات ، اذ لم تكن للعثمانيين شعبية فى تلك المناطق ، كما أن الحروب التى شنها اليمنيون من المرتفعات منذ سنة ١٨٩٢م وتكبدت الدولة نتيجة لذلك خسائر فادحة ، حتى سمى اليمن بمقبرة الاتراك ، وقد ذكر أحد الائمة القدامى فى صنعاء ، أنه اذا أراد العثمانيون البقاء لسلطتهم فى بلاد اليمن أن يتخلوا للعرب عن الاماكن التى يكون الحرف الاول من اسمها مكتوبا بالصاد ، وذلك مثل صنعاء ، وصبر ، وصعدة وصبيا وكانت الفكرة تقوم على أساس أن للعثمانيين أن يحتفظوا بالمدن الساحلية ، وأن يتركوا داخل البلاد للائمة الذين كانوا شيئا مزعجا للعثمانيين ، خاصة رجال قبائل حاشد وبكيل الذين يعدون من أحسن البطون والعشائر المحاربة فى اليمن ، وعلى الأخص على الذين يقال لهم " ذو محمد ذو حسين " الذين كانوا متطرفين بتعصب ضد التسلط العثمانى (٢)

---

(١) توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٥ .

(٢) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ٧٥ .

كما أشرت في البداية كان بعض الولاة العثمانيين هم السبب المباشر في ثورة الاهالي لأنهم انتهجوا في اليمن منهج العسف كوسيلة لتوطيد الحكم العثماني في اليمن ، وكثيرا ما كانوا يعتقلون العلماء والتجار ولا سيما في صنعاء ، وذلك بتهمة ولائهم للائمة الزيديين ، وكان من هؤلاء عثمان باشا ١٣٠٥-١٣٠٧هـ (١٨٨٨-١٨٩٠م) الذي انتهج سياسة الارهاب في اليمن ، وأشاع أخذ الرشوة كما قام باعتقال العلماء ومنهم عبد الله الضلعي ويحيى بن أحمد المجاهد صاحب تعز ، ثم أتى من بعده عثمان نوري باشا ، وكان مستقيما متواضعا ، الا أن كبار موظفي العثمانيين عملوا على عزله من منصبه ، وعاد الى تركيا ، ثم تولى بعده الولاية اسماعيل حقي باشا ١٣٠٧ - ١٣٠٨هـ (١٨٩٠ - ١٨٩١م) (١) وفي سنة توليته سنة ١٨٩٠م توفي الهادي الامام شرف الدين بن محمد ، وأجمع أهل الأهنوم على مبايعة محمد بن يحيى حميد الدين الذي كان قد سجن في الحديدة ، واستطاع الفرار الى الاهنوم ، (٢) وتلقب بالمنصور ، ومن الأهنوم أخذ يرسل الى أتباعه ورجاله في جميع اليمن لاستثارة القبائل والعمل ضد العثمانيين (٣) وقد أيدته جميع القبائل واستجابت لنداء الحرب ، وكان من الطبيعي أن يقع خروج الامام المنصور من صنعاء ، وتحريض القبائل اليمنية على

---

(١) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسي ، ص ٣٥٢ .

(٢) أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، ص٢٦٥ .

(٣) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ٨٦ .

محاربة العثمانيين وقعا كبيرا على رجال الدولة العثمانية ،وذلك لما للمنصور من المحبة والنفوذ بين رجال القبائل الذين يخشون بأسهم ، وكانت قبائل اليمن قد سئمت ضغط العثمانيين ،لذلك سرعان ما التفت حول الامام ، مما أدى الى اتجاه القبائل الى محاصرة صنعاء سنة ١٨٩١م بعد أن سيطروا على حصن " ظفير حجة" وسور ،والشرف ،ويريم ،وذمار ،وحفاش ،وملحان ،والروضة وغيرها من جهات صنعاء ،وقبل أن يحاصر الامام المنصور مدينة صنعاء ، قام بمحاربة العثمانيين فى بلاد الشرف سنة ١٨٩٠م حيث تمكن من هزيمتهم ،وقتل قائد الحامية العثمانية هناك وكان يدعى محمد عارف ،وكان لهذه المعركة أسوأ الاثر لدى الاتراك العثمانيين فى اليمن فى ذلك الوقت (١) ،كما أن قبائل همدان ثارت سنة ١٨٩١م (١٣٠٨هـ) بزعامة شيخها يحيى بن يحيى دوزه ، فخرج على باشا من صنعاء يرافقه السيد محمد بن على الشريع شيخ ضلاع ،وعندما وصلوا الى قاع المنقب ،تقابلوا مع أحمد بن محمد الشرعى الحسنى ومعه جموع كثيرة من القبائل اليمنية وقد نشب بين الفريقين قتال عنيف ،وكان ذلك فى عهد الوالى العثمانى اسماعيل حقى باشا ،الذى منع المأمورين من الارتشاء ،وكانت اليمن خلال ولايته أحسن مما كان قبله ،ثم توفى سنة ١٨٩١ (١٣٠٨هـ) بعد ذلك ثارت القبائل اليمنية ضد العثمانيين فى معظم أرجاء اليمن وبخاصة فى بلاد

---

(١) فاروق اباظه ،الحكم العثمانى فى اليمن ،ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

البستان ،وهى مخلاف كبير يقع غربى صنعاء ويجاور آنس والخيمة وهمدان وسنحان ،وقام اليمنيون هناك بانتزاع أسلاك البرق ونهبوا البريد الوارد من الاستانة الى صنعاء عاصمة الولاية (١) ،وقد سبقت هذه المناوشات عطية حصار صنعاء التى تمت بعد أن انهزم العثمانيون ،وتراجعوا أمام هجمات القبائل اليمنية فى المواقع السابقة ،وقد اشتدت وطأة الحصار حول صنعاء وتعز واستمر شهرين ،ويصف الواسعى الحالة السيئة فى اليمن وقتئذ وخاصة صنعاء فيقول " وحصل للناس ضيق شديد بالحصار لعدم الطعام فمن كان له طاقة وقدر على الصبر ومعه ما يقوم بقوته هو وأهله قعد فى صنعاء مع الخوف وقد باع الناس أموالهم وأمتعتهم بثمن رخيص فى مقابل قوت لهم ،ومن لم يقدر على الجلوس فى صنعاء خرج هو وأهله وظن أنه يخرج من الظلمات الى النور، فاذا خرجوا لقيتهم القبائل الذين عاثوا فى الارض فسادا وبغوا على امام الحق بغيا وعنادا ..." (٢) وعندما اشتدت المقاومة على العثمانيين فى اليمن انهالت البرقيات من الحديدة على الأستانة لطلب الامدادات العسكرية اللازمة لاخماد الثورة ،ومن ثم أرسل السلطان العثمانى القائد احمد فيضى باشا الى الحديدة لقمع الثورة وعينه واليا لليمن ،وتقدم فيضى باشا على رأس قواته وقضى على الحصار وتمكن من دخول صنعاء (٣) ،وذلك بعد حروب قاسية بين الطرفين ،وعندما

---

(١) الواسعى ،تاريخ اليمن ،ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) الواسعى ،تاريخ اليمن ،ص ١٤٥ .

(٣) جاد طه ،سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ،ص ٣٠٨ .

دخل صنعاء أعلن عفوا عاما عن القبائل التى حاربت العثمانيين ، وطلب منها التفرق والعودة الى مناطقها ليتمكن من التفاهم مع الامام المنصور لبحث امكانية التشاور والصلح ، ولكن الامام المنصور وضع شروطا للصلح لم يقبل بها الجانب العثمانى ، ثم قدم السيد محمد الرفاعى من تركيا الى اليمن لاستئناف مباحثات الصلح مع الامام المنصور ، وذلك سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٧م) وجرت بينهما مراسلات لم تفلح فى تحقيق اتفاق بين الجانبين ، وعاد الرفاعى الى تركيا (١) وكان السلطان العثمانى قد حاول استقصاء أسباب تذمر اليمنيين من الحكم العثمانى لحل المشكلة ، فأرسل لهذا الغرض ناظم بك الذى وصل اليمن ، عندها تقدم اليمنيون اليه بشكاوى عديدة من سوء ادارة أحمد فيضى باشا ، فاضطر السلطان أن يعزل هذا الوالى ويعين مكانه حسين حلمى باشا ١٣١٥ -١٣١٨هـ (١٨٩٨ - ١٩٠١م) (٢) ، والذى وصف بالاستقامة وحب العلماء ومحاربة الظلم والرشوة ، وكما ذكر أنه أنشأ دارا للمعارف ودورا للمعلمين ومكتبا للصنائع كما أنشأ لاول مرة المدارس الاعدادية فى صنعاء وسن التعليم الاجبارى ، وكان التعليم قاصرا على علوم الشريعة والعربية فى المساجد ، كما كون حسين حلمى هيئة استشارية من العلماء ورجال السياسة ، وكان لا ينفذ امرا دونها ولبس العمامة اليمنية وأمر الموظفين بلبسها بدلا من الطربوش الذى عممه أحمد فيضى

---

(١) محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسى ، ص ٣٥٣ .

(٢) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ٨٦ .

باشا على جميع الموظفين (١) ،وهكذا عاد الهدوء الى ربوع اليمن فى عهد هذا الوالى الذى أراد أن يضع مبادئ الاصلاح فيه ،ويجعل من اليمن ولاية اعتيادية ليدعم النفوذ العثمانى ،لأنه عندما يقوم ببناء المشاريع ،ويشارك الأهالى فى حلول المشاكل عندها يشعر اليمنى بقوة تلك الدولة التى تهتم بشئونه ،ويرضى عندها بالولاء ،الا أنه عزل الوالى حسين حلمى وعين بدلا منه المشير عبدالله باشا ١٣١٨-١٣٢٢هـ (١٩٠١-١٩٠٥م) فعاد الظلم الى ماكان عليه ،وكثرت الرشوة ،وانتشر الفساد ووقع الجدب والقحط ، وكان هذا الوالى مفرط باللهو والغناء والموسيقى رغم كبر سنه ،كما وضع سلك البرق من صنعاء الى تعز من جهة الجنوب من صنعاء ،وتمردت فى عهده سنة ١٣١٩هـ (١٩٠٢م) قبائل الزرانيق فى سوق برعان على مسافة ٦ ساعات من صنعاء الى الغرب ،وعانت الحكومة العثمانية متاعب كبيرة فى سبيل اخضاعها بسالتها وعدم استقرارها (٢) ،وكان عزل المشير عبدالله باشا بسبب عدم تمكنه من حماية حدود اليمن من عدوان الانجليز الذين توسعوا فى الجنوب ،وسيطروا على الضالع سنة ١٩٠٢ ،كما أن هذا الوالى لم يستنكر عدوانهم على المنطقة ،فأمر الباب العالى بعزله وتعيين توفيق باشا خلفا له (٣) . وكان الامام المنصور قد توفى

---

(١) محمد يحيى الحداد ،تاريخ اليمن السياسى ،ص ٣٥٣ .

(٢) حسين بن أحمد العرشى ،بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ،ص ٨٣ .

(٣) جاد طه ،سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ،ص ٣٠٩ .

سنة ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) فاجتمع العلماء على اقامة ابنه يحيى بن الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين ، ومبايعته بالامامة ، ولقب بعد ذلك بالمتوكل (١) ، واتخذ المتوكل قفلة عذر عاصمة له ، وقد بدأ الامام فور توليه الامامة في تنظيم المقاومة ضد العثمانيين (٢) ، فجمع القبائل من جميع البلاد التي أجابته بالطاعة ، فأمرها بحصار المدن التي فيها العثمانيون ، فحاصروا جميع مراكز اليمن ماعدا الحديدة وتعز واستسلم العرب جميعا لذلك. (٣)
وكان الامام المتوكل قد أرسل سنة ١٩٠٤ رسائل عديدة الى عدن ، ونشر دعايات للتشهيد بما يقوم به العثمانيون من فظائع وعبر الامام عن غضبه وحقده على الحكم العثماني ، والذم للعثمانيين ، ومما قاله : (قد لبسوا أثياب الطغيان وتسربلوا بحلل الغطرسة والعصيان) ، واتهمهم بالفسق وبارتكاب الجرائم (٤)
وهكذا شن اليمنيون الحرب على العثمانيين ، وعلى رأسهم المتوكل والذى انتقل من قفلة عذر الى كوكبان ، واضطربت البلاد وزاد الضغط على العثمانيين ، كما تضافرت القوى اليمنية من قبائل همدان وحاشد والاهنوم وغيرها من القبائل التي كانت قد سئمت الوضع القائم الذى لا توجد فيه سلطة وطنية معينة تعنى

---

(١) الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ١٩٧ .

(٢) جاد طه سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٣٣١ .

(٣) الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ٢٨ .

(٤) هارولد .ف عدن وجنوب اليمن في ملوك العرب ، ص ١٢٢ .

بالمحافظة على الامن ،وادارة البلاد ادارة سليمة ،وتمكنت تلك القوى من تعقب الحاميات العثمانية ،وحصرها فى صنعاء (١) ،ولما اشتد الحصار على العثمانيين ،انتدب الوالى العثمانى فى صنعاء هيئة من الأتراك واليمنيين الى الامام يحيى لبحث موضوع تسليم صنعاء اليه ،والشروط التى يتم الاتفاق عليها ،لذلك تم الاتفاق على حماية الامام للعثمانيين أثناء انسحابهم من صنعاء الى حراز ،على أن تكون بلاد حراز الى جانب المناطق التى هى على ولاء العثمانيين ،وهى ألوية تهامة وتعز واب ،وانتدب الامام يحيى سيف الاسلام احمد بن قاسم حميد الدين لاستلام صنعاء من العثمانيين نيابة عنه (٢) وبعد أن استقرت الاحوال فى صنعاء دخلها الامام يحيى مع حاشيته رسميا كان ذلك فى ٢١ ابريل سنة ١٩٠٥م وسمح للجنود العثمانيين الذين وجدهم داخل المدينة بالخروج منها الى الساحل مع تأمينهم على أرواحهم ، ومع ذلك بعد أن جردهم من أسلحتهم وذخيرتهم ،غير أنه ما كاد الامام ينصرف الى تنظيم الامور فى صنعاء واقامة الاحكام الشرعية حتى أرسل الباب العالى حملة عسكرية كبيرة وعلى رأسها أحمد فيضى باشا (٣) وذلك لتدعيم موقف العثمانيين فى اليمن ،وقد تمكن فيضى باشا من التقدم من الحديدة

---

(١) احمد حسين شرف الدين ،اليمن عبر التاريخ ،ص ٢٦٧

(٢) محمد يحيى الحداد ،تاريخ اليمن السياسى ،ص ٣٥٧ .

(٣) سيد رجب حراز ،الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ،ص ٨٨ .

الى صنعاء التى انسحب منها الامام يحيى ،وتمكن العثمانيون بالفعل من استعادة صنعاء فى الايام الاولى من سبتمبر سنة ١٩٠٥ ،وانسحب الامام الى شهارة (١) ،وأخذ احمد فيضى باشا بقوته المكونة من عشرة طوابير يتوغل فى البلاد ،وشجعه على ذلك عدم وجود مقاومة ،ولم يفطن الى أن اخلاء السبيل كان خدعة حربية من اليمنيين ،وما كاد يبلغ شهارة حتى هاجمته القبائل اليمنية بشكل مكثف ،وهنا حلت الكارثة على العثمانيين ،وقتل عدد كبير من الجنود وقوادهم ،وفر أحمد فيضى مع من بقى من جنوده ،وكانت معركة شهارة من أعظم المعارك التى دارت بين الشعب اليمنى والعثمانيين ،كما كانت نقطة تحول فى مجرى التاريخ اليمنى ،ومعركة حاسمة فى مراحل الوجود العثمانى ،وسميت اليمن بعد تلك المعركة بمقبرة الاناضول (٢) . رأى المشير أحمد فيضى باشا بعد دخوله صنعاء وبعد العناء الشديد الذى واجهه ،والاخطار المحدقة به ،انه من الافضل عقد صلح مع الامام لينهى الخلاف ،ويريح الدولة من مشكلة استعصى حلها ،فأوفد وفدا الى صعده لزيارة الامام ومفاوضته فى عقد صلح ، فوضع شروطا معتدلة سلمها للوفد (٣) وتضمنت هذه الشروط تطبيق أحكام الشريعة الغراء ،وأن يرجع عزل القضاة وحكام الشرع وتعيينهم الى الامام ، وأن

---

(١) جاد طه ،سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ،ص ٣٣٢ .

(٢) أحمد حسين شرف الدين ،اليمن عبر التاريخ ،ص ٢٦٨ .

(٣) أمين سعيد ،تاريخ اليمن ،ص ٢٨ .

تكون معاقبة الخائنين والمرتشين منوطة بالامام ،وأن تجبى الاموال بواسطة مشايخ البلاد تحت نظارة مأمورى الدولة العثمانية ،ولا يكون للامام علاقة بقبض الاموال الاميرية ،على أن تحفظ الدولة العثمانية على أمن الدولة الخارجي فأبت الحكومة العثمانية قبول هذه المقترحات ،فتجدد القتال مرة أخرى . (١)

من السابق يبدو لنا أن استمرار الثورات اليمنية ضد السلطة العثمانية والذى كان سببها كما رأينا طبيعة المذهب الزيدى بالاضافة الى سوء حكم بعض الولاة العثمانيين الذين بالغوا فى اضطهاد وارهاق الاهالى ،كما أن الاختلاف المذهبى بين الائمة الزيدية والسلطة العثمانية زاد من حدة تلك الثورات ضد الحكومة العثمانية التى ادخلت نظما لم يألفها الزيديون فى اليمن ، وذلك فى رأى الائمة الزيدية ،على أن تلك الثورات قد لاقت اهتماما كبيرا من قبل جهاز الحكومة العثمانية ،فأرسلت الدولة عدة قواد عثمانيين لاخمادها ، واستطاعوا النجاح فى كثير من الاحيان ،لكن انضواء الاهالى تحت راية الثورة التى يقودها الامام الزيدى زاد من خطورة تلك الثورات على الحاميات العثمانية التى ظلت مستمرة ،وكان اهتمام الدولة العثمانية فى اخماد الثورات القائمة فى اليمن ،والرغبة فى السيطرة الكاملة على ذلك الجزء ،انما يرجع الى تأمين الحجاز من ناحية الجنوب وقيام خط دفاعى فى تلك الناحية خوفا من تطلع أية دولة أجنبية للأراضى المقدسة .

---

(١) محمود كامل ،اليمن شماله وجنوبه ،ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

وهكذا يتضح مما سبق أن تلك المشاكل التي قامت في وجه الدولة العثمانية والمتمثلة في احتلال انجلترا لمصر ، وسيطرتها على قناة السويس اذ أصبح مرور الجيوش العثمانية في القناة خاضعا للوضع السياسي بين الدولتين العثمانية والبريطانية ، ولذلك كانت السفن العثمانية تقف في قناة السويس أحيانا لمدة أربعين يوما بحجة الحجر الصحي وكان الجنود يصابون بالأمراض من جراء هذا التوقف ، وعندما يسمح لهم بالسفر كانوا يصلون الى اليمن منهوكين ، أما عن زيادة النفوذ البريطاني في عدن واستمرار الثورات في اليمن فقد كانا عائقين لاستكمال نفوذ الدولة العثمانية على غربي الجزيرة العربية ، وعلى الاخص المناطق الجنوبية ، اذ كانت الدولة العثمانية قد أخذت تسعى جاهدة لتأمين الاماكن المقدسة ، وأمام تلك العوائق غيرت الدولة من خطتها لتأمين الحجاز وذلك بالاتجاه الى انشاء سكة حديد الحجاز الذي سأتحدث عنه في الفصل التالي .

الفصل الخامس

سكة حديد الحجاز

أ - افتتاح الخط ١٩٠٨م

ب - أهمية الخط في ضوء العوائق السابقة.

كان لدى الدولة العثمانية اتجاه جديد فى الاعتماد على طـــرق المواصلات وكان ذلك مع نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، وذلك بغرض ربط أجزاء الدولة المترامية الأطراف ، حتى يسهل لها السيطرة على كل الاقاليم ، ويساعدها أيضا على الحشد ، والنقل العسكرى السريع حين الاقتضاء ، ومعاونة السلطان فى حكم الدولة ، وتدعيم كيانها كان ذلـك الاتجاه هو بناء شبكة للسكك الحديدية .

ففى سنة ١٨٨٨م أنشأ (فون بريس) مدير بنك (دوتش) الالمانى خط حديد (حيدر باشا - ايزميت) ، وذلك لحساب الدولة العثمانية ، ثم حصل (فون بريس) على امتياز خط آخر يربط ايزميت بأنقره ، وفى نفس الوقت حصل على وعد بامتياز خط ثالث يربط هذا الخط ببغداد عن طريق (سيواس) وديار بكر ، والموصل ، وفى السنة التالية اتحد بنك دوتش مع بنك (دورتمبرغيس) فى (ستوتارد) ، وأسسا شركة الخطوط الحديدية الاناضولية العثمانية ، وكان رأس مال الشركة ألمانيا ، وعهد بانشاء الخطوط الى شركة ألمانية أخرى تاسست فى (فرانكفورت) اسمها (شركة انشاء خطوط حديد الاناضول) (١) ، وفى سنة ١٨٩٣م استطاعت هذه الشركة أن تصل الكيلو الثامن والسبعيـــن بعد الخمسمائة من مدينة أنقرة شرقا ، ولكن احتجاج الروس جعل هذا الخط

---

(١) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ٩٤ .

يتحول عن طريقه المرسوم فى التصميم ، فاتجه الخط الى المغرب ناحية اسكى شهر وفى نفس السنة (١٨٩٣م) حصلت الشركة على امتياز خط قونية (١) ، وخط أنقرة - قيصرى ، على أن يمتد الى سيواس وديار بكر فبغداد ، الا أنه ترك العمل فيه ، ووصل الخط الاول الى قونية فى أواخر سنة ١٨٩٥م ، وفى ٢٧ تشرين الثانى سنة ١٨٩٩م أعطت الدولة العثمانية وعدا لشركة خطوط حديد الاناضول باعطاء الشركة امتيازا بخط حديدى يمتد من قونية الى خليج البصرة عبر بغداد وفى سنة ١٩٠٣م انقلب هذا الوعد الى امتياز ، واتفق على أن يمر الخط بأركلى وأضنة وبفجة وكليس وحران والموصل وبغداد وكربلاء والنجف والبصرة ، غير أن البصرة لم تعين بصورة قاطعة لنهاية الخط وانما عينت الزبير التى هى آخر محطة قبل البصرة كنقطة نهائية . وكان أيضا من ضمن مخططات الباب العالى عمل شبكة أخرى تمتد الى مرعش وحلب وأرفة وماردين واربل وخانقين (٢) ، وبحصول ألمانيا على تلك الامتيازات فى مد شبكة الخطوط الحديدية ، استطاعت أن تأخذ لنفسها منطقة نفوذ فى آسيا الصغرى ، وخاصة امتياز سنة ١٩٠٣ فى تمديد خط بغداد ، كما كان لها منطقة نفوذ فى شمال الصين فى اقليم شان تونغ Chan Toung منذ سنة ١٨٩٨م ، وفوق ذلك كانت التجارة الالمانية تبذل جهودا قصوى فى كسب الاسواق فصادفت نجاحا كبيرا بفضل تنظيم بيوتها التجارية ونشاط عملائها

---

(١) باسل دقاق ، تركيا بين جبارين ، ص ٢٨ .

(٢) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ٩٥ .

وحسن تنظيم المصارف فى الخارج . (١)

وكان الألمان يحلمون بأن يكون لهم مناطق نفوذ فى آسيا الصغرى ، على أن يكون ذلك بالطرق السلمية وعلى الأخص عن طريق الخطوط الحديدية ويعبر عن ذلك الباحث السياسى جاك انسيل Gack Anseel اذ يقول " ان مشروع الخط الحديدى الذى وضعه الالمان ، لا الخطوط المتقطعة التى وضعت الدول الاوربية الاخرى تصميمها بل الخط العثمانى العظيم الذى يمتد من القسطنطينية الى مكة وبغداد قد أسكر السلطان عبد الحميد واجتذبه" . (٢) من خلال هذا العرض يتبين مدى رغبة السلطان فى محاولته لاستعادة نفوذ ... الدولة العثمانية على الجزيرة العربية بأكملها ، وذلك عن طريق الخطوط الحديدية ، والتى تؤمن ذلك النفوذ تأمينا مباشرا ، على أن الخط الحجازى وهو الأهم سوف يصل الى مكة المكرمة ، وذلك حتى ترتبط ارتباطا مباشرا بالعاصمة خاصة بعد أن واجهت تلك العوائق السابقة والتى مرت بنا فى الفصل الرابع . كما أقامت الدولة العثمانية خطوط حديد بين مدانية وأزمير وبين مرسين وحلب ، وذلك برؤوس أموال فرنسية الا أن المشاريع الالمانية السالفة الذكر أضرت بالمصالح الفرنسية ، فامتياز خط اسكى شهر - قونية أعاق تمديد

---

(١) بيير رونوفن ، تاريخ القرن العشرين ، ص ١١ .

(٢) باسل دقاق ، تركيا بين جبارين ، ص ٢٧ .

خطحديد بورسة - مدانية الفرنسى ، والذى أنشىء سنة ١٨٩٣م الى كوتاهية وقرة حصار ، وقونية ، لذلك سعت الحكومةالفرنسية لدى السلطان فنالت امتياز خط الشام وحلب ، وكان الوعد يتضمن أيضا مدالخط الى أبيرة (بيرةجك) مارا بالفرات ، وعندما اشترى الفرنسيون خط أزمير- قصبة الانكليزى حصلوا على امتياز بمده الى قرة حصار ، كذلك كان خط امتياز بغداد ضربة أخرى للمصالح الفرنسيةفى كليكية والاقسام الشمالية لسورية وفى حوض الفرات أيضا ، اذ انقطع الامل فى ربط خط مرسين واضنة ، والذى كانت تملكه شركة فرنسية انجليزية بولايتى قونية وحلب ، وتخلت عنه أخيرا الشركة الفرنسية الانجليزية لألمانيا ، بالاضافة الى هذا فقد نال الالمان وعدا بمد فرع خط حديد بغداد الى حلب ، كذلك منح الالمان حق الافضلية فى انشاء خط يتفرعمن أى فرع من فروع الخطوط الالمانية ، وينتهى بأى نقطة على ساحل البحر الابيض المتوسط بين مرسين وطرابلس الشام (١) ، من خلال ذلك يتبين اهتمام الدولةالعثمانية البالغ فى اقامة الخطوط الحديدية ، وذلك من أجل ربط أجزاء الدولة بعضها ببعض حتى يتيسر لها احكام قبضتها على تلك الاجزاء المترامية الأطراف ، بغض النظر عن التسابق الاوربى فى الحصول على تلك الامتيازات فالذى يعنينا أولا وأخيرا مصالح الدولة العثمانية من خلال اقامة تلك الشبكة ، والتى تطورت مع مر السنين ، وكان أيضا للحجاز نصيب كبير اذ اهتمت الدولة

---

(١) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ٩٧ -٩٨ .

وعلى رأسها السلطان بمد خط حديد الحجاز ، هذا ان لم يكن الخط الحجازى هو الأساس فى اقامة الخطوط الاخرى سواء فى آسيا أوالبلاد العربية والذى يجب أن نعرفه أنه لم تكن للدولة أى أطماع اقتصادية فى أى بقعة من أقاليمها ، بقدر ما تهتم بالمكانة الروحية ، فالحجاز فى ذلك الوقت ، بل الجزيرة بأكملها لم يكن يوجد فيها أى شىء يمكن أن تطمع فيه ، بل على العكس فقد كانت الدولة تصرف مبالغ طائلة من خزينتها حتى تتمكن من السيطرة على الجزيرة العربية ، وحتى تظهر أمام المسلمين أن لها من القوة ما يجعلها تسيطر على تلك الاقاليم ، أما من ناحية الخط الحجازى فقد أظهر الدولة العثمانية بمظهر الدولة المتطورة مثلها مثل الدول الاجنبية .

ولم تكن فكرة بناء سكة حديد الحجاز وليدة وقتها ، وليست من بنات أفكار السلطان عبد الحميد ، بل فكر فيها من قبل الدكتور زامبل Zammbel الامريكى الجنسية ، الالمانى الاصل ، اذ اقترح سنة ١٨٦٤م على الحكومة العثمانية مد خط حديدى بين دمشق وساحل البحر الاحمر ، وفى سنة ١٨٨١م (١٢٩٨هـ) وافق وزير الاشغال العامة العثمانى على هذا المشروع ، ولكن المهندسين والجغرافيين قالوا بتعذر انشائه وحجتهم أن المنطقة التى يخترقها الخط تنزلها قبائل بدوية لا يؤمن جانبها ثم ان المواصلات البحرية أقل كلفة (١)

---

(١) محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

وخاصة في حين بدت في الافق فوائد قناة السويس للدولة كما بينا من قبل - الا أن الفكرة تفتقت مرة أخرى في رأس عزت باشا الذى كان العامل الاكبر في تنفيذها واتمامها ، فقد كانت خطته مد سكة حديد من دمشق الى المدينة ومنها الى مكة ، وألف عزت باشا مجلسا برآسته ، فوجه نداء الى العالم الاسلامى وضح فيه الدافع الدينى الذى ألهم الخليفة فى مد السكة الحديدية وأهاب بالمسلمين أن يتبرعوا بالمال لجمع نفقات المشروع (١) ، وأعلن السلطان عبد الحميد فى ابريل سنة ١٩٠٠م عن رغبة الحكومة فى انشاء هذا الخط ، وأقام دعاية واسعة حوله فى العالم ، من حيث أنه سيسهل سفر الحجاج ويؤمن راحتهم ، وأنه مشروع خيرى يجب على المسلمين أن يعملوا على انشائه (٢) ، وحرص السلطان على أن يكون على رأس قائمة المكتتبين فاكتتب ب ٣٢٠ ألف ليرة عثمانية ، وتبعه فى ذلك الملوك والامراء المسلمون ، فملك فارس تبرع ب ٥٠ ألف ليرة عثمانية ، كما تعهد خديوى مصر بارسال كمية من مواد البناء والانشاء ، وأنشئت الجمعيات الاسلامية لجمع الأموال وذلك فى معظم الممالك الاسلامية ، ولم تنقطع الاعانات مدة انشاء الخط مما يدل على سريان روح التضامن فى الشعوب الاسلامية ، فضلا عن ذلك فقد أمر السلطان بأن يتنازل موظفوا الدولة براتب شهر لاعانة الخط ، ثم أمر بعد ذلك بخصم ١٠ ٪ من مرتباتهم وذلك لشهر

---

(١) جورج انطونيوس، يقظة العرب ، ص ١٤٢ .

(٢) وجيه الخيمى ، الخط الحديدى الحجازى ، ماضيه وحاضره (مقالة فى مجلة الفيصل عدد ٣٢ ص ١٢٦ .

فى كل سنة ، وأحدثت طوابع الخط الحجازى وبعض الضرائب الجمركية (١) ، ويقدر مجموع الاموال التى جمعت للمشروع ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية ، أى حوالى خمسة عشر مليون دولار ، ويبدو أن دعوة السلطان العثمانى لاقت قبولا حسنا من رعاياه ومن الممالك الاسلامية الاخرى . (٢)

وشرع بانشاء الخط الحجازى فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٠م ابتداء من قرية المزيريب فى منطقة حوران جنوبى دمشق ، وذلك بسبب وجود سكة حديد للفرنسيين بين دمشق والمزيريب ، كانوا قد نالوا امتيازها كما ذكرت سابقا سنة ١٨٩٣م ، وعملوا فى استثمارها سنة ١٨٩٤م فى وقت لم يفكر فيه السلطان عبد الحميد فى خط الحجاز ، وكان من شروط الامتياز أن لا يقام خط مواز فى درعا لذلك رأى السلطان الاستفادة من هذه السكة لنقل الحجاج من دمشق الى المزيريب ، ومنها يكملوا رحلتهم على الخط الجديد ، غير أن المنافسة سرعان ما قامت بين ادارتى الخطين العثمانى والفرنسى ، فصمم عبد الحميد على وصل المزيريب بدمشق ، فاحتجت الشركة الفرنسية على ذلك لمخالفته شروط امتيازها ، عندئذ تم اتفاق بين الجانبين لقاء منح الشركة الفرنسية امتياز انشاء خط من دمشق الى حلب وذلك فى فبراير سنة ١٩٠٥ م (٣) ، وكان السلطان

---

(١) محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٥ ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) جيمس موريس ، الملوك الهاشميون ، ص ١٨ .

(٣) توفيق على برو ، العرب والترك ، جـ ٥ ص ٣٦ .

عبد الحميد قد اشترى سنة ١٩٠٢م خط حديد حيفا من شركة خط حديد سورية العثمانية ، والتي تاسست سنة ١٨٩١م برأس مال انجليزى وأرادت هذه الشركة انشاء خط يربط حيفا بالشام ، الا أن المهندسين الألمان تمكنوا من انشاء خط حديدى بين حيفا ودرعا مخترقا مرج ابن عامر ، اذ يلتقى بالخط الحجازى ، (١) وكان السبب فى انشاء ذلك الخط هو حاجة السلطان ومهندسوه الى مرفأ بحرى يستمد منه الخط الحجازى لوازمه وأدواته ويكون منفذا للأقطار الواسعة التى سيمتد فيها فقرر انشاء ذلك الخط الحديدى الجديد بين حيفا ودرعا وكان الانجليز أشد الناس رغبة بنيل امتياز هذا الخط خاصة بعد احتلالهم جزيرة قبرص ، (٢) وفى الوقت الذى أنجز فيه خط حيفا - درعا ثم بناء القسم الثالث من الخط الحجازى الواقع بين عمان - معان ، ففى أول سبتمبر ذهب وفد برئاسة طرفان باشا وزير الخارجية العثمانية للاحتفال بافتتاح الخط الحجازى بين دمشق ومعان ، الذى يبلغ طوله ٤٥٩ كيلومترا ، (٣) وفى سنة ١٩٠٦م قامت خلافات بين الدولة العثمانية والحكومة الانجليزية ، بسبب الخط الحجازى متمثلة فى سلطة المقيم البريطانى فى مصر اللورد كرومر حول قضية طابا ، ذلك أن الدولة العثمانية عندما اقترب بناء الخط من نقطة توازى خليج العقبة أرادوا انشاء فرع للخط بين مدينة معان والعقبة ، لتقريب المسافة

---

(١) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ١٠٠ .

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ، ص ١٧٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٦ .

بين البحر الاحمر والديار المصرية من جهة والخط الحجازى من جهة أخرى ، الذى يستقبل أيضا حجاج مصر، وشمال افريقيا والمغرب العربى (١) وكانت حجة انشاء هذا الفرع من الخط " معان - العقبة " لتسهيل اسراع القوات الحربية التى ترسل لقمع الثورات فى اليمن حيث تركب البحر من ميناء العقبة ، وقد اجتازت القوات العثمانية حدود مصر فى ١٥ فبراير سنة ١٩٠٦م ، واحتلت طابا . (٢) وكان السلطان عبد الحميد يهدف من احتلال طابا ابعاد الخطر الانجليزى عن الخط الحجازى ، وذلك بغرض تعديل الحدود المصرية - العثمانية فى شبه جزيرة سيناء ، بحيث يكون خط الحدود الجديد يمتد من العريش الى السويس بدلا من امتداده من رفح الى العقبة ، على أن يترك لمصر القسم الجنوبى من شبه جزيرة سيناء ، ابتداء من خط يمتد من جنوب طابا الى جنوب السويس ، وبناء على ذلك نقلت الحكومة العثمانية عمود الحدود من رفح الى العريش نحو الغرب ، بحيث تكون المساحة التى تلحقها الدولة العثمانية من شبه جزير سيناء عبارة عن مثلث ضلعاه خط رفح - العريش ، العريش - السويس ، وقاعدته خط طابا - السويس ، وقد ادعت حكومة الاستانة أن شبه جزيرة سيناء برمتها تابعة للأراضى الحجازية مباشرة وأن السلطان العثمانى تركها للحكومة المصرية بغرض حراسة محمل الحج ، الذى كان يذهب من

---

(١) توفيق علي برو ، العرب والترك ، ص ٦٢ .

(٢) جان بيشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ١٠١ ، قابا نقطة بجوار ميناء العقبة .

مصر عن طريق البر مارا بسيناء والعقبة ومدائن صالح ، وعندما أصبح المحمل المصرى يسلك الطريق البحرى من السويس لم يعد هناك لزوم لطريق البر ، لذلك رأت أن تربط ادارته بولاية الحجاز (١) ، وبالاضافة الى تأمين الحجاز أرادت الدولة العثمانية من استرجاع طابا أن تستولى على بعض النقاط الاستراتيجية فى شرقى سيناء لتشرف منها على شبه الجزيرة وتتحكم فى طرق الاقتراب الرئيسية الى دلتا النيل حيث تستطيع أن تهدد القوات الانجليزية فيها ، وتؤثر تأثيرا قويا على سلامة القناة ، (٢) التى أصبحت خارجة عن ارادة الدولة وكانت سكة حديد معان ـ العقبة التى تربط العقبة بسكة حديد الحجاز جزءا من هذه السياسة الاستراتيجية الجديدة والتى قد شرعت فى مدها سنة ١٩٠٦ م مما دعا بريطانيا الى الاهتمام بحماية حدود مصر الشرقية ، ودراسة مشروع استراتيجى للدفاع عنها يقوم على وضع قوات عسكرية على طول الخط من العريش الى نهاية الحدود المصرية على خليج العقبة ، وسارعت القوات العثمانية باحتلال طابا والتى تقع الى الغرب من العقبة بثمانية أميال على امتداد الخليج ، وقد أثار هذا العمل بريطانيا ، واحتجت على الدولة العثمانية ، ولكن العثمانيين كانوا يهدفون من وراء ذلك العمل فتح المسألة المصرية ، واحراج بريطانيا أمام الرأى العام الدولى ، وحملها على الجلاء

---

(١) احمد شفيق باشا ، مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٨٠ .

(٢) حسين فوزى النجار ، السياسة الاستراتيجية فى الشرق الاوسط ج ١ ص ٢٦٩ .

لتفى بعهودها والتى سبق وأن قطعتها على نفسها ، كما كانت الدولة ترمى الى الاستيلاء على بعض المراكز التى تشرف على خطوط الاقتراب الرئيسية فى سيناء احتياطا للمستقبل ، ولكن تطور الأحوال الدولية لم تكن فى صالح الدولة ، فقد ارتبطت فرنسا بالاتفاق الودى مع بريطانيا سنة ١٩٠٤ ، اذ ذهب سفيرها فى الاستانة ينصح الباب العالى بالاذعان لمطالب بريطانيا ، كما وقفت روسيا نفس الموقف ، ولزمت بريطانيا موقف الحياد (١) ، وعندما تأزمت الحالة وقف الانجليز موقفا حازما ، فحشدوا قوى بحرية وبرية كبيرة قدمت من جبل طارق ومالطة ، والهند وجزر بريطانيا ، وأعلن الباب العالى من جانبه النفير العام وأخذ بالحشـــد ، الا أن السلطان لم يلبث أن قبل الانذار الانجليزى وسحب قواته من طابا والعودة الى الحدود القديمة ، (٢) وكانت هذه المشكلة قد ظهرت عند تولية الخديوى عباس الثانى كما ذكرت سابقا ، وذلك عندما أرادت الدولة أن تنص فى فرمـــان توليته على ما يجعل سيناء خارج الحدود الشرقية المصرية على اعتبار أنهـــا تابعة لولاية الحجاز ، مما يعرض قناة السويس لخطر اقتراب النفوذ العثمانـــى فضلا عما تضفيه صحراء سيناء من حماية طبيعية على القناة ، وتضعف تلك الحماية اذا كانت سيناء خارج حدود مصر ، لذلك يرجع اهتمام بريطانيا بالعقبة الـــى أهميتها الاستراتيجية كمركز يؤثر تأثيرا مباشرا على سلامة الطريق البرى الـــى

---

(١) حسين فوزى النجار ، السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط ج ١ ، ص٢٧٠

(٢) جان بميشون ، بواعث الحرب العالمية الاولى ، ص ١٨ .

الخليج الفارسى ثم الى الهند كما تتحكم العقبة فى الطريق البرى الى الحجاز وفلسطين وسوريا ،كما تطل على صحراء سيناء والتى يعتمد عليها فى الدفاع عن قناة السويس والذى يمتد من غزة الى بير السبع (١) . ومن هنا أدركت الدولة العثمانية الأهمية الاستراتيجية لميناء العقبة ورغبت فى اعادة السيطرة عليها لتتحكم مرة أخرى فى قناة السويس والتى ساعدت فى تنفيذ سياستها على غرب الجزيرة ،وحتى تبدو أيضا دولة ذات نفوذ تتحكم فى السيطرة على ممر مائى حيوى يتحكم فى التجارة العالمية .

أخذت العقبات تواجه السلطان العثمانى فى بناء سكة حديد الحجاز ومن تلك العقبات عرب الجزيرة ،فقد عارضت قبائل الحجاز معارضة عنيفة فى اكمال الخط الحديدى الذى يحرم بعض أفرادها كأصحاب الابل ، (٢) الذين يقومون بنقل الحجاج من موارد يعتمدون عليها فى حياتهم ، اذ يحول ذلك الخط من ذلك المورد ،كما يمنع عنهم الاتاوات والهدايا التى يتلقونها سنويا لقاء ترك قوافل الحجاج تمر بسلام الى الاراضى المقدسة ،وتأمين ذلك الطريق المقدس لذلك ما ان وصلت أعمال بناء الخط مشارف الحجاز حتى بدأ البدو من العرب بأعمال العنف والسطو على معداته ،وقد هاجموا المشير

---

(١) حسين فوزى النجار ،السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط ،جـ ١ ، ص ٢٦٢ .

(٢) جيمس موريس ،الملوك الهاشميون ،ص ١٩ .

كاظم باشا المدير العام للخط وتغلبوا عليه وقتلوا مائة من رجال حرسه ، واضطرت الحكومة العثمانية نتيجة لذلك من اقامة أكثر من خمسة آلاف جندى نظامى لحراسة منشآت الخط ، حتى نفذ ذلك المشروع . (١)

رغم كل الصعوبات السابقة والتى استطاعت فيها الدولة أن تذللها بحكمة بالغة فقد ظلت الدولة العثمانية تدرك مدى أهمية هذا المشروع الحيوى فى تنفيذ سياستها نحو الجزيرة ، وتؤمن ايمانا عميقا بالفائدة التى تعود على المسلمين بصفة عامة والدولة العثمانية بصفة خاصة . ففى سنة ١٣٢٦هـ أى فى خريف سنة ١٩٠٨م كان العمل قد تم فى انشاء الخط من دمشق الى المدينة المنورة ، (٢) وفى الحقيقة أنه لم يكن أحد يتوقع أن العمل سيتم بهذه السرعة وهذا النظام نظرا لطول المسافة ، وقلة المياه ووعورة المناطق ، ولكن اصرار الدولة وثقتها بالفوائد ذللت كل هذه الصعاب ، ونجحت فى انجازه ليكون نقطة اتصال بين الأقطار وخير واسطة نقل لتوفير راحة الحجاج ، وتسهيل مسالك الحج والزيارة (٣) وتأمين تواجد الدولة فى غربى الجزيرة العربية . وبلغت المسافة بين المدينة المنورة ودمشق ١٣٠٢ كم والى حيفا ١٣٣٣ كم تقطعها القطارات فى أربعة أيام تقريبا ، اذ كان متوسط سيرها ٨٠ كم / ساعة وسير القطارات

---

(١) توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٤٥ .

(٢) فائق صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ١٣٠ .

(٣) محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ ٥ ، ص ١٧٢ .

من الشام الى معان على متوسط ٣٠ كم/ ساعة ،ومن معان الى المدينة على متوسط ١٥ كم / ساعة ،وبلغت أجرة القطار فى الدرجة الاولى من حيفا الى المدينة ذهابا وايابا أربعة عشر جنيها عثمانيا ،وفى الدرجة الاخرى نصف المبلغ (١) . والجدير ذكره أن خطة الدولة كانت فى بناء الخط الحجازى ووصله لمكة المكرمة فاليمن (٢) كما كان خط الحجاز وخط بغداد أساسا لعدة خطوط فرعية تخرج منه ،اذ ربطت الاناضول بباقى اقاليم الدولة العثمانية ، فمثلا كان خط الاسكندرونة قد أوصل ميناءها بخط حديد بغداد ،كذلك خط درعا المزيريب وادى اليرموك ،كان قد تفرع من خط الحجاز (٣) ، وبذلك تكون الدولة العثمانية قد استطاعت أن تربط كثيرا من أجزاء الدولة بالعاصمة الاستانة ،بعد أن تم بناء تلك الشبكة الواسعة ، وكان آخر تلك الشبكة وأهمها للدولة هو خط حديد الحجاز ،الذى استطاعت أن تتم بناءه بسرعة فائقة نظرا للأهمية الكبرى التى تتعلق به .فالحجاز يعنى الشىء الكثير للدولة كما أوضحنا من قبل لذلك تغلبت على كل الصعوبات التى وقفت أمامها حتى يكون الخط أداة فعالة تسيطر بها على الحجاز بعد أن فقدت السيطرة على قناة السويس ، وتحقيق ذلك لا يكون الا بالخط الحجازى ،فهى مستعدة لكى تضحى بالكثير لتحقيق الفائدة التى تعود عليها والتى سوف أتحدث عنها فى الصفحات التالية .

---

(١) محمد لبيب البتنونى ،الرحلة الحجازية ،ص ٣٠٣ .

(٢) على حافظ ،فصول من تاريخ المدينة ،ص ٣٤ . (٣) حسين فوزى النجار السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط، ج ١ ،ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

قبل افتتاح سكة حديد الحجاز رسميا سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) تحدث السفير البريطانى فى الاستانة عن أهمية الخط للدولة العثمانية فى سنة ١٨٠٧م مانصه "... ومهما يكن ، فليس هناك غير عاملين اثنين يظهران بوضوح من بين عوامل الحالة السياسية العامة خلال السنوات العشرة الاخيرة ، أما الاول فهو تلك السياسة الماهرة التى حدت بالسلطان أن يظهر أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين بمظهر الخليفة والزعيم الروحى للاسلام ، وثبت فى نفوس رعاياه الحماسة والاستجابة لشعوره الدينى حين مد سكة حديد الحجاز التى ستيسر لكل مسلم فى المستقبل القريب سبل الحج الى الاماكن المقدسة فى مكة والمدينة ... ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح رعاياه يدينون له بالطاعة (١) الى حد لم يسبق له مثيل ..." كان ذلك هو تقرير السفير البريطانى لحكومته عن أهمية سكة حديد الحجاز للدولة العثمانية قبل افتتاح الخط ، أما بعد افتتاح الخط فيعتبر مسألة الخط الحجازى حدثا هاما بالنسبة للعرب والمسلمين والدولة دلل على مقدرة السلطان عبد الحميد فى تنفيذ هذه الفكرة ، اذ رحبت الصحف العربية بالسلطان ، وكتبت المقالات الطوال فى الاشادة بنفع الخط وبيان أهميته ، وبذل السلطان عبد الحميد الثانى كل ما فى وسعه لاختلاق وسائل تأمينه وتمويله ، لأن هذا المشروع قام على أكتاف الاموال العثمانية عن طريق تبرعات وحسم نسب

---

(١) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٤٣ - ١٤٤ . سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

معينة من رواتب الموظفين واحداث طوابع جديدة باسم الخط كما أشرنا فى أول هذا الفصل كما رحب العرب والمسلمون بفكرة الخط وتبرعوا له (١) ، بذلك يكون السلطان عبد الحميد قد أثار حماس المسلمين فى كل مكان ، ولا سيما فى الهند ، فكثيرا ما قال الحجاج الهنود أوغيرهم " خمسة أيام فى القطار المريح بدلا من ستة أسابيع فى قوافل الجمال " (٢) فقد كان الحجاج يلاقون صعوبات فى ذهابهم وايابهم الى الديار المقدسة ومع أن دمشق لا تبعد عن مكة المكرمة فان الحاج الشامى كان يستغرق أربعين يوما من دمشق الى المدينة المنورة ، وعشرة أيام الى مكة المكرمة ، أى خمسين يوما يقضيها فى الطريق ثم عشرين يوما يقضيها فى قضاء المناسك والزيارة ، ثم تبدأ رحلة العودة فيقضى خمسين يوما فى عودته ، أى أنه يقضى أربعة أشهر كاملة تبدأ من أول شوال وتنتهى بنهاية محرم ، اضف الى ذلك ما كان يضطر الى صرفه من النفقات الباهظة ، وأهم من ذلك كله ما كان يتعرض له الحجاج من مخاطر الطريق كسطو القبائل والامراض ، كل ذلك جعلت اقامة الخط الحديدى الحجازى ضرورة ماسة ، والبدء به من دمشق حيث كان الحجاج المسلمون يتوافدون اليها ، ويجتمعون فيها انتظارا لسفر موكب الحاج منها ، تحت امارة حاكم عثمانى يعرف بأمير الحج ، وكان هذا مسؤولا عن تنظيم انتقال هذا الموكب الذى يتألف من نحو عشرة آلاف نسمة بين

---

(١) توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) جيمس موريس ، الملوك الهاشميون ، ص ٢٩ .

مشاة وفرسان وهجانة ، وكانت طاعة أمير الحج واجبة على الجميع ، ليسهل عليهم قطع المسافة والتى تقدر بأكثر من ١٥٠٠ كم ، والمطوءة بالأخطار والمصاعب الطبيعية والبشرية ، من جفاف ورمال وشمس محرقة وتعديات من البدو الذين يعيشون على طول الطريق ، (١) لذلك اهتمت الدولة العثمانية باقامة ذلك الخط لازالة الصعوبات السابقة ، وعندما انتهى العمل من الخط تيسر سبل السفر أمام الحجيج ، وأزيلت المشقات التى يعانيها الحاج ، فتحقق للدولة الغرض الذى كانت تهدف اليه والذى كانت تعلنه للمسلمين صراحة والذى من أجله تبرع المسلمون فى أنحاء المعمورة ، وكانت الدولة لا تعتبر الحج فريضة دينية فحسب ، بل هو كذلك بمثابة موءتمر اسلامى سنوى كبير يلتقى فيه المسلمون من كافة أنحاء المعمورة حيث يتعارفون ويتباحثون فى الشوءون الاسلامية (٢) فى عصر السلطان الذى احتضن فكرة الجامعة الاسلامية تلك الفكرة التى كان رائدها السيد جمال الدين الافغانى ١٨٣٩ - ١٨٩٧م ، والذى كان يوءمن بقوة الوحدة الاسلامية ، ويسعى الى اقامة حكومة اسلامية قوية تنضوى تحت رايتها جميع الشعوب الاسلامية بهدف مقاومة الأطماع الاوربية فى العالم الاسلامى ، والتخلص منها (٣) وانبثاقا من ثقة السلطان فى تلك السياسة والذى عبر عنها بقوله " ... يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين فى كل مكان ، يجب

---

(١) محمد كرد على ، الخطط الشام ، جـ ٥ ، ص ١٦٨ .

(٢) محمد وجيه الخيمى ، الخط الحديدى الحجازى ماضيه وحاضره ، مقالة فى مجلة الفيصل عدد ٣٢ ص ١٢٧ .

(٣) المصدر السابق .

أن تقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر ، فلا أمل فى المستقبل الا بهذه الوحدة ومع أن وقتها لم يجئ بعد ، لكن سيأتى اليوم الذى يتحد فيه كل المسلمين وينهضون فيه نهضة واحدة ، ويقومون قومة رجل واحد ، وفيه يحطمون رقاب الكفار" ، واتخذ السلطان عبد الحميد من سكة حديد الحجاز وسيلة لتنفيذ فكرة الجامعة الاسلامية يتضح ذلك من قوله : " المهم هو اتمام خط السكة الحديد بين دمشق ومكة فى أسرع وقت . . ففى هذا تقوية للرابطة بين المسلمين كما فيه أيضا اتخاذ هذه الرابطة - بعد تقويتها - صخرة صلبة تتحطم عليها الخيانات والخدع الانجليزية " (١) ولعله يشير فى كلماته هذه الى مؤامرات الانجليز حول قناة السويس وكانت فكرة الجامعة الاسلامية معناها كسب عواطف المسلمين فى العالم قاطبة ، وكان هذا يحتم ضمان استمرار السلطان حاميا وخادما للحرمين الشريفين (٢) مما يكون له أكبر الاثر فى تثبيت الخلافة وهذا يعنى زعزعة مركز الانجليز وتهديدهم فى مستعمراتهم فى الهند التى توجد فيها قوة كبيرة من المسلمين ، لذلك كان موقف السياسة الانجليزية أمام حركة الجامعة الاسلامية والخلافة ما قد عبرت عنه صحيفة ستاندرد الانجليزية اذ قالت ما نصه "يجب أن تصبح الجزيرة العربية تحت الحماية الانجليزية ، ويجب على انجلترا أن تسيطر على مدن المسلمين المقدسة " . . ورأى عبد الحميد

---

(١) محمد حرب عبد الحميد ، مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ٨ .

(٢) محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثمانى ، ص ١٨٠ .

فى ذلك أن انجلترا تعمل لهدفين : اضعاف تأثير الاسلام ، وتقوية نفوذها بالتالى " (١) . ومما لا شك فيه أن بريطانيا كانت تقف موقفا عدائيا تجاه الخلافة ، والجامعة الاسلامية لأنها مهددة من قبل المسلمين الموجودين فى مستعمراتها والذين يكونون أعدادا كبيرة ،لذلك رأى المفكرون ورجال السياسة البريطانية أن حماة البلاد المقدسة من الهاشميين قد يصبحون حلفاء نافعين ضد السيادة العثمانية المتزعمة للاسلام (٢) ، وبذلك يكون خط سكة حديد الحجاز قد لفت أنظار الدول الاوربية والتى لها مصالح فى منطقة البحر الاحمر وعلى الاخص انجلترا ، والتى تدرك أن قناة السويس نظرا لقربها من حدود الدولة العثمانية ،لم تكن منيعة ، فترقبوا بحذر وقلق مد سكة حديد برلين -بغداد ، واعتبروه مشروعا معاديا لهم ، ومنعوا وصوله الى الكويت ورأوا كذلك سكة حديد الحجاز وسيلة لتحصين جناح من أجنحة الدولة العثمانية .

أما من الناحية العسكرية فقد هيأت سكة حديد الحجاز للسلطان عبد الحميد وسيلة سهلة لنقل الجنود الى الجزيرة العربية فى سهولة ويسر (٣) ، وذلك بنفقات بسيطة تتحملها الخزانة ، وكانت وسيلة النقل البرى هذه يحتاج اليها السلطان لوصول جنود جيشه الى شبه الجزيرة العربية وعودتهم منها ، وكان

---

(١) محمد حرب عبد الحميد ، مذكرات السلطان عبد الحميد ، ص ٨ .

(٢) جيمس موريس ، الملوك الهاشميون ، ص ٢٩ .

(٣) محمد بديع شريف وآخرون ، النهضة العربية الحديثة ، ص ٣٧ .

قبل ذلك يضطر الى نقلهم بالبحر عبر قناة السويس ، فيحتاج الى وقت أطـــول ونفقات أكثر ، بالاضافة الى وصول الجند منهوكين نتيجة لتوقفهم فى القنـاة بحجة الحجر الصحى ، كما أن تواجد انجلترا فى مصر وفى عدن هو بمثابة تهديد مستمر للقناة كوسيلة لاتصال الدولة العثمانية بالحجاز عن طريق البحر ، وكان السلطان يتطلع الى اليوم الذى تمتد فيه هذه السكة جنوبا الى مكة ، بل ربط الى ما بعدها فيستطيع بذلك أن يحكم قبضته على بلاد اليمن (١) ، والجدير بالذكر أن سكة حديد الحجاز قد فاق الطريق البحرى عبر قناة السويس وذلك من ناحية السرعة والسهولة ، فقد كان الطريق البحرى يستغرق حوالى اثنى عشر يوما من ساحل الشام الى الحجاز فى حين كان الطريق البرى عن طريق سكة حديد الحجاز لا يستغرق سوى أربعة أو خمسة أيام على الاكثر ، علاوة على ذلك فان الدولـــة العثمانيةلم تكن تملك وقتئذ الكثير من السفن الصالحة التى يمكن الاعتمـــاد عليها لتنفيذ سياسة عبد الحميد العسكرية فى شبه جزيرة العرب (٢) ، فسكة حديد الحجاز أمنت نقل الجنود بسرعة لتساعد فى قمع الثورات ، وللدفاع عـــن أطراف الدولة الجنوبية (٣) ، والتى من شأنها توطيد دعائم سياسة عبد الحميد المركزية ، التى سار عليهافى حكم الولايات العربية وغيرها ، والتى كانـــت قد كلفته الكثير من المتاعب الداخلية والخارجية ، وأثارت عليه نقمة قسم كبير مـــن

---

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) سيد رجب حراز ، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ، ص ١٢٣ .

(٣) توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٣٦ .

العرب ، ونقمة الاتراك أنفسهم ، وتجلت هذه النقمة فى الثورات العديدة والتى ظهرت بين القبائل العربية ، وهى وان كانت ذات طابع محلى محدود الا أنها جاءت كرد فعل لتشديد قبضة السلطان على بلادهم ، مما أنبثق عنه انفجار سخطهم على حكمه وعلى مظالم بعض الحكام والموظفين العثمانيين فثارت حوران وجبل الدروز سنة ١٨٩٦ ، وثارت اليمن سنة ١٩٠٤ وثارت عشائر الخوازم والميمون والفضل وبنى الحرب وهذيل فى الحجاز ، كما ثارت فى سوريا عشائر البدو بين غزة والحيرون ، (١) والبحر الميت ، واسمها الطياحة والحزازمة والجهالين وغيرهم ورفضوا دفع الضرائب (٢) صحيح أن تلك الثورات ليست شيئا جديدا على الدولة العثمانية لكنها قبل كل شئ كانت دافعا لعمل الشبكة الحديدية لتربط أجزاء الدولة ، ليسهل عليها قمع تلك الثورات فى مكانها والدليل على ذلك الكلمة التى ألقاها أحد زعماء جمعية الاتحاد والترقى ، الذى تولى منصب وزارة الداخلية عندما ألقاها فى المجلس النيابى فقال " ... أصبح فى مقدورنا أن نرسل الى اليمن القوة العسكرية اللازمة لاخماد الثورة ، واستعادة مهابة الدولة ، ونحن عازمون على ذلك بكل ثقة واطمئنان ..." (٣) فكأن انشاء الخط كان بمثابة تأكيد لعزم الدولة على

---

(١) الحيرون : هى مدينة الخليل .

(٢) توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٤٥ .

(٣) ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٣٠ .

اعادة توطيد نفوذها كما نشرت صحيفة وستمنستر احدى الصحف الانجليزية ضمن حديث لعزت باشا - صاحب فكرة سكة حديد الحجاز - مع المستر لوسيان دولف من كبار كتاب الانجليز نشر فى ١٥ يونيو سنة ١٩٠٩م " ... اننى مقتنع تمام الاقتناع بأن انفصال العرب عن السلطنة على أى شكل كان ليس فى مصلحتنا ، لأنهم لو تركوا وشأنهم فسوف تعم الفوضى ويقوم اثنا عشر خليفة صغير بدلا من خليفة واحد " (١) . غير أن خط الحجاز كانت له نتيجة ربطالم تخطر ببال عبدالحميد ، اذ أنه جعل التنقل فى الولايات العربية الواقعة فى غرب الجزيرة أسرع مما كانت ، مما نتج عنه نقل الافكار وتبادلها وقد قدر لاختصار الزمن أن يكون ذا أثر واضح فى مصير حركة الشريف حسين وخروجه على الدولة العثمانية (٢) ومجمل القول أن خط سكة الحجاز قد جعل الحجاز مركزا تنطلق منه الوسائل التنفيذية لاخضاع المتمردين فى جهات الجزيرة المختلفة (٣) ومن ذلك أنه فى أوائل سنة ١٣٢٩هـ (١٩١١م) زحف الشريف حسين بعد وصول نجدات سريعة من الدولة عن طريق خط سكة حديد الحجاز الى عسير لمساعدة الدولة العثمانية ، ومحاربة الادريسى وذلك بعد أن استنفر قبائل العرب فى الحجاز ، وسار الشريف حسين مع جنود الدولة العثمانية فدخل مدينة أبها ، ومعه نشأت باشا قائد الجنود العثمانية فى عسير ،

---

(١) على يوسف ، بيان فى خطة المؤيد تجاه الدولة العثمانية ، ص ١٤ .

(٢) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٤٣ .

(٣) مصطفى سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص ٥٤ .

وأقام بها ورتب أمور الدولة وأكد نظامها (١) وهكذا ساعد الخط على توطيد سلطة الخليفة على معظم الولايات العربية ، وعلى التصدى لدسائس الانجليز ومؤامراتهم فى البحر الاحمر وغربى الجزيرة العربية (٢) ، كما ظهرت الدولة العثمانية بدولة عصرية متطورة تمد الخطوط الحديدية فى قلب الصحـــارى ، لانشاء المواصلات السريعة بعد أن كان خصومها الاستعماريون والصهيونيون يتهمونها بالجمود والتخلف أمام المسلمين ليقللوا من شأن الدولة والخلافـــة ، وأنها فرضت على الولايات العربية ستارا من العزلة عن العالم وأنها أوقعتهم فى الفقر ، (٣) وبافتتاح سكة حديد الحجاز أضيف طريق رابع من الطرق المؤدية الى المدينة المنورة ، وذلك بعد أن كانت ثلاثة ، وهى الطريق السلطانـــى ، والطريق الفرعى المسمى بطريق الغاير ، والطريق الشرقى ، فانه اذا ماحدث أن تعرضت تلك الطرق المؤدية الى المدينة لهجوم القبائل ، فالوسيلة للوصول الى المدينة تكون عن طريق الوجه بالخط الحديدى مثل ماحدث سنة ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) اذ رجع المحمل المصرى الى الوجه من جدة لتأدية واجب الزيارة بالطريق الحديدى من محطة العلا ، وسبب ذلك تعرض عربان الطريق الطويل وطريق ينبع لاعتداءات بغير حق (٤) ، كما أن المحمل الشامى تحول عن طريق

---

(١) محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، ص ٤٢ .
(٢) توفيق على برو ، العرب والترك ، ص ٣٦ .
(٣) فائق بكر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ١٣٣ .
(٤) محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، ص ٢٢٣ ، ٣٠٣ .

القوافل ، وأخذ يستعمل الخط الحديدى ، وذلك لسهولته وقصر المدة الزمنية هذا اذا أضفنا عامل الامن ، والذى كان يهم أمراء المحامل ، ففى سنة ١٣٢٨هـ الموافق (١٩١٠م) استقل المحمل الشامى الخط الحديدى الذى كان أميره ناصر بن على (١) وكذلك المحمل المصرى بدل طريق وصوله الى الاراضى المقدسة ، ففى ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ م سافر المحمل الى الاسكندرية ، وأقيم له احتفال عظيم حضره الخديوى ومن الاسكندرية أبحر المحمل الى يافا ومنها ركب القطار الى المدينة المنورة ، على أنه لما كانت الوجه محطا لرحال الحجاج المصريين ، فان ادارتها وما يليها شمالا من المويلح وضبا والعقبة كانت تابعة للخديوية المصرية ، ويعين عليها محافظ بواسطة حكومة مصر ، بالاضافة لقاض ينظر فى الاحكام الشرعية ، وكان لها جنود يحرسون الطرق ، كان ذلك فى فترة الحج ، واذا انتهى موسم الحج عادت ادارة البلاد مرة أخرى للدولة العثمانية (٢) ، وكانت المدينة المنورة بعد خلع السلطان عبد الحميد قد فصلت عن الادارة الحجازية وارتبطت بمركز السلطنة بخطوط تلغرافية ، تضمن سرعة المخابرات ، واعتبرت المدينة المنورة محافظة مستقلة مرتبطة بوزارة الداخلية رأسا وليس بالولاية ، وظلت تبعات الامارة الحجازية وحقوقها كما كانت عليه ممتدة من مكة المكرمة الى مدائن صالح (٣) ،

---

(١) عبد الله بن الحسين ، مذكراتى ، ص ٤٠ - ٤٣ .

(٢) محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، ص ١٤١ ، ٢٢٤ .

(٣) عبد الله بن الحسين ، مذكراتى ، ص ٤٨ .

ويعتبر ذلك أثر من آثار السكة الحديدية على الحجاز ، اذ لولا الخط لما فكر السلطان وحكومة الاتحاد والترقي تنفيذ ذلك ، والغرض من هذه الحركة يبدو واضحا وهو الزيادة في التحكم والسيطرة على اقليم الحجاز اذ أصبحت الدولة تعلم بما يجرى في هذه المنطقة ، وأخذت تقف على مجريات الاحداث ومن آثار الخط الحجازى تيسير تنظيم البلاد وتعمير الجهات ، واقامة أسواق التجارة وتعميم وسائل الحضارة ونقل الحاصلات والخيرات المعدنية والزراعية والحيوانية الى حيث يمكن الانتفاع بها مما أدى الى تحسن الاحوال (١) . اضافة الى ذلك فان كثيرا من البدو سكنوا بالقرب من مخافر الجنود العثمانية التى أقيمت لحماية الخط . كما امتلك عدد كبير من مهاجرى الشركس الذين كانوا تائهين في شمالى الشام بعض الاراضى هناك ، وأقاموا القرى والمزارع فيها (٢) ، ومن آثار الخط على اقليم الحجاز عامة والمدينة المنورة خاصة أن ازدهرت بالسكان وراجت الاسواق لاتصال الحجاز ببلاد الشام والاستانة وانفتح الحجاز كله عن طريق هذا الخط على بلاد الشام ، والتى كانت تعتبر من أغنى بلاد الدولة العثمانية في الشرق العربى في ذلك الوقت ، وأصبحت المدينة المنورة زهرة بلاد الحجاز ، اذ اقيمت المبانى الضخمة والتى تطل على ميدان المحطة (٣) ، كذلك وردت فواكه الشام وبقية المنتجات والتى أخذت

---

(١) حسين لبيب ، تاريخ الاتراك العثمانيين ، ص ٦٤ .

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام مج ٥ ، ص ١٧٤ .

(٣) فائق بكر صواف ، العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ١٢٢ .

طريقها بواسطة السكة الحديدية (١) حيث نقل في سنة ١٩٠٩م من الشام الى المدينة المنورة ٦٣١٦ر٩١٦٢٢ طنا من المواد الغذائية والصناعية ، كذلك نقل في سنة ١٩١٠م وعلى نفس الاتجاه الشام - المدينة ١١٢٠٠٧ر١١٢ من المواد الغذائية والصناعية أي بزيادة ٣٨١ر٢٠ طنا عن السنة الماضية كما بلغت موارد الخط قبل الحرب العالمية الاولى بعد تصفية كافة النفقات مبلغ ٧٦٨ر٣٢ ليرة عثمانية ذهبية (٢) من خلال تلك الارقام ندرك الاهمية لهذا الخط بالنسبة للدولة وبالنسبة لبلاد الحجاز ، ومما لا شك فيه أنها عادت بالخير لسكان المنطقة ، وكسبت الدولة العثمانية موردا يعود لخزانة الدولة بالخير ، اضافة الى توطين البدو الذين يشكلون مصدر قلق للدولة ، وعندما رأت الدولة ذلك الاستقرار افتتحت مكاتب البريد في المدن التي على طريق السكة الحديدية الحجازية بعد أن كان مكتب البريد الوحيد في مدينة جدة ، وأقفل سنة ١٨٨١م وكانت مدينة جدة المركز الرئيسي وذا أهمية لتجارة الحجاز وكان الحجاج يرسلون رسائلهم من جدة ، اذ يحملون رسائلهم عادة لحين عودتهم الى ميناء جدة ، أويكلفون بها المسافرين في القوافل التجارية الذاهبة الى تلك الجهة ، (٣) ولكن عندما انتظمت المواصلات ، وكبرت الحركة التجارية بين مدن الحجاز وبلاد الشام ، وغيرها من أقاليم الدولة ، رأت الدولة أنه من

---

(١) شرف البركاتي ، الرحلة اليمانية ، ص ١٤٦ .

(٢) وجيه الخيمي ، الخط الحديدي الحجازي ، ماضيه وحاضره ، مقالة في مجلة الفيصل عدد ٣٢ ، ص ١٣٢ .

(٣) ميشال اسطفان ، تاريخ الطوابع في المملكة العربية السعودية ، مقالة في مجلة " تاريخ العرب" عدد ٧٠ ص ٩٠

الأهمية بمكان افتتاح تلك المراكز البريدية لتسهيل المعاملات التجارية ، وليتمكن الجنود العثمانيين من ارسال رسائلهم بسهولة لأهاليهم ليطمئنوا عليهم .

وبعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني في ٢٧ ابريل ١٩٠٩م ، رأت حكومة الاتحاد والترقي الفوائد العظيمة التي عادت على الدولة من سكة حديد الحجاز فقررت مده الى مكة المكرمة ، وكذلك عمل شبكة أخرى تربط مدينة مكة المكرمة بجدة ، والمدينة المنورة بينبع ، وأخذت الدولة تغرى الشريف حسين لمد الخط الى مكة المكرمة وعرضت عليه أن يأخذ ثلث دخل الخط يتصرف به كيف ما شاء وتصبح امارة الحجاز تابعة له مدى الحياة ، ومن بعده لأولاده ، كما توضع تحت تصرفه قوة كافية لتأمين ذلك ، على أن تضع الدولة العثمانية تحت تصرفه ربع مليون جنيه لينفقها على العربان (١) ورغم كل المغريات السابقة والضغوط الشديدة التي مارسها الاتحاديون لم يفلحوا ، ذلك أن الثقة بين العثمانيين وعرب غربي الجزيرة كانت مفقودة بسبب سياسة التتريك التي بدأها الاتحاديون (٢) بالاضافة الى احداث الدولة الداخلية ، وعدم استقرار الامور ، علاوة على الاحداث الخارجية ، التي كانت عائقا في وجه

---

(١) عبد الله بن الحسين ، مذكراتي ، ص ٨٩ .

(٢) وجيه الخيمي ، الخط الحديدي الحجازي ماضيه وحاضره ، مقالة في مجلة الفيصل عدد ٣٢ ، ص ١٢٩ .

الدولة ،وأهم من ذلك كله اتصال الشريف حسين بالانجليز ووعودهم له مقابل خروجه على الدولة العثمانية مما ادى الى نسيان عمل ذلك المشروع العظيم (١).

لكن كيف نفسر افتتاح خط سكة حديد الحجاز عام ١٩٠٨ ؟

هل يمكن أن نقول انه كان وسيلة اضافية لتثبيت سياسة الدولة العثمانية فى غرب الجزيرة العربية ضمانا لنفوذها الروحى فى شبه الجزيرة كلها والعالم العربى والاسلامى ،ونحن نعنى بقولنا وسيلة اضافية ،أى مضافة لقناة السويس كطريق بحرى .

أم أن التفسير الصحيح هو أن الخط كان بمثابة تعويض عن فقدان الدولة سيطرتها على قناة السويس بسبب التواجد البريطانى فى مصر وبالتالى سيطرة انجلترا على ذلك الممر المائى الهام .

والرأى أن التفسير الثانى هو الأصح ويمكننا أن نتصور أهمية الخط بوضوح أكثر لو افترضنا أن الدولة العثمانية لم تنجز ذلك المشروع الهام الذى هو مد سكة حديد الحجاز فى وقت كانت انجلترا فيه قد سيطرت سيطرة كاملة على مدخلى البحر الاحمر الشمالى والجنوبى معا .

---

(١) عبدالله بن الحسين ،مذكراتى ،ص ٨٩ .

خاتمة

التحليل والنتائج

قدمنا لهذه الرسالة بالحديث عن أهمية الجزيرة العربية وعلى الاخص غربها أى اقليم الحجاز للدولة العثمانية ، وأشرنا الى أن الدولة العثمانية كدولة اسلامية كبرى فى العصور الحديثة قد قامت وتوسعت تحت شعار الاسلام ، فلم يكن هناك بد من استمرار الحجاز جزءا من الدولة لاحتوائه على الأماكن المقدسة الاسلامية ، وارتبط بهذا تلقيب السلطان العثمانى بخليفة المسلمين ، وأنه خادم الحرمين الشريفين . وكانت الدولة العثمانية تحاول دائما أن تحيط الحجاز بسياج واق ودرع قوى .

وفى النصف الاول من القرن التاسع عشر تعرض وضع الدولة العثمانية بالنسبة لهذا المجال الى الاهتزاز بسبب التطورات التاريخية التى أوضحناها فى الفصل الاول .

وحين تم فتح قناة السويس ، رأت الدولة فى ذلك فرصة للتغلب على نتائج تلك التطورات ، وانتعش الامل لديها بأن تتخذ من القناة وسيلة لتثبيت وجودها فى غربى الجزيرة وتعزيز أهدافها ، ومن ثم كان للدولة جهود بعد فتح قناة السويس وكان أهمها فى عسير واليمن وحول عدن .

لكن جهود الدولة العثمانية فى سبيل ذلك لم تفلح فى تحقيق أهداف الدولة بسبب العوائق التى قامت فى سبيل استكمال نفوذ الدولة فى غربى الجزيرة العربية ، تلك العوائق التى تمثلت فى احتلال انجلترا لمصر ، وبالتالى سيطرتها على قناة السويس ، ووجود انجلترا فى عدن وازدياد ثورة اليمن .

لكن الدولة العثمانية لم تستسلم لهذه العوائق ، بل نجحت كما رأينا في ايجاد البديل لقناة السويس ، وهو سكة حديد الحجاز . ويمكن القول أن هذا الخط كان عاملا مهما في استمرار نفوذ الدولة في الحجاز منذ افتتاحه حتى نشوب الحرب العالمية الاولى .

شجعت قناة السويس الدولة العثمانية على تطوير بحريتها ، فكانت تعليمات السلطان عبد العزيز لناظر البحرية بأن يهتم بشئونها ويصلح أحوالها ، فما كان من ناظر البحرية الا أن وسع نطاق مدرستها ، وأقام دورا لصناعة السفن ، كما ابتعث كثيرا من الضباط الذين أنهوا دراستهم بالمدرسة الحربية من بريطانيا وتزودوا بالعلوم والتمرينات الحديثة ، كما شيد عددا من السفن الحربية وذلك في دور الصناعة التابعة للدولة ، وأضاف للمدرسة الحربية عددا من التخصصات منها تعليم فن الميكانيكا وعمل المدرعات ، وشيد عدة معامل لصناعة المدرعات ، كما شكل ادارة تكون مسئولة عن جميع الآلات والمعدات البحرية وعرفت هذه الادارة فيما بعد بمستشارية البحرية (١) ، واستقدمت الدولة العثمانية من بريطانيا عددا من المعلمين والمهندسين والرسامين ، وعملوا في دار الصناعة اذ أوكلت اليهم تدريب كثير من شباب الدولة ، وكان اذا برع أحد استغنت به الدولة عن أحد الخبراء

---

(١) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٧٠٧

البحريين الاجانب (١) ، ولم يكن الاهتمام بتطوير البحرية مقتصرا على عاصمة الدولة الأستانة فقط بل شمل أيضا ولاياتها ، ففى بغداد أكثر مدحت باشا من شراء السفن من مصانع بومباى البحرية ، لذلك حرص على أن تكون علاقاته مع حاكم عام الهند البريطانى حسنة ، ليضمن تزويده بتلك السفن (٢) وكان لتطوير البحرية العثمانية وافتتاح قناة السويس أثر كبير فى تدعيم سياسة الدولة العثمانية فى الجزيرة العربية خاصة القسم الغربى منها ، اذ سهلت القناة للدولة العثمانية مرور السفن ، وارسال الحملات والامدادات من العاصمة رأسا الى غربى الجزيرة ، مرورا بمصر احدى ولايات الدولة العثمانية كما أوضحنا ذلك من قبل ، هذا بالاضافة الى سرعة وصول الأنباء والتقارير من غربى الجزيرة الى العاصمة مما ساعد الدولة على الوقوف عن كثب على مجريات الأحداث فى ذلك الجزء من الجزيرة العربية ، فاستطاعت الدولة أن تقيم حكما فعالا ، وقد ارتبط غربى الجزيرة بالعاصمة الاستانة ارتباطا مباشرا مما شجع الدولة على محاولة تطبيق نظمها فى الولايات وعلى الاخص فى غربى الجزيرة بما يتناسب مع هذا الجزء من الجزيرة .

ولم يبعث افتتاح القناة اهتمام الدولة على غربى الجزيرة فقط ، بل شمل

---

(١) اسماعيل سرهينك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٧٠٨ .

(٢) محمد عبد الرحمن برج ، دراسة فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر ، ص ٣٥٤

الجزيرة العربية كلها ، ففى الوقت الذى افتتحت فيه قناة السويس عينت الحكومة فى نفس الوقت مدحت باشا واليا على العراق (١٨٦٩ - ١٨٧٢م) وكان مدحت باشا يرى ضرورة تثبيت السلطة الفعلية على جميع المناطق التى تخضع للدولة اسميا (١) ومنها العراق اذ كانت القبائل تأبى الخضوع للتجنيد ودفع الضرائب ، فعمل مدحت على أن يجعل السلطة المدنية والعسكرية بيده ، فاستطاع أن يجبى الضرائب ، وينشر الامن ، وعمل على توزيع الاراضى على القبائل ، وأنشا مدينتى الناصرية والرمادى ، واهتم بالتعليم فأسس المدارس فى كل قضاء ، وأنشأ مطبعة لاصدار صحيفة "الزوراء" وهى الصحيفة الرسمية ، وأسس المدارس البلدية فى أهم المدن ، وأقام المصانع العسكرية ، كما أنشأ مبان حكومية ومستشفيات ، كما أنشأ دارا للعجزة وملجأ للأيتام ، كما أسس مزرعة نموذجية وأرسل المهندسين للأراضى الزراعية لتنظيم الرى وتحسين الزراعة ، وأخذ فى ردم البرك والمستنقعات لتوسيع واصلاح الاراضى الزراعية ، (٢) وكانت أعمال مدحت باشا السابقة منبثقة من تطبيق السياسة المركزية التى سعت الدولة فى تطبيقها على جميع الولايات ، ولعل الدولة ممثلة فى مدحت باشا قد فعلت ذلك لتتخذ من العراق قاعدة لتثبيت نفوذها فى شرق الجزيرة العربية بعد أن مكنتها قناة السويس من تثبيت

---

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٨٣ .

(٢) محمد بديع شريف ، النهضة العربية الحديثة ، ص ٤٠ .

نفوذها نسبيا فى غربى الجزيرة العربية . وبعد ذلك اتجهت أنظار الدولة العثمانية المتمثلة فى واليها مدحت باشا الى الخليج العربى ورأت أن تعيد سيادتها الفعلية عليه ، فبعد معركة " جوده " التى انتصر فيها سعود على أخيه محمد ، اتجه الامام عبدالله الى الشمال ناحية حائل ، ومن هناك أوفد رسولا الى العراق مزودا بثلاث رسائل بكل من مدحت باشا والى بغداد ، وخليل بك والى البصرة ، والسيد محمد الرفاعى نقيب اشراف البصرة ، يشرح فيها الوضع ويشتكى من أخيه ، ويطلب مساعدة الحكومة العثمانية فى حربه معه ، وانتهز مدحت باشا الفرصة ، وأعد حملة بعد اقرارها من الحكومة العثمانية وأبحرت تلك الحملة من البصرة فى مايو سنة ١٨٧١م قاصدة رأس تنورة ، واتجه مدحت باشا الى الكويت على ظهر سفينة حربية عثمانية تدعى "زخاف" واستعان بجميع سفن الغوص الكويتية لمساعدة الحملة ، وكان عددها ٨٠ سفينة ، كما ساعد الكويتيون الحملة فأرسلوا قوتين بحريتين احداهما بقيادة الشيخ عبدالله ابن صباح الثانى أمير الكويت والاخرى بقيادة الشيخ مبارك واحتلت هذه الحملة الكويتية القطيف دون مقاومة واستسلمت القلعة ، وأما الحملة العثمانية فقد نزلت فى الهفوف ، واستولت على المقاطعة وطردت سعودا ، وأنشأت حكما عثمانيا لمصلحة العثمانيين وحدهم (١) ، واستنكرت نجد وصول العثمانيين الى مقاطعة الاحساء واستيلائهم عليها ، وهم الذين كانوا يعملون للخلاص من

---

(١) امين سعيد ، تاريخ الدولة السعودية ، ج ١ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

العثمانيين ومن كل أجنبي ، لذلك بذل عبد الرحمن بن فيصل جهودا عظيمة لاقناع العثمانيين بالجلاء عن اقليم الاحساء وتركه لأهله الا أنه أخفق في محاولاته ، وعندما يئس من التفاهم معهم ، ومن اقناعهم بالجلاء ، أعد جيشا من عشائر آل مرة والعجمان وغيرهما من القبائل ، وهاجم في أواخر سنة (١٢٩١هـ / ١٨٧٤م) القوة العثمانية المرابطة على أبواب عاصمة الاحساء " الهفوف " فأبادها وحاصر الحامية الموجودة في قصر خزام وقضى عليها واحتل القصر ، وعندما وصلت الأخبار الى بغداد والبصرة انتدب الوالي ناصر بن راشد ابن ناصر بن سعدون لقمع الحركة ، واشتبك الفريقان في معركة شديدة انتهت بانتصار ناصر بن راشد ، فغادر عبد الرحمن بن فيصل المنطقة متجها الى الرياض (١) ، وبعد أن تمت السيطرة على اقليم الاحساء اتجهت الدولة في توسيع نطاق نفوذها الى قطر ، وبعد أن بسطت الدولة العثمانية نفوذها على قطر أخذ مدحت باشا في الاتصال بحاكم الكويت الشيخ عبد الله آل صباح بالانضمام الى العراق ، وعينه قائمقاما تابعا للبصرة ، ورفع العلم العثماني على هذه الامارة الصغيرة ، ونتيجة للاصلاحات التي قام بها مدحت باشا ازدهرت النهضة الفكرية وأخذت السفن تنشط في حركتها في دجلة والفرات وكون مدحت باشا شركة عثمانية ، بعد أن كانت ادارة السفن بيد شركة انجليزية ، كما أصلحت السفن القديمة وقد استطاعت تلك السفن عبور قناة السويس لأول مرة ، (٢)

---

(١) محمد بديع شريف وآخرون ، النهضة العربية الحديثة ، ص٤٠ .

قادمة من الخليج الى بحر العرب ثم الى البحر الاحمر ولتأكيد النفوذ العثمانى على الخليج قام مدحت باشا باعادة بناء ميناء الزبارى المواجه لجزر البحرين ، وذلك لتتخذ منه مركزا لبسط سلطانها على البحرين (١) . فأثار هذا العمل مخاوف بريطانيا من امتداد النفوذ العثمانى الى مواقعها الاستراتيجية ، ولكنها لم ترغب فى بادىء الأمر أن تواجه الدولة العثمانية بشأن ميناء الزبارى ، فأوعزت للشيخ عيسى آل خليفه أن يحتج لدى الباب العالى وأن يظهر له حقه على هذه المنطقة (٢) . وكتب مدحت باشا الى الحاكم العام البريطانى لورد ميو فى الهند يبرر موقفه باظهار الادلة القانونية لتثبيت حق الدولة العثمانية فى السيادة على جزر البحرين ، لكن لم يكن الاعتراض من جانب حكومة الهند فقط ، بل شاركت فيه وزارة الخارجية البريطانية فبعثت للحكومة العثمانية فى ١٤ ابريل سنة ١٨٧٤م مذكرة تهدد فيها الدولة العثمانية وتقول أن انجلترا لن تسمح بأى عمل يمس استقلال البحرين ، وعندها أوقفت حكومة الباب العالى البناء والاصلاح فى ميناء الزبارق، (٣) .

---

(١) محمد عبد الرحمن برج ، دراسة فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر ص ٣٥٤ . (٢) قدرى قلعجى ، الخليج العربى ، ص ٤٦٧ .

(٣) محمد عبد الرحمن برج ، دراسة فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر ، ص ٣٥٧ .

وهكذا لم يبعث افتتاح قناة السويس لدى الدولة العثمانية تثبيت نفوذها في غربي الجزيرة فحسب بل حمل الدولة على تقوية وجودها في الخليج العربي الجزيرة بالاضافة الى غربها أى تطويق شبه الجزيرة كلها بنفوذها . وكان لاهتمام الدولة العثمانية بالخليج العربي وشبه الجزيرة العربية أثر بالغ على تلك المنطقة لما لها من أهمية استراتيجية بالنسبة للعالم، لذلك حولت الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي البصرة من متصرفية الى ولاية ، ويعتبر هذا في حد ذاته مظهرا من مظاهر اهتمام العثمانيين بالخليج وشبه جزيرة العرب . (١) ثم ان شق قناة السويس سنة ١٨٦٩م يعتبر في حد ذاته نقطة البدء لتطورات خطيرة في مجرى تاريخ التجارة الدولية ، بل انها كقناة ملاحية كانت كافية لانقلاب خطير في خطط السياسة والعلاقات الدولية والاستراتيجية ، وقناة السويس غيرت كل الطرق والمسالك الأساسية للتجارة الدولية بصفة عامة ، وبين أوربا وآسيا بصفة خاصة وترتب على ذلك تحول اعداد كبيرة من السفن الى ذلك الطريق ، حتى أصبح البحر الاحمر أكثر الطرق ازدحاما بالحركة ، لذلك تغيرت الاوضاع بعد أن زاد تسرب ونشاط التيارات السياسية الاوربية الى البحر الاحمر ، فتمسكت الدول الاوربية ببعض المراكز الاستراتيجية المهمة على مشارف البحر ومداخله وثبتت

---

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٩٢ .

أقدامها بها ، وكانت كلها تتصارع فيما بينها لتحتل مراكز ممتازة تتكافأ مع قيمة الطرق الصاعدة فى خدمة التجارة العالمية ، (١) وأذكر فى ذلك الصدد بريطانيا التى أخذت تؤمن طريق الامبراطورية عن طريق تقوية نفوذها فى جنوب غرب الجزيرة ابتداء من عدن ، فغيرت سياستها مع القبائل اليمنية المحيطة بعدن ، بحيث تحولت من عقد معاهدات " صداقة وولاء " الى عقد " معاهدات الحماية " ، مستغلة فرصة تخوف سلاطين المنطقة من سيطرة العثمانيين كما أوضحنا من قبل ، وكانت السياسة البريطانية تهدف الى المحافظة على انفراد بريطانيا بالنفوذ المطلق فى عدن ، وفى المنطقة المحيطة بها ، وابعاد أى نفوذ أجنبى آخر يهدد مصالحها هناك ، وبذلك يمكنها أن تستفيد من عدن كقاعدة لتنفيذ سياستها فى منطقة البحر الاحمر (٢) ومن عدن - القاعدة الحربية والبحرية لبريطانيا - اتخذت خطوة ايجابية على الساحل الشرقى لافريقيا ، ففى سنة ١٨٨٤م أنهت بريطانيا الحكم المصرى وأخرجت المصريين من مراكزهم التى يحتلونها فى بربرة وفى هرر وفى زيلع وسيطرت على الميناءين الهامين فى بلاد الصومال مكونة بذلك الصومال البريطانى ، وقررت بريطانيا ضرورة اخلاء سودان وادى النيل وقررت ارسال بعض قطع الاسطول الحربى لحماية الموانىء المصرية فى البحر الاحمر

---

(١) صلاح الدين الشامى ، الموانىء السودانية ، ص ١٣٦ .

(٢) فاروق عثمان أباظه ، عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ، ص ٨ .

وخليج عدن ، وذلك بفرض السيطرة على جميع الموانئ المصرية (١) ، بعد ذلك بدأت انجلترا في توسيع دائرة نفوذها في الصومال مما ادى الى التصادم مع فرنسا أكثر من مرة وهنا خشى الماجور هنتر مساعد المقيم السياسي في عدن من تدخل مندوب فرنسا في هرر ، الذي عين من قبل حكومته سنة ١٨٨٤ م ، وأوصى هنتر حكومته بضرورة الوصول الى اتفاق رسمي مع فرنسا من جهة ومع ايطاليا من جهة أخرى بخصوص شئون اقليم الصومال مع عمل اشراف دولي على دخول الاسلحة النارية والذخائر اليه ، وكان هنتر يسعى بموجب تلك التوصية الى تقليل خطر تزويد الفرنسيين لأهالي الصومال بالاسلحة والذي يهدد الوجود البريطاني في بربرة وزيلع وهرر ، (٢) ، وفي سنة ١٨٨٥ عقد اتفاق بين بريطانيا وفرنسا ، وجاء في هذا الاتفاق أن تمتد المحمية البريطانية من خط الطول ٤٩° شرقا الى النقطة التي تقع عندها آبار لاهادوا والى نحو منتصف الطريق بين مصوع ورأس جيبوتي ، بينما يمتد الخط الذي يفصل بين المحميتين الانجليزية والفرنسية الى أباسرين ويبوه وكابوبو وجيلدسا وهرر ، أما جزر موسى وباب المندب فقد دخلت ضمن حدود المحمية الفرنسية بمقتضى الاتفاقية

---

(١) أجيه يونان جرجس ، البحر الاحمر ومضايقه ، ص ٤٠ .

(٢) فاروق عثمان اباظه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، ص ٥٢ .

التى عقدت سنة ١٨٨٨م ونصت الاتفاقية على تعهد كل من الحكومتين بعدم التدخل عبر خط التقسيم الذى يصل بين المحميتين .(١)

وكانت فرنسا قد اشترت فى ١١ مارس سنة ١٨٦٢م منطقة صغيرة تسمى أوبوك على خليج تاجورة وهى فى منتصف المسافة لتاجورة ومواجهة لعدن ،وفى الفترة من ١٨٦١ - ١٨٨٠م لم تحتل فرنسا المنطقة ،ولكنها أدركت أهميتها الاستراتيجية لانها قريبة من منفذ البحر الاحمر،ولأهميتها من الناحية الاقتصادية ،وذلك فى استخدامها كمنفذ للتجارة الحبشية لذلك احتلت فرنسا أوبوك سنة ١٨٨١م ،وفى نفس السنة تنازل سلطان تاجورة لفرنسا عن بقية ممتلكاته (٢) ،ومن هنا جاءت المنافسة بين بريطانيا وفرنسا الا أن بريطانيا تمكنت من بسط نفوذها على الساحل الصومالى المواجه لعدن ،وذلك حماية لوجودها فى عدن نفسها ،وضمانا لسلامة وأمن طريقها البحرى الى الهند عبر البحر الاحمر،وقد قامت بريطانيا بذلك فى الوقت الذى كانت فرنسا تقوم فيه ببسط نفوذها على بعض أجزاء هذا الساحل انطلاقا من قاعدتها فى أوبوك ،وقد بدا التنافس واضحا بين البريطانيين والفرنسيين فى منطقة البحر الاحمر خاصة فى الوقت الذى احتلت فيه بريطانيا ميناءى بربرة وزيلع كما أجلت المصريين عن هرر ووضعت امكانات الساحل الصومالى فى خدمة

---

(١) أجيه يونان جرجس ،البحر الاحمر ومضايقه ،ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) المصدر السابق ص٣٦ .

قاعدتها فى عدن ، وكانت فرنسا تحاول أن تقطع الطريق على بريطانيا لتحقيق أهدافها هناك ، على أن هذا الموقف أجبر بريطانيا فيمابعد على تسوية المشاكل مع فرنسا فى بلاد الصومال المطلة على المدخل الجنوبى للبحر الاحمر وخليج عدن ، وعلى اشراك الفرنسيين فى تقسيم ممتلكات مصر هناك بعد أن أجبرتها بريطانيا على اخلائها حماية لمصالحها الاستعمارية فى منطقة البحر الاحمر وفى ميناء عدن الهام ، وبعد أن نفذت بريطانيا دورها فى المدخل الجنوبى للبحر الاحمر كان لبريطانيا دور آخر فى المدخل الشمالى للبحر الاحمر التى ازدادت أهميته حينما تقدمت الملاحة وبدأت المواصلات مع الهند والصين وبقية بلاد الشرق الاقصى ، فأصبح دور ذلك البحر لا يقتصر على نقل تجارة ومنتجات هذه المناطق بل أصبح الممر التجارى لتموين العالم الاوروبى ، وكان فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ للملاحة العالمية نقطة تحول هامة فى تاريخ مصر بصفة خاصة وتاريخ البحر الاحمر بصفة عامة ، وكذلك كان افتتاح القناة حدثا هاما فى تاريخ التجارة العالمية وتاريخ الاستعمار لذلك عملت انجلترا على زيادة نفوذها فى القناة ، واتخذت عدة وسائل لتحقيق أهدافها الاستعمارية ، اذ قامت أولا بشراء أسهم مصر فى القناة ، ثم سعت الى السيطرة على شئون مصر متذرعة فى ذلك بذرائع مختلفة حتى تسيطر على قناة السويس مفتاح البحر الاحمر الشمالى (١) ، وبعد أن احتلت بريطانيا مصر

---

(١) أجيه يونان جرجس ، البحر الاحمر ومضايقه ، ص ٣٢ .

أصبحت صاحبة المركز الفعلي في قناة السويس وضمنت بذلك مصالحها في البحر الاحمر اذ كانت التجارة البريطانية التي تعبر البحر الاحمر تشكل أربعة اخماس التجارة العالمية ، كما كان جزء كبير من هذه التجارة يمر بميناء عدن مما زاد من أهميتها ، وأدى ذلك بالتالي الى تشبث البريطانيين بالبقاء فيها ، وتدعيم نفوذهم في المنطقة المحيطة بها ، ولا شك أن قناة السويس الى جانب كونها ممرا عالميا للمواصلات بين الشرق والغرب ، فانها قد أصبحت أيضا ممرا ضروريا للمواصلات بين الاجزاء المختلفة من الامبراطورية البريطانية بوجه خاص (١) ، ولذلك ظلت بريطانيا تحافظ على هذا المركز الممتاز مدة الاحتلال البريطاني على أساس حماية حرية المرور الذي كان يهمها أكثر من أية دولة أوربية أخرى ، وهكذا تحكمت بريطانيا في المدخل الشمالي للبحر الاحمر بسيطرتها على مصر وقناة السويس ، وعلى المدخل الجنوبي لهذا البحر بسيطرتها على عدن وبسط نفوذها في المنطقة المحيطة بها في جنوبي اليمن ، وفي المنطقة المواجهة لها على الساحل الافريقي للبحر الاحمر والتي تشرف على خليج عدن من ناحيتي الغرب والجنوب ، ومعنى هذا كله أنه في الوقت الذي سعت فيه الدولة العثمانية للاستفادة من افتتاح قناة السويس لتثبيت نفوذها ، غربي الجزيرة والبحر الاحمر ضمانا لوجودها كحامية للاماكن المقدسة الاسلامية كان الاستعمار البريطاني قد ثبت قدمه في جنوب غربي

---

(١) فاروق عثمان أباظه ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، ص ٣٧٧ .

الجزيرة وأخذ يستشرى فى المنطقة العربية ثم كان الصراع الاستعمارى البريطانى الفرنسى مما جعل محاولات الدولة العثمانية فى هذا الصدد على جانب كبير من العقم .

وباحتلال بريطانيا لمصر وقناة السويس فقدت الدولة العثمانية مركزها الممتاز فى ذلك الاقليم الحيوى الذى ربط غرب الجزيرة العربية بعاصمة الدولة الاستانة ، فصعب ارسال الحملات التأديبية والتى كانت ترسلها لاقاليمها فى غربى الجزيرة ، كما فقدت مصر التى كانت تمد خزانة الدولة بالأموال الوفيرة ، اضافة الى ما كان يسند اليها فى مد القوات المرسلة بالمؤن والذخائر ، وفى بعض الاحيان تتكفل مصر بارسال الحملات من جنودها ، على أن فقدان مصر قد تسببت فيه الدولة العثمانية نفسها ، اذ أخذت فى ارخاء قبضتها على واليها سواء أكان قبل افتتاح القناة أو بعده ، فبعد زيارة السلطان عبد العزيز لمصر فى ابريل سنة ١٨٦٣م أخذ اسماعيل باشا يسعى الى تعزيز ولايته فى مصر فسعى لدى الباب العالى فى تغيير الفرمان الصادر سنة ١٨٤٠م بشأن وراثة عرش مصر والذى يقضى بأن يؤول عرش الولاية لأكبر فرد فى أسرة محمد على بشرط موافقة الباب العالى ، لذلك طلب اسماعيل من الباب العالى أن يجعل الوراثة لأكبر أولاد الخديوى بدون قيد أو شرط ، ووافق السلطان على ذلك (١)

---

(١) عمر الاسكندرى ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثمانى ، ص١٢٩ .

وترتب على هذا أخطاء ورطت الدولة ومصر فى مشاكل كبيرة مثل ما حدث فى عهد الخديوى توفيق ، وهذا بطبيعة الحال خطر على الدولة العثمانية نفسها اذ أصبحت الولاية مقتصرة على أسرة الخديوى حتى اذا رأت الدولة العثمانية رجلا أفضل منه فلا تستطيع تعيينه ، وهذا خطأ من الدولة كما سعى اسماعيل باشا لدى الباب العالى الى منحه لقبا أرقى من باشا ، والغرض من ذلك تثبيت امتياز مصر عن بقية ولايات الدولة ، فمنحه السلطان لقب خديوى ومعناه الامير العظيم فى ربيع الاول سنة ١٢٨٤هـ (يولية سنة ١٨٦٧م) (١) وكانت تلك الامتيازات التى توصل اليها اسماعيل بعد ما أدركت الاهمية التى سوف تكون عليها مصر بعد افتتاح القناة فالسلطان لا يرغب فى اغضاب الخديوى حتى لا ينفصل عن جسم الدولة ، ولكن الذى حدث بعد ذلك هو أن السلطان العثمانى قد أحس بانفصال مصر عن جسم الدولة ، لذلك أصدر فرمانا فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩م أكد حقوق السيادة العثمانية على الخديوية المصرية وبالصورة التى رسمتها فرمانات ١٨٤٠ - ١٨٤١م ، وأعاد السلطان فيه ذكر المسائل التى قبلها اسماعيل بشأن تقييد السفن الحربية والعلاقات الخارجية ، وأكد على ضرورة استخدام موارد البلاد لخدمة مصالحها الحقيقية ، ومعاملة الرعايا المصريين بالعدل والانصاف وألا تجبى ضرائب جديدة من غير حاجة شرعية

---

(١) عمر الاسكندرى ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثمانى ، ص ٢١٩ - ٢٢٠

ماسة ، وألا يعقد قرض الا بعد موافقة السلطان (١) ، كان هذا الفرمان يعتبر في حد ذاته لصالح الدولة اذ أكد سيادة الدولة العثمانية على مصر لابعاد التدخل الاجنبي ، الا أن الامور تطورت بعد ذلك ، اذ قامت الدولة بمنح الخديوى اسماعيل عدة امتيازات وذلك في ربيع الثاني سنة ١٢٩٠ هـ الموافق سنة ١٨٧٣م وأكدت كل الحقوق التي منحت للخديوى في السابق اضافة الى اعتراف الباب العالي باستقلال الخديوى بشئون مصر الداخلية استقلالا تاما ، وصرح له بأن يعمل بدون استشارة في الحصول على قروض ، وعقد المعاهدات التجارية وغيرها مع الدول الاجنبية مادامت تلك المعاهدات لا تناقض مصلحة الدولة ولا محالفاتها السياسية مع الدول ، وأن يزيد جيشه حسبما يراه صالحا ، على شرط ألا يكون في أسطوله مدرعات وفي مقابل ذلك زادت الضرائب التي تدفع للخزينة (٢) . وكانت تلك الامتيازات تعني تفريط الدولة العثمانية في مصر والقناة ، مما سمح للدول الاوربية التدخل في شوءون مصر وترتب على ذلك الاستعمار البريطاني لمصر والقناة والذى كان سنة ١٨٨٢م ، الا أنه في هذا الوقت كان مركز انجلترا في مصر مزعزعا ، وذلك بسبب عدم اعتراف الدول بمركز بريطانيا الشرعي ، ففرنسا غير موافقة على مركز الانجليز المتفوق في مصر وايطاليا غير راضية بعمل الانجليز المنفرد اذ كانت ترغب في اشراك كل الدول الكبرى

---

(١) سيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، ص ٣٦٥ .

(٢) عمر الاسكندرى ، وسليم حسن ، تاريخ مصر من الفتح العثماني ، ص ٢٢٠ .

فى مسألة تأمين القناة ،أما ألمانيا والنمسا والمجر وروسيا فلم يقروا مهمة انجلترا لحماية القناة ،وكانت تلك الدول ترى ضرورة تدخل الباب العالى بجانب انجلترا . فالباب العالى هو صاحب السيادة على مصر من الناحية القانونية ، (١) وهى مسئولة عن تلك الحماية ،الا أنها لم تستغل مكانتها القانونية فى مصر، واكتفت بالاحتجاج اللفظى ،اذ لم تكن فى موقف يسمح لها بمواجهة بريطانيا ، ولكن مركز بريطانيا أيضا كان ضعيفا ،اذ انقسمت الحكومة البريطانية بين مؤيد لاحتلال مصر ، ومعارض للاحتلال ، ومع ذلك لم يستغل الباب العالى هذا الموقف أيضا ،كل ذلك أدى الى تفريط الدولة العثمانية فى ولاية مصر التى تمر فيها القناة اضافة الى توسيع النفوذ البريطانى فى جنوب غرب الجزيرة والساحل الشرقى لافريقيا ، ومعنى ذلك أن البحر الاحمر لم يعد بحيرة عثمانية كما كان ،وكان على الدولة أن تبحث عن طريق آخر يؤمن نفوذها على غرب الجزيرة ،وكان ذلك هو مد خط سكة حديد الحجاز ، فى وقت كانت فيه انجلترا قد سيطرت كما ذكرنا سيطرة كاملة على مدخلى البحر الاحمر الشمالى والجنوبى معا .

ونعود الآن للحديث عن الوضع فى قلب الجزيرة (نجد) فقد كان العثمانيون قد حاولوا ارضاء آل الرشيد الذين اعترفوا بالخلافة العثمانية وأعطوا ولاءهم للسلطان العثمانى ،وكان الامير من آل رشيد يرسل الرسل محملين

---

(١) محمد مصطفى صفوت ،انجلترا وقناة السويس ، ص ٩١ .

بالهدايا ، ونال النياشين الرفيعة ، وقبل المندوبين المعتمدين من الحكومة العثمانية وأخذت الدولة تعتمد عليه وتعده من أكبر المخلصين لها ، واتخذ آل رشيد موقف المناوأة من الدعوة السلفية لذلك أغدقت الدولة العثمانية على ابن الرشيد العطايا ، وخصوه دون غيره بالمساعدات والتعضيد وكان ذلك حتى وفاة محمد العبدالله الرشيد فى سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) ، واستمرت تلك المساعدات فى عهد خلفائه (١) ، ولم تكن سيطرة الدولةالعثمانية على نجد بالامر الهين لا سيما اذا عرفنا أن هناك عقبات تقوم فى وجه الدولة للسيطرة على قلب الجزيرة والتى تتمثل فى بعد المسافة وقلة وسائل النقل ، وضراوة العربى فى الدفاع عن حريته (٢) ، وتطورت الأمور فى الكويت ، فبعد أن منحت الدولة العثمانية شيخ الكويت عبدالله آل الصباح منصب قائمقام سنة ١٨٧١م خلفه أخوه محمد سنة ١٨٩٢م الذى وكل الامارة لرجل عراقى يدعى يوسف بن عبدالله آل ابراهيم ، وكان مواليا للدولة العثمانية ، وكان يأمل أن تؤيده الدولة فى عزل آل الصباح ، وتعيينه بدلا منهم ، لكن الشيخ مبارك آل الصباح أدرك نوايا يوسف بن عبدالله ، فقتل أخاه محمد سنة ١٨٩٦م واستولى على السلطة وهرب يوسف الى البصرة (٣) ، حيث وجد ترحيبا

---

(١) خيرالدين الزركلى ، شبه الجزيرة فى عهد الملك عبدالعزيز ، ج ١ ص ١١٨ .

(٢) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٣٣ .

(٣) محمد عبدالرحمن برج ، دراسة فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر ص ١٢٨ .

من واليها حمدى باشا ، وأيدت الدولة أول الامر حقوق أبناء الحاكم المقتول محمد آل الصباح فى أن يرثوا السلطة ورأى السلطان عبد الحميد أن ينتهز هذه الفرصة لتقوية نفوذه فى الكويت وطالب بالتحقيق فى حادثة القتل (١) ، وبعد تردد من قبل الحكومة العثمانية ، أصدرت الدولة فرمانا سنة ١٨٩٣ يقضى بتعيين الشيخ مبارك بمنصب قائمقام على الكويت وفى فبراير سنة ١٨٩٧م أرسلت الدولة موظفا عثمانيا للحجر الصحى الى الكويت ، وفى نفس الشهر طلب الشيخ مبارك مقابلة المقيم السياسى البريطانى أو مندوبا عنه ، فأرسلت بريطانيا المندوب المساعد فوق العادة فى شهر سبتمبر فأبلغه الشيخ أنه وشعبه يودون أن يكونوا فى حماية بريطانيا ، لكن بريطانيا كانت ترى أن الظروف غير ملائمة لاجابة طلبه (٢) بعد ذلك تحسنت العلاقات بين الشيخ مبارك وبين العثمانيين ، الا أن الثقة بين الطرفين لم تتحقق ولم تساعد الظروف الخارجية على استمرار العلاقات ، اذ أن والى البصرة ظل يظهر عداءه ، كما أن المناوشات بين آل الصباح وآل الرشيد قد تكررت حيث تطلع آل رشيد الى احتلال منفذ على البحر يساعدهم على استيراد حاجتهم من الخارج ، وعلى الأخص السلاح ، ولما كان العثمانيون يحتلون العقير ، فلم يبق أمامهم سوى الكويت ، وفى حالة وقوع نزاع على نطاق واسع بين آل الرشيد وبين الكويت فمن الارجح أن يساند العثمانيون حلفاءهم

---

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج ، ص ١٩١ .

(٢) د . سيد نوفل ، الخليج العربى ، ص ١٦٥ .

من آل الرشيد (١) ، لذلك كرر الشيخ مبارك فى أوائل سنة ١٨٩٨ م فكرة طلب الحماية البريطانية ، الا أن بريطانيا قابلت هذا الطلب بالرفض اذ أنها لا تريد الدخول مع الدولة العثمانية فى منازعات اضافة الى أن حكومة الهند كانت تسلم بأن القسم الشمالى من الخليج يدخل ضمن اطار السيادة العثمانية ، وتكتفى بالقسم الجنوبى من الخليج (٢) الا أن المقيم العام البريطانى فى الخليج الكولونيل ميد كان يوصى بفرض الحماية ، اذ أبرز أهمية الكويت . فالكويت تملك ميناء ممتاز ، واذا أصبح تحت حماية بريطانيا فسوف يكون من أهم مراكزها فى الخليج العربى ، اضافة الى احتمال جعل الكويت فى المستقبل نهاية الخط الحديدى من الاسكندرونة أو بورسعيد ، وفى قبول بريطانيا الاشراف على هذا الميناء تضمن حماية تلك المشروعات ، وتعددت المذكرات فى تلك الفترة ، وجميعها تشير الى ضعف الروابط بين الكويت والدولة العثمانية (٣) ، بجانب ذلك تطورت العلاقات بين ألمانيا والدولة العثمانية ، فبعد مفاوضات قصيرة بين الطرفين قبلت الدولة فكرة ألمانيا فى انشاء خط حديدى يصل الشبكة الحديدية العثمانية ببلاد الرافدين عن طريق آسيا الصغرى حتى تبلغ الخليج ، واستخدام الكويت كمحطة أخيرة (٤) ، وصدر لذلك امتياز فى سنة ١٨٩٨ م لصالح شركة ألمانية (٥)

---

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٩٢ .
(٢) المصدر السابق ص ١٩٣ .
(٣) المصدر السابق . ص ١٩٣
(٤) قدرى قلعجى ، الخليج العربى ، ص ٤٦٨ .
(٥) صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٩٤ .

ومع نهاية سنة ١٨٩٨ عين اللورد كيرزون حاكما عاما للهند ، الذى أيد سيطرة العثمانيين للقسم الشمالى من الخليج مع مراعاة عدم وجود أية قوى أوربية تقف وراء الدولة العثمانية ، وبادر بالموافقة على وضع الكويت تحت الحماية البريطانية (١) ، وبناء عليه تم الاتفاق بين بريطانيا ويمثلها الكولونيل ميد ، والكويت ويمثلها الشيخ مبارك الصباح فى ١٠ رمضان سنة ١٣١٦ هـ الموافق ١٣ يناير سنة ١٨٩٩ م على ألا تتنازل الكويت عن أى جزء من أراضيها أو تقبل تمثيلا دبلوماسيا أجنبيا الا بموافقة الحكومة البريطانية ، وفى المقابل تعهدت انجلترا أن تضمن استقلال الكويت وتدعمه عسكريا الى جانب منحها مساعدة مالية (٢) ، وبناء عليه رفض الشيخ مبارك استقبال قنصل ألمانيا فى استانبول الذى حضر للكويت للتفاوض مع شيخها لتحديد موقع نهاية خط حديد برلين - بغداد عند رأس كاظمة (٣) ، وتكررت بعد ذلك محاولات الدولة العثمانية لفرض سيطرتها على الكويت ، حتى تتمكن الشركة الالمانية من تنفيذ مشروعها ، فاضطرت بريطانيا عند ذلك بالتصريح عن وجود اتفاق مع شيخ الكويت اذ كان هذا الاتفاق سريا ، وأثار ذلك غضب الحكومة العثمانية وأعلن وزير خارجية الدولة أن هذا الاتفاق مخالف لمعاهدة برلين سنة ١٨٧٨ م ، وأجاب وزير خارجية بريطانيا سالزبرى   عليه بأنطيس فى نية بريطانيا

---

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٩٤ .

(٢) قدرى قلعجى ، الخليج العربى ، ص ٤٦٨ .

(٣) سيد نوفل ، الخليج العربى ، ص ١٦٦ .

اعلان الكويت محمية بريطانية ولكن قد ترغمها حكومة الباب العالى على ذلك، وتوصل الطرفان بعد ذلك الى تسوية موءقتة ، وذلك بعدم التدخل فى شئـون الكويت الداخلية (١) ،الا أن الدولة العثمانية ساءها رضوخ الكويـت للبريطانيين وأخذت تستعين بعبد العزيز الرشيد عدو الشيخ مبارك وأخبرته بأن الدولة العثمانية لا تمانع فى استيلائه على الكويت وضمها الى أملاكه طالما أن آل الرشيد من أتباع الدولة المخلصين ، فسر ابن الرشيد بذلك ، وكـان يطمع فى الاستيلاء على الكويت ليكون له منفذ على الخليج العربى ، وأخـذ عبد العزيز الرشيد يعد العدة لعملية الهجوم ، كما قدمت الدولة العثمانيـة المساعدات (٢) ، وكان شيخ الكويت قد استعد من جانبه للمعركة فأتـى بالمرتزقة من قبائل مطير والمنتفق والعجمان ، وفى فبراير سنة ١٩٠١م التحم الجيشان فى الصريف عند منتصف الطريق بين الكويت وحائل ، غير أن جيـش الشيخ مبارك لم يستطع الصمود أمام جيش الرشيد الذى دربه العثمانيون (٣) وكانت الهزيمة من نصيب آل الصباح ، واضطر الى الانسحاب الى الكويـت وهنا حاولت الدولة العثمانية التدخل فأرسلت فى ديسمبر سنة ١٩٠١م البارجة العثمانية " زحاف " وقدمت انذارا الى الشيخ مبارك بأن يستقبـل فصيلة عثمانية عسكرية فى الكويت أو يغادر الكويت الى استانبول ، وأجاب الشيـخ

---

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

(٣) صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٩٦ .

مبارك قائد البارجة اجابة سياسية ولكنها سلبية ، وانسحبت زحاف (١) ، وعاد ابن الرشيد بعد ذلك الى مهاجمة الشيخ مبارك ، بعد أن اتفق مع الدولة العثمانية على مده بمساعدات وأسلحة فسار على رأس قوة كبيرة الى منطقة حفر الباطن وواصل سيره حتى وصل امام أسوار جهرا ، وهى قرية فى الطرف الداخلى للكويت ، ولجأ الشيخ ا مبارك الى البريطانيين الذين اتخذوا الترتيبات العاجلة ، وشرعوا فى قصف معسكر الرشيد ، فانسحب ابن الرشيد الى قاعدته فى حفر الباطن (٢) ، ولم تقف الدولة العثمانية عند ذلك الحد فى التدخل فى شئون الكويت ، ولم تيأس فى اعادة سيطرتها عليها ففى خريف سنة ١٩٠٢ أراد يوسف بن عبد الله الاستيلاء على الكويت بتأييد من العثمانيين ونزلت مجموعة من عرب الاشراف من الجانب الفارسى فى منطقة دورة الواقعة على شط العرب ، وذلك بقيادة ابن أخ الشيخ مبارك الذى استنجد بالبريطانيين ، وتلقى قائد البارجة البريطانية لابوينج خبر تلك الحملة فى ٣ سبتمبر فى الفاو ، وأسرع الى الكويت لصدها ، وبحث عن الحملة واكتشف فى اليوم الخامس من سبتمبر سفينتين وعلى ظهرهما ١٥٠ رجلا مسلحا وطاردت زوارق لابوينج السفينتين ، وبعد معركة عنيفة تم الاستيلاء على السفينتين وأسر من فيهما ، (٣) ، وفى العام التالى سنة ١٩٠٣م أقام العثمانيون

---

(١) سيد نوفل ، الخليج العربى ، ص ١٦٧ .

(٢) عبد الله فيلبى ، تاريخ نجد ، ص ٢٧٧ .

(٣) سيد نوفل ، الخليج العربى ، ص ١٦٧ .

حامية فى أم القصر وصفوان ، وحاولوا الاستيلاء على جزيرة ببيان ، وأثار ذلك قضية جديدة تتعلق بحدود امارة الكويت ، فادعى الشيخ مبارك بأن حدود امارته تمتد الى الفاو شمالا ، ونتيجة لذلك صرح وزير الخارجية البريطانى بلفور فى مجلس العموم بأن شيخ الكويت تحت الحماية البريطانية ورفض ادعاءاته بامتداد حدوده الى الفاو (١) ، وفى نفس السنة زار اللورد كيرزون حاكم الهند البريطانى الكويت فى اطار زيارته لدول منطقة الخليج العربى وعلى اثر هذه الزيارة عينت الحكومة البريطانية فى السنة التالية سنة ١٩٠٤م وكيلا سياسيا للكويت فاحتج العثمانيون على هذا التعيين لأنه فى الحقيقة يمس بسيادة الدولة على الكويت ولكن بريطانيا لم تعبأ بذلك الاحتجاج (٢) ، وأخذ النفوذ الانجليزى ينمو فى الكويت ، وتوطدت العلاقات بين البلدين حتى انتهى الوجود العثمانى ولم يبق لهأثر ، وبذلك فقدت الدولة العثمانية ذلك الطريق الذى كانت تباشر منه توطيد نفوذها فى شرقى الجزيرة العربية ، واحاطة شبه الجزيرة بدرع واق .

وننتقل بالحديث الى قلب الجزيرة العربية الى منطقة نجد ، اذ تم على يد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود فتح مدينة الرياض وذلك فى الرابع من شوال سنة ١٣١٩هـ الموافق للرابع عشر من يناير سنة ١٩٠٢م ،

---

(١) صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٩٨ .

(٢) حافظ وهبه ، جزيرة العرب ، ص ٨٢ .

وبفتح مدينة الرياض استرد ابن سعود ملك أجداده المسلوب (١)، ويعتبر فتح الرياض نقطة بداية لتكوين سلطة ومملكة متسعة الأطراف اذ أخذ الملك عبد العزيز يعمل لاستعادة سلطة السعوديين في نجد، وبذلك تبدأ الفترة الثالثة لحكمهم والتي توطدت فيه دعائم حكمهم منذ ذلك الحين، وكان الطريق أمام عبد العزيز مليئا بالعقبات لأن الدولة العثمانية أخذت تقدم مساعداتها لآل الرشيد حينما لاحظت تصاعد قوة السعوديين المطرد (٢) وأخذ الملك عبد العزيز بعد فتح الرياض يؤمن لنفسه الحدود، لذلك عمد الى الاستيلاء على القسم الجنوبي من نجد، فاستولى في أوائل سنة ١٣٢٠هـ الموافق سنة ١٩٠٢م على منطقة الخرج والأفلاج، (٣) وكان قد بدأ بالقسم الجنوبي لأن غالبية القبائل الموجودة في الشمال موالين لآل الرشيد، لذلك رأى الملك عبد العزيز حماية ظهره فيما بين الرياض والربع الخالي جنوبا، بعد ذلك اتجه ناحية الشمال، فغزا قبائل قحطان والتابعة لابن الرشيد، عندها أدرك ابن الرشيد استفحال أمر ابن سعود فانصرف الى عاصمته حائل ليجمع قواه، ورجع ومعه جموع من قبائل شمر والقصيم وسدير والوشم وكانت وجهته الرياض، وتقابل القائدان بقرب الدلم في منطقة السلمية، ودارت بينهما معركة انهزم فيهما

---

(١) صلاح الدين المختار، تاريخ المملكة العربية السعودية، جـ ٢، ص ٤٢.

(٢) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، ص ٢٠١.

(٣) حافظ وهبه، جزيرة العرب، ص ٢٤٦.

ابن الرشيد واضطر للعودة نحو الشمال ، واستقر فى حفر الباطن ، وعاد السلطان عبد العزيز الى الرياض . (١)

وكانت الدولة العثمانية قد اتخذت موقفا عدائيا فى أول الامر من ابن سعود وذلك لأن السعوديين لا يعترفون بخلافة آل عثمان ولأن أهل نجد منذ قيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوته الاصلاحية جاهروا باطاعة القائمين بالأمر فيهم من آل سعود ، بالاضافة الى امتناع الديار النجدية عن الخضوع لنفوذ الدولة العثمانية ، وتمسكها فى أيام الحكم السعودى باستقلالهم ودفاعهم عن ذلك بالسلاح ، ولما كان آل الرشيد موالين للدولة العثمانية ومعترفين بسلطانهم فقد اتخذتهم الدولة سندا لها فى شبه الجزيرة ، وأداة فعالة لتدعيم سياسة الدولة فى قلب الجزيرة . (٢)

وبعد هزيمة ابن الرشيد فى موقعة الصلمية أدرك أن مركزه صار حرجا وفى خطر ، وذلك لتخلى القرى والقبائل عن مناصرته ومؤازرته بعد أن كانت موالية له ، ومع ذلك كانت هناك بعض القبائل التى يمكنها أن تدعم موقفه غير أنه لم يكن واثقا بقبائل القصمان أن تقف الى جانبه اذا ساءت الامور ، لذلك كان أمله الوحيد فى مواجهة زحف ابن سعود لجوؤه للدولة العثمانية التى ستبادر الى مساعدته لتثبت أقدامها فى وسط الجزيرة العربية ، فأرسل ابن الرشيد

---

(١) خير الدين الزركلى ، شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ج ١ ، ص ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٩ .

رسائل الى الوالى العثمانى فى بغداد ، وباشر فى اتخاذ اجراءات موقتة للدفاع عن القصيم فى انتظار وصول قوات السلطان ووضع حاميات فى عنيزة وبريدة (١) ولقى طلب ابن الرشيد اهتماما من الدولة العثمانية ، وأذن الباب العالى بارسال الامدادات من سلاح ورجال ومال لابن الرشيد ، ما دام يريد القضاء على آل سعود ، وزحف ابن الرشيد ومعه قبائل شمر وجنود الدولة العثمانية ، وتلاقى الفريقان فى سهل البكيرية (٢) ، وبعد انهزام ابن الرشيد فى الثامن عشر من رجب الموافق للثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٠٤م (٣) غيرت الدولة من سياستها فطلبت من الامام عبد الرحمن والمقيم بالرياض بواسطة شيخ الكويت للمفاوضة ، وأجاب الامام عبد الرحمن طلب الدولة العثمانية فى حضور المفاوضات ، فسافر الى الكويت ومنها توجه وبرفقته شيخ الكويت الى الزبير ، واجتمعوا هناك ، وبعد المفاوضات تقرر أن تكون منطقة القصيم على الحياد لتقوم كحاجز بين ابن الرشيد وابن سعود ، وأن يكون للدولة مركز عسكرى لحمايتها وحكمها ، ولكن الامام عبد الرحمن لم يوافق على هذا القرار واقترح أن يعرضه على أهل نجد ، وبطبيعة الحال لم يقبل أهل القصيم أن تكون منطقة القصيم على الحياد ، ولا أن تكون فيه حامية للدولة . (٤)

---

(١) عبد الله فيلبى ، تاريخ نجد ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٢) خير الدين الزركلى ، شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ، ص ١٥٠ .

(٣) صلاح الدين المختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ص ٦٨ .

(٤) أمين الريحانى ، تاريخ نجد وملحقاته ، ص ١٤٩ .

وكان ابن الرشيد بعد هزيمته قد اتجه الى الكهفة ، وهى قرية فى أول حدود جبل شمر ومن هناك أرسل الى السلطات العثمانية فى بغداد يطلب منها مساعدات أخرى (١) ، فأرسلت الدولة أحمد فيضى باشا الذى اشتهر بشجاعته وحسن سياسته ، ووصل بثلاثة طوابير وخمسة مدافع ، ودعمته برجل آخر هو الفريق صدقى باشا وكان من المدينة المنورة ومعه طابورين ، فالتقوا وعسكروا قرب القصيم .

وفى واقع الأمر لم يكن للدولة رغبة فى الدخول فى حرب مع ابن سعود وعمدت للمفاوضات من أجل السلم ، وكان فيضى باشا وصدقى باشا قد اجتمعا بابن الرشيد وتفاوضا معه ، ولكنهم اختلفوا اذ كان ابن الرشيد يريد أن يضغط على أهل نجد ، وأن يقضى على أهل القصيم بالسيف ، فخالفه المشير احمد فيضى ، وعاد ابن الرشيد وعسكره الى مقره الكهفة ، واتجه المشير وصدقى باشا على رأس جنودهم قاصدين القصيم ، وعندما وصلوا الى بريدة رفض أهلها أن يدخلوهم المدينة ، وأرسل فيضى باشا رسولا الى الرياض يذكر أن الدولة لا تريد محاربة أهل نجد وأنه جاء مسالما ، وأرسل الى ابن سعود فى العماد يؤمنه قائلا : اننى لا أريد الا السلم ، ولست محققا مقاصد ابن الرشيد ، وقد سأله البقاء مكانه ، وارسال والده الامام عبد الرحمن الى عنيزة للمفاوضة ، فقبل

---

(١) عبد الله فيلبى ، تاريخ نجد ، ص ٢٨٩ .

عبد العزيز بذلك ، وأمر الناس بالهدوء ، وألا يقوموا بأعمال عدائية أثناء المفاوضات (١) ، واجتمع الامام عبد الرحمن بفيضى باشا فى عنيزة ، وكانت المفاوضات تدور حول الصلح بين ابن سعود وابن رشيد ، واقترح فيضى باشا أن تكون القصيم منطقة محايدة ، وأن تتمركز القوات العثمانية فى بريدة وعنيزة الى أن يتم الصلح (٢) ، وبينما المفاوضات تجرى تلقى فيضى باشا برقية من الاستانة تأمره بالسفر فى الحال الى صنعاء التى اشتد الحصار عليها من قبل اليمنيين تحت لواء يحيى حميد الدين ، فترك فيضى باشا القصيم ، وعهد الى صدقى باشا باتمام المفاوضات وكان ذلك سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) (٣) .

وكان الامام الزيدى يحيى بن حميد الدين قد بعث سنة ١٩٠٤م برسائل عديدة الى زعماء القبائل الموالية للدولة العثمانية يحرضهم على الخروج على طاعة الدولة ، كما أخذ يروج الدعايات ضد العثمانيين ، وشهّر بما يقوم به الولاة العثمانيون من فظائع ، فعبر عن سخطه وغضه على الحكم العثمانى (٤) ويعتبر ذلك الانتقاد المستمر من قبل الامامة للولاة العثمانيين والتشهير بهم واتهامهم بالخروج عن الدين فى سلوكهم ، من ضمن أسباب ضعف الدولة فى هذا الجزء ، وبالتالى اضعافها فى محاولة للقضاء على الوجود البريطانى

---

(١) امين الريحانى ، تاريخ نجد وملحقاته ، ص ١٤٨ .

(٢) عبد الله فيلبى ، تاريخ نجد ، ص ٢٩٠ .

(٣) خيرالدين الزركلى ، شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٤) هارولد . ف ، عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، ص ١٢٢ .

في عدن ، ومن ثم اضعافها في غربي الجزيرة كله .

وتطورت الامور في اليمن ، ففي سنة ١٩٠٥م حاصر يحيى بن حميد الدين صنعاء ، واستولى على الحامية العثمانية ، ولم يخلص تلك المدينة الا أحمد فيضي باشا الذى وصل اليها في نفس السنة ، وبعد أن أدرك السلطان عبد الحميد من خلال المعارك الضارية التى خاضتها القوات العثمانية هناك سنة ١٩٠٤ - ١٩٠٥م أن هذه الولاية لا يمكن الاحتفاظ بها بالقوة فأعلنت الدولة استعدادها لاطلاق يد الامام يحيى في حكم الأقسام الداخلية (١) ، وبالاضافة الى نمو قوة ابن سعود ، الذى تمكن من القضاء على ابن الرشيد ، وعقد معاهدة مع العثمانيين ، انسحبت بموجبها القوات العثمانية الى بغداد والمدينة المنورة ، ويتضح من هذا العرض كله أن الدولة العثمانية فقدت سيطرتها على شرقي الجزيرة ووسطها ، الى جانب فقدها مصر وقناة السويس ، لذلك رأت الدولة في خط سكة حديد الحجاز الشريان الوحيد الى الحجاز ومكة والمدينة المنورة ، لتحافظ على مكانتها الروحية في العالم الاسلامي والاكتفاء بتلك المكانة التى ظلت الدولة تحافظ عليها حتى بعد انسحابها من تلك المناطق .

ومع افتتاح الخط سنة ١٩٠٨م تولى امارة مكة الشريف حسين الذى كان يقيم في استانبول منذ سنة ١٨٩٣م ضيفا على السلطان عبد الحميد (٢) واستطاع

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٧٤٣ .

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٧٤١ .

الشريف حسين أن يعيد لمنصب الشرافة مقامه الرفيع، وبسط نفوذه على جميع القبائل المجاورة وذهب الى أبعد من ذلك فى توسيع نطاق حدوده، وعندما قويت شوكة الاتحاد بين أرادوا أن يسلبوا الحجاز ميزاته ، فأعلنوا أنه يجب خضوع الحجاز لنظام الحكومة المركزى ، وأرسلوا اليه واليا ذا نفوذ قوى ، فنفر الشريف من هذا التصرف واضطر الاتحاديون أن يامروا الوالى الجديد بمسايرة الشريف (١) ، حتى لا يخرج عن اطار نفوذ الدولة وكان الهدوء الشامل يسود الحجاز فى هذه الفترة كما كان سلطان الخليفة مستقرا ، وذلك بسبب وجود الخط الحديدى الذى ربط الحجاز بالعاصمة ربطا مباشرا ، الى جانب أن هذا الشريان أى الخط كان يسير فى أكثر جهات الجزيرة العربية أمنا وارتباطا بالدولة العثمانية على ضوء ما قدمنا من تفاصيل سابقة .

وقبل قيام الحرب العالمية الاولى تطورت الاوضاع فى الجزيرة العربية ، ففى عسير رفض الادريسى الخضوع للسيطرة العثمانية سنة ١٩٠٩م ، وفى منطقة اليمن استأنف الامام الزيدى مقاومته للسلطة العثمانية ، مما اضطر الدولة الى توقيع معاهدة صلح فى أكتوبر سنة ١٩١١م مع الامام ، وفى شرق الجزيرة استولى السلطان عبد العزيز على مقاطعة الاحساء فى سنة ١٩١٣م (٢) ، مما زاد من قيمة خط سكة حديد الحجاز حينئذ من حيث أنه الشريان الذى كان

---

(١) محمد بديع شريف وآخرون ، النهضة العربية الحديثة ، ص ١٠١ .

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٧٤٢ - ٧٤٣ .

ما يزال ينبض بوجود الدولة فى الاماكن المقدسة الاسلامية .

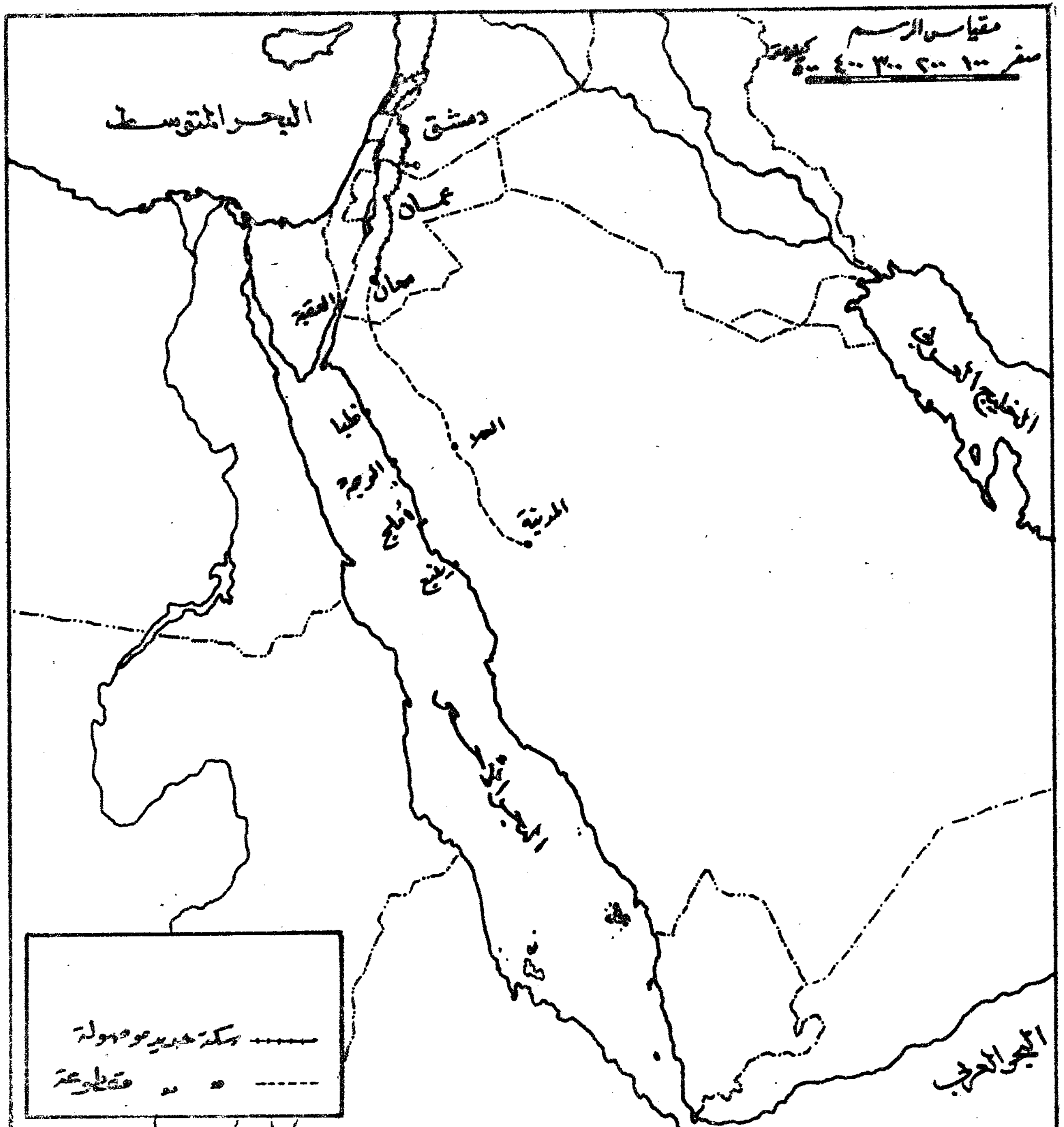
وليس من همنا فى رسالتنا هذه أن نتطرق الى التطورات التاريخية التى أعقبت ذلك وأدت الى ضعف هذا الشريان ، ثم ذهاب آثاره بالنسبة للدولة العثمانية ، لأن خطة بحثنا تجعل من افتتاح الخط نهاية مقبولة للبحث .

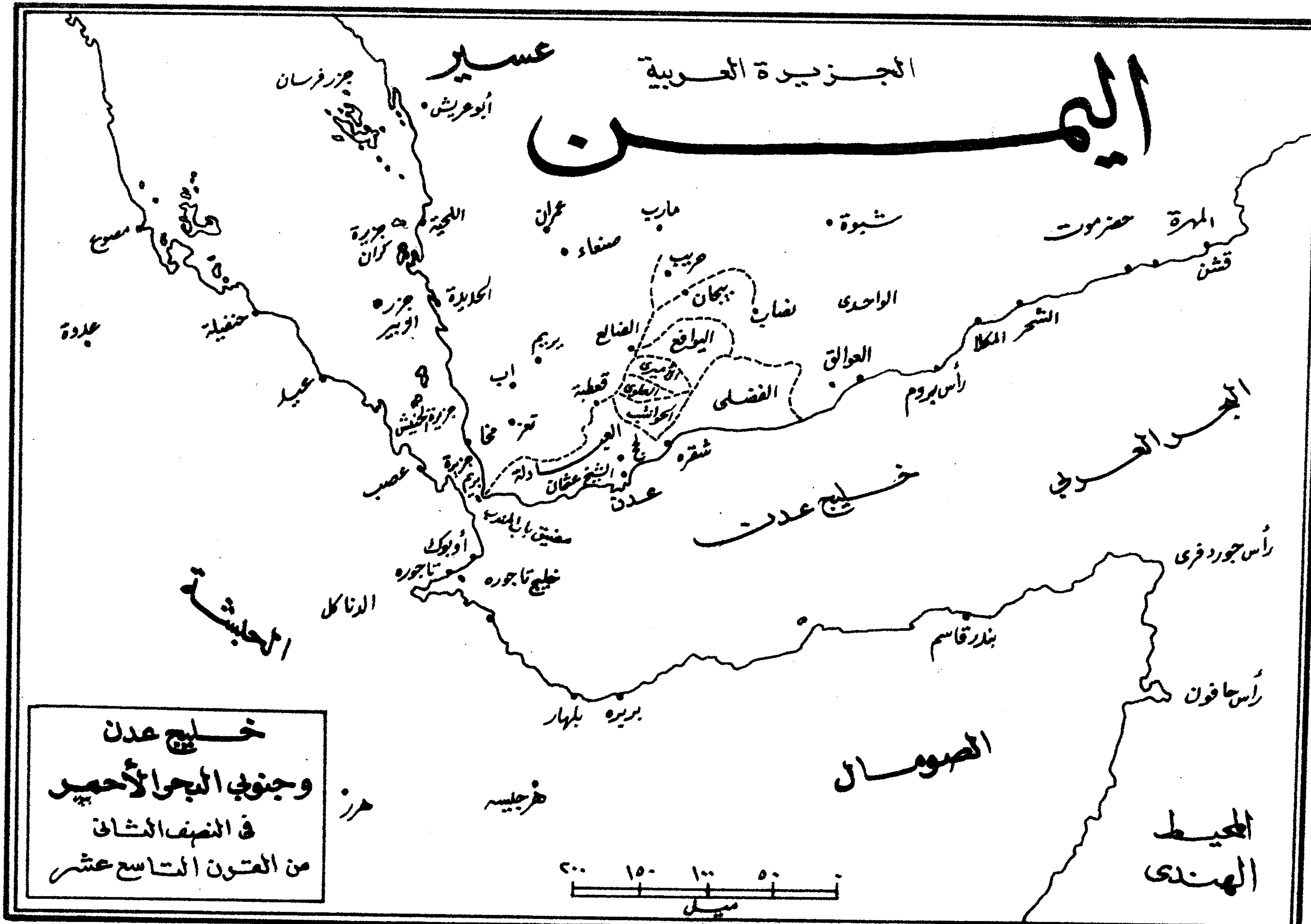
وليس أدل على أهمية خط حديدى فى وصل شمال الجزيرة بغربها من انبعاث الفكرة من جديد فى أيامنا هذه اذ شكلت فى الايام الاخيرة ما سميت باسم لجنة سكة حديد الحجاز لاحياء ذلك الخط ومن مهام هذه اللجنة استعراض تاريخ انشاء خط سكة حديد الحجاز أيام الدولة العثمانية .

الملاحق



المصدر: أطلس العالم


مقياس الرسم
صفر ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠ كيلومتر
البحر المتوسط
دمشق
عمان
معان
العقبة
ضبا
الوجه
أملج
ينبع
العلا
المدينة
الخليج العربي
البحر الأحمر
البحر العربي
سكة حديد موصولة
" " مقطوعة


خليج عدن
وجنوبي البحر الأحمر
في النصف الثاني
من القرن التاسع عشر
اليمن
الجزيرة العربية
عسير
أبو عريش
جزر فرسان
اللحية
جزيرة كران
الحايدة
جزر أوبير
جزيرة الحنيش
مخا
تعز
اب
يريم
صنعاء
عمران
مارب
شبوة
حضرموت
المهرة
قشن
الواحدي
نصاب
بيحان
حريب
الضالع
اليوافع
الأميري
العلوي
الحواشب
قعطبة
العبدلي
لحج
الشيخ عثمان
عدن
شقرة
الفضلي
العوالق
رأس بروم
المكلا
الشحر
البحر العربي
خليج عدن
بريم
مضيق باب المندب
عصب
أوبوك
تاجوره
خليج تاجوره
الدناكل
الحبشة
عيلا
حنفيلة
مصوع
عدوة
بلهار
بريره
بندر قاسم
رأس جوردفوي
رأس حافون
الصومال
المحيط الهندي
هرجيسه
هرر
٥٠
١٠٠
١٥٠
٢٠٠
ميل

Inclosure in No. 5

Memorandum.

Constantinople, January 24, 1873.

The circumstances connected with Lahej, upon which explanations were asked of the Porte the other day, appear, from what can be ascertained from trustworthy sources, but not communicated by Her Majesty's Government, to be as follows:-

Lahej, which is within 15 miles of the garrison outposts of Aden, is the chief town of the low country, and commands the country from which Aden draws its supplies of grain, forage, fuel, water, & c.

(Its Chief, or Sultan, as he calls himself, is a stipendiary of the British Government, receiving a monthly salary for the services of his people in feeding Aden and keeping the roads open, and has never been subject to the authority of the Porte)

(Some months ago the Mushir established at Sana, not less than 150 miles off, took upon himself to summon this Chief, the stipendiary of the British Government, to attend his camp and submit himself formally to the Turkish Government, and to prepare camels, & c., for a descent into the low country of Lahej, commonly called El Hantash.

The Chief replied that he was the servant and stipendiary of the British Government, but no notice was taken of this answer by the Pasha.)

It is certain that for generations the Porte has not exercised or pretended to a shadow of authority over the district in question, and the unwarranted attempt of the Pasha to reduce it to subjection could not be seen with indifference by Her Majesty's Government.

ملحـق رقـم /٥

مذكـــرة   استانبول ٢٤ يناير ١٨٧٣م

بخصوص الاحداث التى تتصل بلحج والتى من خلالها أمكن وضع التفسيرات التى يمكن أن تفسر تساؤل الباب العالى فى اليوم التالى . ولقد بدا واضحا بالتجربة ومن مصادر جديرة بالثقة والاعتماد وبدون أدنى علاقة لحكومة جلالتها أن هذه الاحداث هى كالتالى :

- ان لحج التى تقع داخل خمسة عشر ميلا من نطاق نقط الحدود العسكرية لعدن هى المدينة الرئيسية التى تسيطر على البلد كلها ومنها تأخذ عدن جميع امداداتها من الحبوب والعلف والوقود والماء وغير ذلك .
- ان رئيسها (أوسلطانها كما يسمى نفسه) يتقاضى راتبا شهريا من الحكومة البريطانية نظير قيامه هو وشعبه بامداد عدن بالموءن وجعل الطرق مفتوحة للسير فيها وهو لم يكن أبدا تحت سلطة الباب العالى .
- منذ عدة شهور مضت ترأس المشير حكم مدينة صنعاء التى تبعد ما لا يقل عن ١٠٠ ميلا وأخذ على عاتقه دعوة سلطان لحج (الذى يتقاضى راتبا شهريا من الحكومة البريطانية ليحضر الى معسكره لكى يرسل رسميا الى الحكومة التركية ثم بعد ذلك أعد الجمال ليهجم على بلد يقع اسفل لحج يسمى هنتاش .

- لقد قال سلطان لحج لحاكم صنعاء أنه خادم للحكومة البريطانية التى يتقاضى منها راتبا ،لكن لم يكن هناك أى تعليق أو اجابة أو اهتمام من الباشا حاكم صنعاء . ولكى يكون واضحا أمام الاجيال ،ان الباب العالى لم يكن له أى ظل للسلطة على اية مقاطعة كما لا يوجد أى مبرر لمحاولة الباشا تقليلها واخضاعها (المقصود هنا محاولة الباشا السيطرة على المقاطعات التى تحيط بعدن) وهذه المسألة يمكن أن تراهـــا حكومة جلالتها بنظرة مختلفة .

Inclosure 2 in No. 27.

Brigadier - General Schneider to Mr. Gonne.

(Extract.)

Aden, August 21,1873.

I have the honour to forward translation of a letter addressed to the Sultan of Lahej by Ahmed Ayoob Pasha, the recently appointed Governor-General of Yemen, the original of which I propose to send to the Secretary of State for India to show that the Pasha has conveyed a covert threat to the Sultan notwithstanding the assurances that have been given by the Porte to the British Government.

I have thought it advisable to address the following communication to Ahmed Ayoob Pasha, so that he may know the Resident is acquainted with the orders and instructions he has received from the Ottoman Government :-

" We have to bring to your Excellency's notice that the detachment of Turkish regular and irregular troops sent by your predecessor, Ahmed Mookhtar Pasha, to Shuka, in the Howshebee country, have not yet been withdrawn.

" We received an intimation a short time since from the Great Government that your Excellency had been sent from Comstantinople with instructions from the Sublime Porte to remove the above-mentioned troops from the Howshebee country,

" We trust your Excellency will promptly act in conformity with the orders you have received in respect of the matter we now bring to your notice, and so cause affairs to revert to their normal condition by abstention from interference with chiefs and tribes around Aden with whom the British Goverment has Treaties, or who are its stipendiaries."

" We learn with regret that the Ameer Ali-bin- Mookbil, a stipendiary of the British Government, is still a prisoner at large ".

Copy of this letter will be forwarded to the Secretary of State for India.

ملحق ٢ لرقـــم ٢٧

اللواء شنايدر الى السيد جـــون

عدن ٢١ اغسطس ١٨٧٣م

يشرفني ان ارسل لكم ترجمه الخطاب الذى ارسله احمد ايوب باشا الحاكم الجديد لليمن الى سلطان لحج اما بالنسبه لاصل الخطاب فسوف ارسله الى وزارة الخارجية في الهند لكي اظهر لهم ان الباشا قد بلغ تحذيرا سريا للسلطان ، لايتفق مع التأكيدات التي اعطيت بواسطه الباب العالي الى الحكومه البريطانيه .

لذلك فانا انصح بارسال الملاحظات التاليه الى احمد ايوب باشـــــا لكي يعلم ان الحاكم (حاكم عدن) مطلع على الاوامر والتعليمات التي تسلمهـــا من حكومه الباب العالي .

* اننا نضع امام فخامتكم ان القوات العسكريه التركيه النظاميه وغير النظاميـــة والتي سبق ان ارسلها سلفكم احمد مختار باشا الى شوكا في اقليـــم الحوشبي ولم تنسحب الى الآن *

* لقد ابلغنا منذ فترة الحكومه العليه قد زودت فخامتكم بتعليمات البـــاب العالي في اسطانبول لسحب القوات التي سبق ذكرها اعلاه من اقليم الحوشبي .

نحن على ثقه بان فخامتكم سوف تلتزمون بشكل دقيق بتنفيذ الاوامر الـــتي

التي استلمتوها بهذا الخصوص والخاصة بالمسألة التي نوجه انتباهكم نحوها حيث ان ذلك سيعيد الامور الى وضعها الطبيعي بالاقتناع عن التدخل مع المشايخ والقبائل المحيطه بعدن والتي ترتبط بمعاهدات مع الحكومة البريطانية او اولئك الذين هم تحت حمايتها .

ولقد علمنا مع الاسف بان الاميرعلى بن مقبل والمحمى من الحكومة البريطانيه لايزال سجينا فى لحج ان نسخة من الرساله سوف ترسل الى وزير شئون الهند .

No. 55

Sir Henry Elliot to Earl Granville-(Received December 12.)

My Lord, Therapia, November 30,1873.

The divergence upon which your Lordship remarks in your telegram of the 29th instant between the terms of telegraphic instructions to the Governor-General of the Yemen, and the previous promises of the Porte to abstain from aggression against all the Arab tribes near Aden which have treaties with Great Britain, had not escaped my attention.

My despatch of the 21st instant, which having been forwarded by post on the 22nd must be on the point of reaching your Lordship's hands, contains a report of the conversation I had had on the subject with Raschid Pasha who assured me that the late instructions are to be understood as applying to the country of all tribes in question.

(Signed) HENRY ELLIOT.

I have, & c.

رقـــــم / ٥٥

من سير هنرى اليوت الى ايرل جرانفيل (تسلمت بتاريخ ٢ ١ ديسمبر

ثورابيا ٣٠ نوفمبر ١٨٧٢م

سيد اللورد

الاختلاف (الانحراف) الذى أوضحته فخامتكم فى برقيتكم المؤرخة بتاريخ ٢٩ الحالى بين التعليمات البرقية للحاكم العام فى اليمن وبين الوعـــود السابقة من قبل الباب العالى بالامتناع عن القيام بأى عمل عدائى ضد كـــل المقاطعات العربية القريبة من عدن والتى تربطها معاهدات مع بريطانيـــا العظمى لم تخيب عن نظرى .

رسالتى المؤرخة بتاريخ ١ ٢ الحالى والتى أرسلت لكم بالبريد فـــى ٢ ٢ الحالى أرجوأن تكون بين يديكم تحتوى على تقرير عن المحادثة التى أجريتها بخصوص هذا الموضوع مع رشيد باشا الذى أكد لى أن التعليمات الاخيرة تتضمن تطبيقها على كل اجزاء المقاطعات التى شملها التساؤل من جانبكم .

هنرى اليوت

فهرس المصادر والمراجع

الوثائـــــق Documents

١ - سجلات البرلمان البريطانى : Parliametary Papers:

Correspondence Respecting Turkish Proceedings in the Neighbourhood of Aden. Presented to both Houses of Parliament of Her Majesty's 1872.

موجودة فى Public Record فى لندن ومسجلة تحت رقـــــم

H.C.1 3752 X/P0983

تضم هذه المجموعة من الوثائق فحوى المراسلات المتبادلة بين الحكومتين البريطانية والعثمانية وبين سفيرى الدولتين وحكومتيهما ، فضلا عـــن المراسلات المتبادلة بين الحكومة العثمانية ووالى اليمن العثمانى من جهة ، والمراسلات المتبادلة بين الحكومة البريطانية وحكومة الهنـــد وحكومة بومباى والمقيم السياسى البريطانى فى عدن من جهة أخرى . بل انها ضمت كذلك المراسلات المتبادلة بين والى العثمانى وحكام امارات جنوب اليمن ، وبين هؤلاء والمقيم السياسى البريطانى فى عدن ومن خلال هذه الوثائق يمكن تتبع بداية ظهور النزاع العثمانـــــى البريطانى فى جنوب اليمن والاتصالات التى جرت لتلافى وقوع صـــدام بين الجانبين ، وذلك عند عودة العثمانيين الى اليمن سنة ١٨٧٢ .

٢ - Suez Canal traffic, August 1872: (conterued)

موجودة فى Public Record Office تحت رقم F.O.195/1000B.

توضح القائمة بحركة السفن فى قناة السويس خلال عام كامل من أغسطس ١٨٧١ وحتى السنة التالية من نفس الشهر، كما تبين القائمة حمولة السفن وجهة الوصول وجهة القدوم بالاضافة الى جنسيتها .

المصادر والمراجع العربية

٣ - أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ و / ٩٢٢م) .
تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧١ .

٤ - أبوالعباس احمد بن على القلقشندى . (ت ٨٢١ و / ١٤١٨م) .
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، ١٤ جزء ، وزارة الثقافة والارشاد القومى - والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

٥ - أبومحمد الحسن بن أحمد يعقوب الهمدانى .
صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن عبدالله بن بليهب النجدى ، القاهرة مطبعة السعادة ، ١٩٥٣ .

٦ - د . اجيه يونان جرجس .
البحر الاحمر ومضايقه بين الحق العربى والصراع العالمى ، القاهرة مكتبة غريب . تتحدث المؤلفة عن أهمية البحر الاحمر خلال العصور التاريخية ، ثم التنافس الدولى للسيطرة على مداخل البحر الاحمر .

٧ - د . احمد ابراهيم الشريف .
دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ، القاهرة ، دار الفكر العربى الطبعة الثانية ١٩٧٧ .
٤ أبواب ، فى الباب الأول ، والفصل الأول ، يتحدث عن أهمية الحجاز فى القرون الأولى ، ثم يعرف الحجاز جغرافيا .

٨ - احمد حسين شرف الدين .

اليمن عبر التاريخ ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ . يتحدث الكتاب عن اليمن منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى القرن العشرين ، دراسة جغرافية ، تاريخية سياسية .

٩ - أحمد رشدى صالح .

قناة السويس ، القاهرة ، لجنة نشر الثقافة العامة .

يتحدث فى البداية عن الاطماع الفرنسية الانجليزية فى مصر ، ثم عن أهمية قناة السويس العالمية ، وعلى الأخص أهميتها بالنسبة لانجلترا .

١٠- احمد زينى دحلان .

خلاصة الكلام فى أمراء بيت الله الحرام ، القاهرة ، المطبعة الخيرية ، الطبعة الاولى ، ١٣٠٥ هـ .

اشتمل الكتاب على ذكر حروب الشريف غالب مع السعوديين ، وذكر بعض أحوال السلاطين مثل سليم الاول وحروبه مع السلطان الغورى ، والسلطان عبد العزيز - كما ذكر من تولى ولاية الحجاز .

١١- أحمد السباعى .

تاريخ مكة ، جزئين ، مكة المكرمة ، مطابع دار قريش ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٢هـ .

الجزء الثانى : تاريخ مكة فى عهد العثمانيين ، وعلاقة مكة بالدولة العثمانية ، فى عهدها الاول والثانى .

١٢- احمد شفيق باشا .

مذكراتى فى نصف قرن ، جزئين ، القاهرة ، مطبعة مصر ، الطبعة الاولى ، ١٩٣٦ .

يتحدث فى الجزء الثانى عن عباس حلمى الثانى ، كما تحدث فى القسم الثانى من نفس الجزء عن مسألة طابا .

١٣- د . احمد فخرى .

اليمن ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية ، ١٩٥٧ .

محاضرات ألقاها المؤلف على طلبة قسم الدراسات الجغرافية والتاريخية ، ففى القسم الرابع مختصر لدول اليمن ، ومطامع الاستعمار على اليمن ، وحالة اليمن فى القرن التاسع عشر ، وعودة الحكم العثمانى الى اليمن .

١٤- اسماعيل سرهنك .

حقائق الاخبار عن دول البحار ، جزءان (والثالث غير كامل) ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ببولاق ، الطبعة الاولى ، ١٣١٢ هـ .

ابتدأ بذكر الملاحة فى الازمنة القديمة ، حتى وصل لتاريخ الدولة العثمانية ، وبدأ من تأسيسها ، وتحدث عن السلطان عبد العزيز ، ثم السلطان عبد الحميد ، وأخيرا كتب عن الادارة البحرية .

١٥- امين الريحانى .

تاريخ نجد وملحقاته ، بيروت ، دار الريحانى ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٠ .

النبذة الثالثة آل سعود منذ نشأتهم الى حين استيلاء محمد بن الرشيد على نجد ، ثم كتب سيرة الملك عبد العزيز .

١٦- ملوك العرب ، جزءان ، بيروت ، طبع فى مطابع صادر ريحانى ، ١٩٥١ .

يشتمل على مقدمة ، وثمانية أقسام ، القسم الاول عن الحجاز فى عهد الشريف حسين والثانى عن اليمن ، والرابع عن لحج والنواحى التسعة المحمية ، والخامس عن سلطنة نجد وملحقاتها .

١٧- امين سعيد .

تاريخ الدولة السعودية ، ٣ مجلدات ، بيروت ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٤م .

يبدأ المجلد الاول بالكتابة عن الدولة السعودية من عهد محمد بن سعود ١١٥٨ هـ ، وحتى عهد عبد الرحمن الفيصل ١٣٠٧ هـ .

١٨- تاريخ اليمن ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٩ .

تحدث فى البداية عن الاحتلال الانجليزى لعدن ، ثم انتقل الى اتفاقية دعان بين الامام يحيى والدولة العثمانية .

١٩- باسيل دقاق .

تركيا بين جبارين ، القاهرة ، منشورات دار المكشوف .

يتحدث الكتاب عن موقف تركيا في الحربين العالميتين الاولى والثانية .

٢٠- بطرس بطرس غالى ، ويوسف شلاله .

قناة السويس ومشكلاتها ١٨٥٤ - ١٩٥٧ ، جزءان ، الاسكندرية ، مطابع البصير .

تحدث في الجزء الثاني عن الاتفاقية الخاصة بحرية استعمال قناة السويس ، والوثائق الدولية الخاصة بها .

٢١- توفيق على برو .

العرب والترك في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨-١٩١٤) ، القاهرة ، رسالة من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٦٩ .

تحدث عن العلاقة بين العرب والترك قبيل الانقلاب الدستوري ، وحتى دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الاولى .

٢٢- جاد طـــه .

سياسة بريطانيا في الجنوب العربي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٧٠ .

بدأ بالمنافسة الدولية في جنوبي الجزيرة العربية (١٧٩٨ - ١٨٣٦) ومقدمات الاستيلاء البريطاني على عدن ، وفي الفصل السابع كان الحديث عن النزاع العثماني البريطاني في الجنوب اليمني ، وأخيرا أسلوب الحكم البريطاني في الجنوب اليمني .

٢٣- جرجي زيدان .

العرب قبل الاسلام ، مراجعة حسين مؤنس ، القاهرة ، دار الهلال .

يبحث المؤلف فى أصل العرب وتاريخهم ودولهم وتمدنهم فى أقدم أزمانهم الى ظهور الاسلام .

٢٤- د : جمال الدين الشيال .

قصة الاحتلال ،الاسكندرية ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٦ .

كتاب أصدر بمناسبة أحد الأعياد الوطنية فى مصر، ويتحدث عن قصة الاحتلال الانجليزى .

٢٥- حافظ وهبة .

جزيرة العرب فى القرن العشرين ،القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٧ .

يتحدث الكتاب عن طبيعة جزيرة العرب وحالتها الاجتماعية ،ودعوة الوهابيين وتاريخهم ،وآل سعود وتاريخهم .

٢٦- د . حسن احمد محمود ، د . محمد انيس ، د . رجب حراز .

مصر فى العصور الوسطى والحديثة ،القاهرة، دار النهضة العربية .

٤ فصول ،الفصل الثالث ،الاحتلال البريطانى لمصر ،الفصل الرابع: الوضع فى مصر بعد الاحتلال .

٢٧- الحسن بن عبد الله الاصفهانى .

بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر، و د . صالح العلى ،الرياض منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ .

فى بداية الكتاب بحث منشور : كان قد ألقى فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة فى دورة ٣٣ فى ٢٤ شوال ١٣٨٦ الموافق ٤/٢/١٩٦٧م.

٢٨- حسين بن أحمد القرشى .

بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ، القاهرة ، مطبعة البرتيرى ، ١٩٣٩ .

ختم المؤلف حوادثه سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠٠ ، عنى بنشره الابانستاس الكرامثلى من أعضاء مجمع فؤاد ، فأوصل حوادثه الى آخر ربيع الاول سنة ١٣٥٨ / مايو ١٩٣٩ .

٢٩- حسين فوزى النجار .

بريطانيا والجنوب العربى ، القاهرة ، دار الكاتب العربى .

المقدمة كانت عن أهمية الجنوب العربى بوجه عام ، ثم تحدث عن الاحتلال البريطانى لعدن ، وذكر معاهدات الحماية على مشايخ المناطق المجاورة لعدن ، وأطوار تلك المعاهدات .

٣٠- السياسة والاستراتيجية فى الشرق الاوسط ، القاهرة ، مكتبة النهضة الطبعة الاولى ١٩٥٣ .

الفصل السابع: تحدث المؤلف عن الاحتلال البريطانى لمصر ، وفى الفصل الثامن تحدث عن قناة السويس والمسألة المصرية .

٣١- خليل مردم بك .

أعيان القرن الثالث عشر فى الفكر والسياسة والاجتماع ، تقديم عدنان مردم بك ، بيروت لجنة التراث العربى .

ترجم المؤلف لبعض سلاذين الدولة العثمانية ، مثل السلطان عبد العزيز ، كما ترجم لبعض أشراف مكة .

٣٢ - خيرالدين الزركلي .

شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، ٤ أجزاء ، بيروت ، دار القلم ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٠ .

تحدث في الجزء الاول عن فتح الرياض ، وحروب السلطان عبد العزيز مع ابن الرشيد ، وعلاقة الدولة العثمانية معه .

٣٣ - الدراسات الثقافية .

قناة السويس ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، مطبعة التحرير ، ١٩٥٥ .

تحدث الكتاب عن القناة في السياسة الدولية ، كما شرح أحكام اتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨ .

٣٤ - ساطع الحصري .

البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٥ .

في البداية تحدث عن تأسيس الدولة العثمانية ، ونظام الادارة فيها ، ثم انتقل بالحديث عن البلاد العربية تحت الحكم العثماني ، وموقف البلاد العربية من الدولة العثمانية .

٣٥ - يوم ميسلون ، بيروت ، دار الاتحاد .

بدأ الحديث عن أهمية يوم ميسلون ، والكتاب في قسمين ، القسم الاول

تحدث عن أطماع فرنسا فى سورية .

٣٦- د : سيد رجب حراز .

الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (١٨٤٠ - ١٩٠٩) القاهرة ،

معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٧٠ .

تحدث فى الفصل الثالث عن العثمانيين فى اليمن ، ثم انتقل الى

العثمانيين فى الحجاز ، وتقوية نفوذ الدولة على اقليم الحجاز .

٣٧- المدخل الى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى الى الاحتلال

البريطانى (١٥١٧ - ١٨٨٢) ، القاهرة ، دار النهضة العربية

١٩٧٠ .

الباب السادس ، يتحدث عن مصر فى الفترة من ١٨٦٣ - ١٨٨٢ .

٣٨- د . سيد نوفل .

الخليج العربى أوالحدود الشرقية للوطن العربى ، القـــاهرة ، دار الفكر العربى ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٨م .

يتحدث المؤلف عن أوضاع الخليج العربى فى العصور الحديثة .

٣٩- شرف بن عبد المحسن البركاتى .

الرحلة اليمنية ، بيروت ، المكتب الاسلامى ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٤هـ .

ترجم فى بدايته للشريف حسين بن على ، وجعل الفصل الرابع عن كيفية ادارة منطقة عسير من قبل الدولة العثمانية ، وفى الفصل الخامـــس تحدث عن ولاية الحجاز والحالة التى كانت عليها .

٤٠- د . شوقى عطا الله الجمل .

الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر ، (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ، القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربى ، ١٩٥٩م .

الكتاب فى خمسة أقسام ، والقسم الاخير ورد ذكر الوثائق الخاصـــة بعلاقة مصر بالبلاد العربية المطلة على سواحل البحر الاحمر الشرقية ، مثل علاقة مصر بالحجاز ، وعسير ، واليمن ، كما ترجم المؤلف لشخصيات هامة ورد ذكرها فى الوثائق .

٤١- البحر الاحمر فى سياسة مصر واستراتيجيتها فى النصف الثانى من القرن ١٩ .

بحث ألقى فى جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، ١٩٧٩ ، تحدث عـــن

اهتمام مصر بتيسير ربط البحر المتوسط والاحمر، وبسط الادارة المصرية على موانىء البحر الاحمر بسواكن ، ومصوع ، وبربره ، ثم الاصلاحات التى قامت بها الادارة المصرية فى تلك الجهات .

٤٢- صلاح الدين الشامى .
الموانىء السودانية : تسعة فصول ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦١ .

٤٣- صلاح الدين المختار .
تاريخ المملكة العربية السعودية ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، الطبعة الاولى ، ١٩٥٧ .

تحدث فى الفصل السادس عن ظهور الامام عبد الرحمن الفيصل ، واحتلال ابن الرشيد للرياض ، حتى أوصل أحداثه الى العهد السعودى فى عهد الملك عبد العزيز .

٤٤- صلاح العقاد .
التيارات السياسية فى الخليج العربى ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٥ .

ابتدأ بالغزو البرتغالى لمناطق الخليج ، وتدرج بعد ذلك وذكر النزاع البريطانى العثمانى فى قطر والبحرين . ثم انتقل الى مسألة الكويت واحياء الدولة السعودية ، ومشروع الاتفاق العثمانى البريطانى سنة ١٩١٣ .

٤٥- عبد الرؤوف احمد عمرو .
قناة السويس فى العلاقات الدولية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة

للكتاب ، ١٩٧٨ .

يتكون الكتاب من ١٠ فصول ، يتحدث في الفصل الاول عن قناة السويس في السياسة الدولية (١٨٦٥ - ١٨٨١) ، والفصل التاسع : الخطة الاستراتيجية البريطانية لاحتلال القناة ، الفصل العاشر يتحدث عن قناة السويس عقب الاحتلال البريطاني .

٤٦- عبد الرحمن الرافعي .

عصر اسماعيل جزءان ، القاهرة ، مطبعة النهضة ، ١٩٣٢ .

الجزء الاول كانت البداية لعباس ، ثم انتقل الى عهد الخديوي اسماعيل فذكر سياسته .

٤٧- د . عبد العزيز رفاعي .

قضية الجلاء عن مصر بين سنتي ١٨٨٢ - ١٩٠٧ ، القاهرة ، دار القلم ١٩٦١ . يشكل الكتاب صورة تاريخية مبسطة مستقاة من الوثائق والمصادر التاريخية الهامة عن الاحتلال وقضية الجلاء في الفترة من ١٨٨٢ -١٩٠٧ وما قامت من أجلها من محاولات في الداخل والخارج انتهت باستقرار الاحتلال ، وتحقيق المركز الممتاز لبريطانيا في مصر .

٤٨- عبد العزيز الشناوي وجلال يحيى .

وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٩ . صنف الكتاب الى ستة مجموعات ، فالمجموعة الثالثة ، تضم وثائق مصر في القرن التاسع عشر والمجموعة الرابعة الوثائق الخاصة بتاريخ قناة السويس .

٤٩- عبد الله بن الحسين .

مذكراتي ، القدس ، مطبعة بيت المقدس ، الطبعة الاولى ، ١٩٤٥ .

تحدث في الفصل الاول عن نشأته في مكة ، ثم الاقامة في اسطنبول مع الشريف حسين بن علي والعودة منها ، والفصل الثاني تحدث عن الادارة العثمانية .

٥٠- عثمان بن بشرات سنة ١٢٨٨ .

عنوان المجد في تاريخ نجد ، جزآن ، الرياض ، مطابع القصيم ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٥هـ .

يكتب الموءلف على طريقة الحوليات بدأ الجزء للاحداث التي تعرضت لها المنطقة من سنة ٩٨٩ وحتى سنة ١٢٣٦ ، ووصل في الجزء الثاني الى سنة ١٢٦٧ .

٥١- على حافظ .

فصول من تاريخ المدينة ، جده ، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر .

تحدث في الفصل الاول عن تاريخ المدينة المنورة من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى العهد السعودي وذكر مباني العهد العثماني .

٥٢- على يوسف .

بيان في خطة الموءيد تجاه الدولة العثمانية ، القاهرة ، حررت في ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٢٧ ، ٢ يوليو سنة ١٩٠٩ .

كتيب يوضح فيه خطة الموءيد ازاء الدولة العثمانية ، وموقف الصحيفة تجاه عزت باشا العابد .

٥٣- عمر الاسكندرى ، وسليم حسن .

تاريخ مصر من الفتح العثمانى ، مراجعة الكابتن ا .ج . سفدج ، القاهرة ، مطبعة المعارف ، ١٩١٦ .

الفصل الثانى بعنوان قناة السويس ، فتحدث عن الامتيازات الممنوحة للشركة الفرنسية والاصلاحات العثمانية فى مصر .

٥٤- د . فاروق عثمان اباظه .

الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ - ١٩١٨ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

ستة فصول ، الفصل الاول : علاقة العثمانيين ببلاد اليمن قبل سنة ١٨٧٢ ، والفصل الرابع : السياسة العثمانية فى مطلع العهد الدستورى ١٩٠٨ - ١٩١١ .

٥٥- عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ١٨٣٩ - ١٩١٨ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ .

يتناول الكتاب بالدراسة والتحليل أثر وجود البريطانيين فى عدن على سياستهم فى منطقة البحر الاحمر منذ احتلالهم فى سنة ١٨٣٩ وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى فى سنة ١٩١٨ ، ويلقى الكتاب ضوءا على التوسع الاستعمارى البريطانى فى منطقة البحر الاحمر انطلاقا من عدن .

٥٦- د . فائق بكر صواف .

العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، القاهرة ، مطبعة سجل

الحرب ، ١٩٧٨ .

الفصل الثالث : امتيازات ولاية الحجاز ، تلى ذلك اعادة الدولة العثمانية سيادتها على الحجاز ، كما تحدث عن سكة حديد الحجاز .

٥٧- قدرى قلعجى .

الخليج العربى ، ثمانية أجزاء فى مجلد واحد ، بيروت ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٥ .

الجزء السادس : الخليج العربى فى دوامة الاستعمار العالمى .

٥٨- د . محمد بديع شريف ، د . محمد عزت عبد الكريم ، د . زكى المحاسنى .

دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ، مراجعة محمد شفيق غربال ، القاهرة ، نشرة جامعة الدول العربية ، الادارة الثقافية .

٥٩- محمد جميل بيهم .

فلسفة التاريخ العثمانى ، بيروت ، فرج الله للمطبوعات ، ١٩٥٤ .

تحدث فى الفصل الرابع عن القوى الحربية للدولة العثمانية ، وانتقل فى الخامس للحديث عن الاصلاح العسكرى ، وفى الفصل السادس عن الدولة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد .

٦٠- محمد حسن عويلى .

اغتيال بريطانيا لعدن والجنوب العربى ، بيروت ، منشورات العصر الحديث ١٩٧١ .

البداية كانت مدخل تاريخى موجز عن عدن ، ثم انتقل بالحديث الى

استراتيجية عدن ، وسياسة بريطانيا فى الجنوب العربى .

٦١- محمد الشرقاوى .

الاستعمار البريطانى فى جنوب اليمن ، القاهرة ، دار القاهرة للطباعة ١٩٥٨ .

٦٢- محمد عبد الرحمن برج .

دراسة فى التاريخ الحديث والمعاصر .

تسعة فصول ، بداية الفصل التاسع : قيام الدولة السعودية الثالثة .

٦٣- محمد عبد اللطيف البحراوى .

فتح العثمانيين عدن ، القاهرة ، دار التراث الطبعة الاولى ١٩٧٩ .

مقدمة وسبعة فصول وتحليل ونتائج ، الفصل الخامس : الأسباب التى حملت العثمانيين فتح عدن .

٦٤- حركة الاصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ١٨٠٨ - ١٨٣٩ ، القاهرة ، دار التراث ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٨ .

مقدمة وسبعة فصول .

٦٥- محمد عبد المنعم السيد الراقد .

الغزو العثمانى لمصر ، اشراف د . احمد محمد لحته ، القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٧٢ .

سبعة فصول ، الفصل الثانى : أسباب الغزو العثمانى لمصر ، الفصل الرابع : نتائج الغزو العثمانى على بقية الاقاليم العربية ، الفصل الخامس : نظام الحكم .

٦٦- محمد حرب عبد الحميد .

مذكرات السلطان عبد الحميد ، القاهرة ، دار الانتصار ، ١٩٧٨ .

تقديم الكتاب عن السلطان عبد الحميد ، ثم يبدأ فى عرض مذكرات السلطان ، والتى كتبها من ١ مارس سنة ١٣٣٣ وانتهت الى ٨ نيسان سنة ١٣٣٣هـ .

٦٧- محمد العقيلى .

تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ . جزآن ، الجزء الاول طبع بمطابع الرياض ١٩٥٨ (١٣٧٨هـ) .

الجزء الثانى طبع بمطابع دار الكتاب العربى بالقاهرة ، ١٩٦١ (١٣٨٠هـ) .

الجزء الاول :

قسمين ، تحدث عن العهد الاول للعثمانيين فى اليمن والمخلاف السليمانى ، ثم العهد الثانى ، ثم أخيرا المخلاف السليمانى والدولة العثمانية فى عهدها الثالث .

٦٨- محمد فريد بك المحامى .

تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٧ .

بدأ من السلطان الغازى عثمان خان الاول ، وانتهى بمعاهدة برلين ١٢٩٥ / ١٨٨٧ .

٦٩- محمد فؤاد شكرى .
مصر والسودان ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ .
الفصل الخامس : خديوية مصر والسودان (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ، اضافة الى ذكر المؤلف للفرمانات الممنوحة من قبل الدولة لولاية مصر .

٧٠- محمد كرد على .
خطط الشام . ستة أجزاء ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١ .
تحدث فى الجزء الخامس عن ترعة السويس ، بالاضافة الى سكة حديد الحجاز .

٧١- محمد كمال عبد الحميد .
الاستعمار البريطانى فى جنوب الجزيرة العربية ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الرابعة .
المقدمة عن ظروف احتلال البريطانيين عدن ، ثم انتقل الى أهداف الاستعمار البريطانى لعدن ، وأخيرا ذكر المعاهدات التى عقدت مع مشايخ المناطق المجاورة لعدن .

٧٢- محمد لبيب البتنونى .
الرحلة الحجازية ، القاهرة ، المطبعة الجمالية ، الطبعة الثانية ، ١٣٢٩ هـ .
تحدث فى المقدمة عن أصل الأمة العربية ، ثم انتقل الى صفة جزيرة

العرب ، والكتاب فى مجمله تفاصيل سفر الخديوى عباس حلمى الثانى الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وتخلل الكتاب ذكر تاريخ مكة ، وآل سعود ، ومحمد على بالحجاز ، وآل سعود وآل الرشيد ، والطرق المؤدية للحرمين .

٧٣- محمد مصطفى صفوت .

انجلترا وقناة السويس (١٨٥٤ - ١٩٥٦) ، القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٥٦ .

يوضح فى البداية أهمية مصر للتجارة بين الشرق والغرب ، ثم ينتقل الى موقف انجلترا من قناة السويس ثم الاحتلال الانجليزى للقناة .

٧٤- محمد يحيى الحداد .

تاريخ اليمن السياسى ، ٣ أقسام ، دار الهنا للطباعة ، ١٩٧٦ .

القسم الاول : تاريخ اليمن قبل الاسلام ، والقسم الثانى : تاريخ اليمن بعد الاسلام ، كذلك خصص فصل للحكم العثمانى الاول ، تلاه عودة العثمانيين الى اليمن ، وذكر الائمة المعاصرين لتلك المدة .

٧٥- محمود كامل .

اليمن شماله وجنوبه ، قسمان ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٨ .

القسم الاول : يشمل الحديث عن عصر قبل التاريخ فى الجنوب العربى ، والقسم الثانى تحدث عن عهد الخلفاء الراشدين وتدرج حتى وصل الى

الاحتلال البريطانى لليمن ١٨٣٩ - ١٩٦٧ والاحتلال العثمانى لليمن الشمالى ١٨٤٩ - ١٩١٩ .

٧٦- مصطفى الحفناوى .

قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، جزءان ، القاهرة ، ج ١ نشرته مكتبة الانجلو ، الطبعة الثانية ١٩٥٦ ، ج ٢ ، مطبعة دار اخبار اليوم . خصص الجزء الاول : لتاريخ القناة وأصول مشكلاتها ، وخصص الجزء الثانى للنزاع المصرى البريطانى .

٧٧- مصطفى سالم .

تكوين اليمن الحديث ، ثلاثة أقسام ، القاهرة ، مكتبة سعيد رأفت . القسم الاول ، الاتراك العثمانيين قبل الامام يحيى ، كما تحدث عن سياسة عبد الحميد الثانى الاسلامية ، وانتقل بعد ذلك الى الانتداب العثمانى (١٩٠٨) ، وأثره على اليمن .

٧٨- مصطفى مراد الدباغ .

جزيرة العرب ، بيروت ، منشورات دار الطليعة ، الطبعة الاولى ١٩٦٣ . معلومات تتعلق بجغرافية وطبيعة أرض الجزيرة العربية .

٧٩- هاشم سعيد النعيمى .

تاريخ عسير فى الماضى والحاضر ، غير معروف مكان الطبع وسنتها . على شكل ثلاثة فصول ، والفصل الثالث : حالة عسير السياسية ، فتحدث عن ضمن ذلك عن الامير عائض ، وابنه محمد بن عائض ، وعلاقاتهم بالدولة العثمانية ، والولاة العثمانيين .

٨٠- الواسعـــــى .

تاريخ اليمن ، المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ،

القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٤٦ .

القسم الاول : السيرة النبوية وأئمة اليمن ، والقسم الثانى : جغرافية

اليمـــــن .

٨١- يوسف احمـــــد .

المحمل والحج ، القاهرة ، مطبعة حجازى ، ١٩٣٧ .

استعرض فى البداية العلاقات المصرية الحجازية ، ثم الاهتمام من قبل

الحكومة الحجازية بالحجاج واخيرا تكريم الكعبة فى عهد الـــــدول

الاسلامية .

مراجع أجنبية مترجمة

٨٢- بيير رنوفان ، تاريخ [illegible]

تاريخ العلاقات الدولية ، ترجمة د . جلال يحى ، القاهرة ، دار المعارف ، ط ١/ ١٩٧١ .

قسمين . فى ستة أبواب ٣٨ فصل .

الفصل السادس عشر : قناة السويس والسياسة الفرنسية نحوها ، الفصل الثلاثون : آسيا الصغرى . وسكة حديد بغداد .

٨٣-

تاريخ القرن العشرين ، ترجمة نور الدين حاطوم ، دمشق مطبعة جامعة دمشق / ١٩٦١ .

محاضرات عن القرن العشرين ، مقسمة الى ثلاثة أقسام :

القسم الاول ، الفصل الاول : المصالح الاساسية للدول الاوربية العظمى فى بداية القرن العشرين .

٨٤- جان بيشون .

بواعث الحرب العالمية الأولى ، ترجمة محمد عزة بروزه بيروت ، مطبعة الكشاف . الكتاب باللغة العربية عن ترجمة تركية عن فرنسية . للكاتب التركى حسين جاهد ياشين الفصل الرابع : التشاد الافرنسى - الانكليزى فى القرن التاسع عشر ، الفصل التاسع : التفاهم على أمور الشرق قبيل الحرب العالمية الاولى .

٨٥- جالينا نيكتينا .

قناة السويس ملكية وطنية للشعب المصرى ، ترجمة : ابراهيم عامر ،
القاهرة مطبعة الدار المصرية ١٩٥٧ .

يبين أن قناةالسويس ممر بحرى ذو أهمية حيوية .

٨٦- جان جاك بيربى .

جزيرة العرب : ترجمة نجدة هاجر ، وسعيد الغز ، بيروت ، المكتب
التجارى للطباعة .

خمسةأقسام .

القسم الثالث : الجنوب العربى .

٨٧- جيمس موريس .

الملوك الهاشميون ، بيروت ، ترجمة ونشر المكتب العالمى للتأليف
والترجمة .

المقدمة : الاوضاع العامة فى الدولة العثمانية ، خاصة منطقة الحجاز
ثم ترجم للشريف حسين .

٨٨- جورج انطونيوس .

يقظة العرب ، ترجمة د . ناصر الدين الاسد ، د . احسان عباس ،
بيروت ، دار العلم للملايين ط ٣ .

تحدث فى الفصل الرابع عن عهد السلطان عبدالحميد ١٨٧٦ - ١٩٠٨
البلاد العربية الخاضعة للسلطان .

٨٩- حسين لبيب / ترجمته .

تاريخ الاتراك العثمانيين ، القاهرة ، مطبعة الواعظ ، ١٩١٧ .

مترجم عن الانجليزية ، الجزء الاول قسطان كل منهما مستقل بفصوله وأرقامه وصفحاته ، فتحدث في الفصل الخامس عن سكة حديد الحجاز .

٩٠- شونفليد هيوج .

قناة السويس ، ترجمة أحمد خاكي ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٤٥ .

تحدث في الفصل الرابع عن ادارة قناة السويس وتجارة العالم - كيف نظمت شركة قناة السويس . رسوم القناة وتكاليفها - الصيانة وتنظيم المرور - وأثرها في تجارة العالم .

٩١- عبد الله فيلبي .

تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ترجمة عمر الديراوي ، بيروت ، منشورات المكتبة الاهلية .

احدى عشر فصلا ، بدأ من محمد بن سعود ، وانتهى بعبد العزيز ابن عبد الرحمن .

٩٢- كارل بروكلمان .

تاريخ الشعوب الاسلامية ، ٥ أقسام ، ترجمة نبيه امين فارس ، ومنير البعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٤ .

القسم الرابع : الاسلام في القرن التاسع عشر ، وعلاقة الدولة العثمانية باقاليمها .

القسم الخامس : الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية الاولى ، وعن الاحداث فى شبه جزيرة العرب .

٩٣- محمد عمر حبشى .

اليمن الجنوبى ، قسطان ، ترجمة د . الياس فرح ، د . خليل احمد خليل ، بيروت ، دار الطليعة ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٨ .

المقدمة لمحة تاريخية عن اليمن الجنوبى ، وذلك منذ الاكتشافات البحرية الكبرى ، كما تحدث عن الاستعمار البريطانى لعدن .

٩٤- هارولد ف ، يعقوب بك ، سى ، اى .

عدن وجنوب اليمن فى ملوك العرب ، جزءان ، ترجمة المضواحى ، دار النهضة ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٧ .

يتحدث فى الجزء الاول عن الحكم العثمانى فى اليمن ، واستيلاء بريطانيا على المناطق المجاورة لعدن .

المراجع الاجنبية

٩٥- H.L. Hoskins : British Routs to India, London, Frank & Company L T D 1966.

المجلات والدوريات العلمية

٩٦- ميشال اسطفان .

مقال بعنوان (تاريخ الطوابع فى المملكة العربية السعودية) ، مجلة تاريخ العرب ، العدد ٧٠ .

٩٧- وجيه الخيمى .

مقال بعنوان (الخط الحديدى الحجازى ماضيه وحاضره) مجلـــة الفيصل العدد ٣٢، صفر ١٤٠٠هـ / يناير ١٩٨٠ السنة الثالثة دار الفيصل الثقافية الرياض .

فهرس الموضوعات

الفهـــرســـت

H.C.I. 3752X/P0983

صفحات